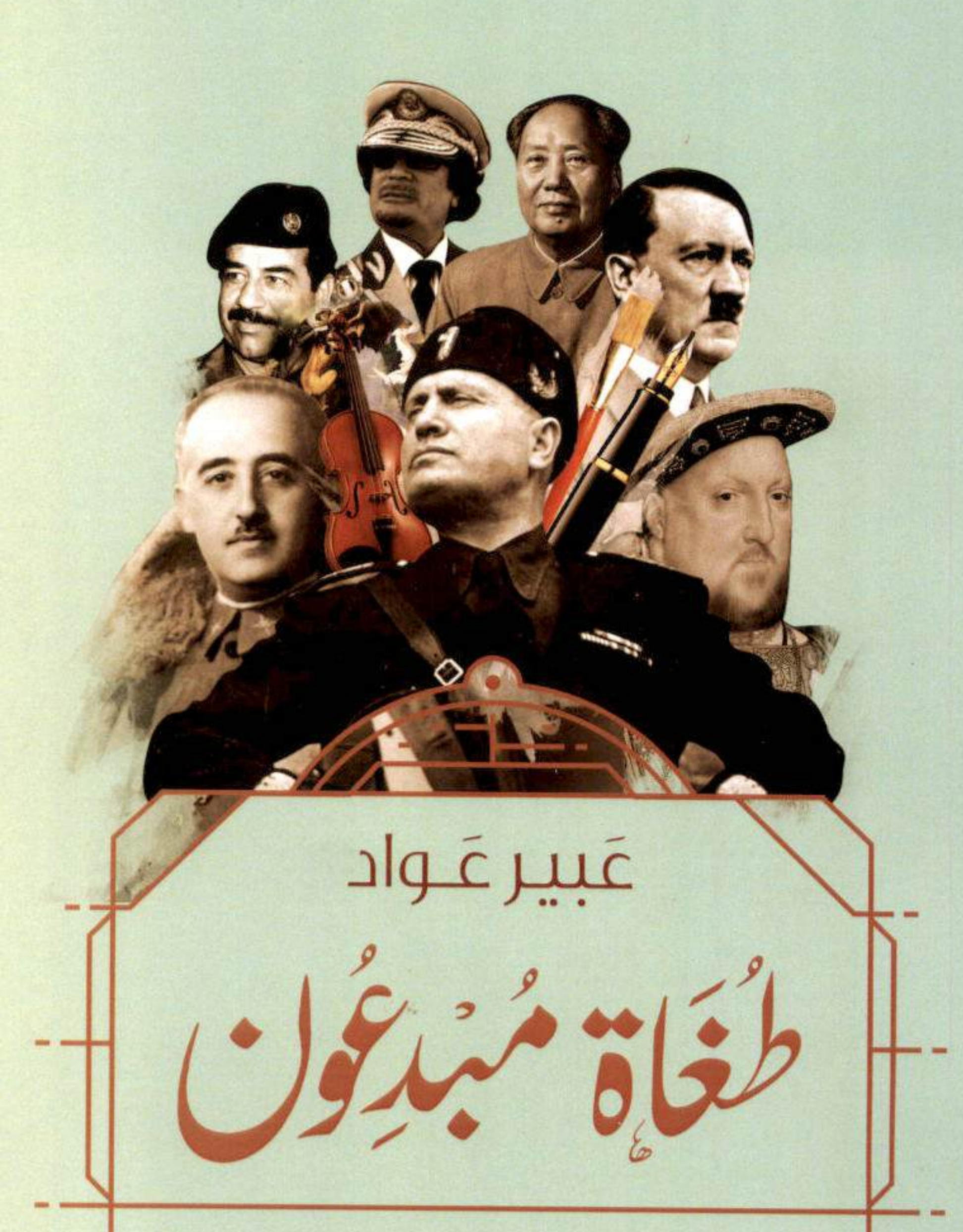


عَبير عَواد

طُغاة مُبدِعُون

الإنسان بين الطغيان والإبداع

دار اكتب

طُغاة مبدعون

طُغاة مبدعون

الإنسان بين الطغيان والإبداع

عبير عوّاد

الطبعة الأولى ، القاهرة 2018م

غلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع: 2594 /2018م

I.S.B.N: 978-977-488-549-5



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان: 12 ش عبد الهادي الطحان . من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة، مصر

هاتف: 01111947957

بريد إلكتروني: daroktob1@yahoo.com

طُغاة مبدعون

الإنسان بين الطغيان والإبداع

عبير عوّاد



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى الأصدقاء ... والقرَّاء

إلى رُفَقاء الطَريق ... شُرَكاء الْحُلم ...

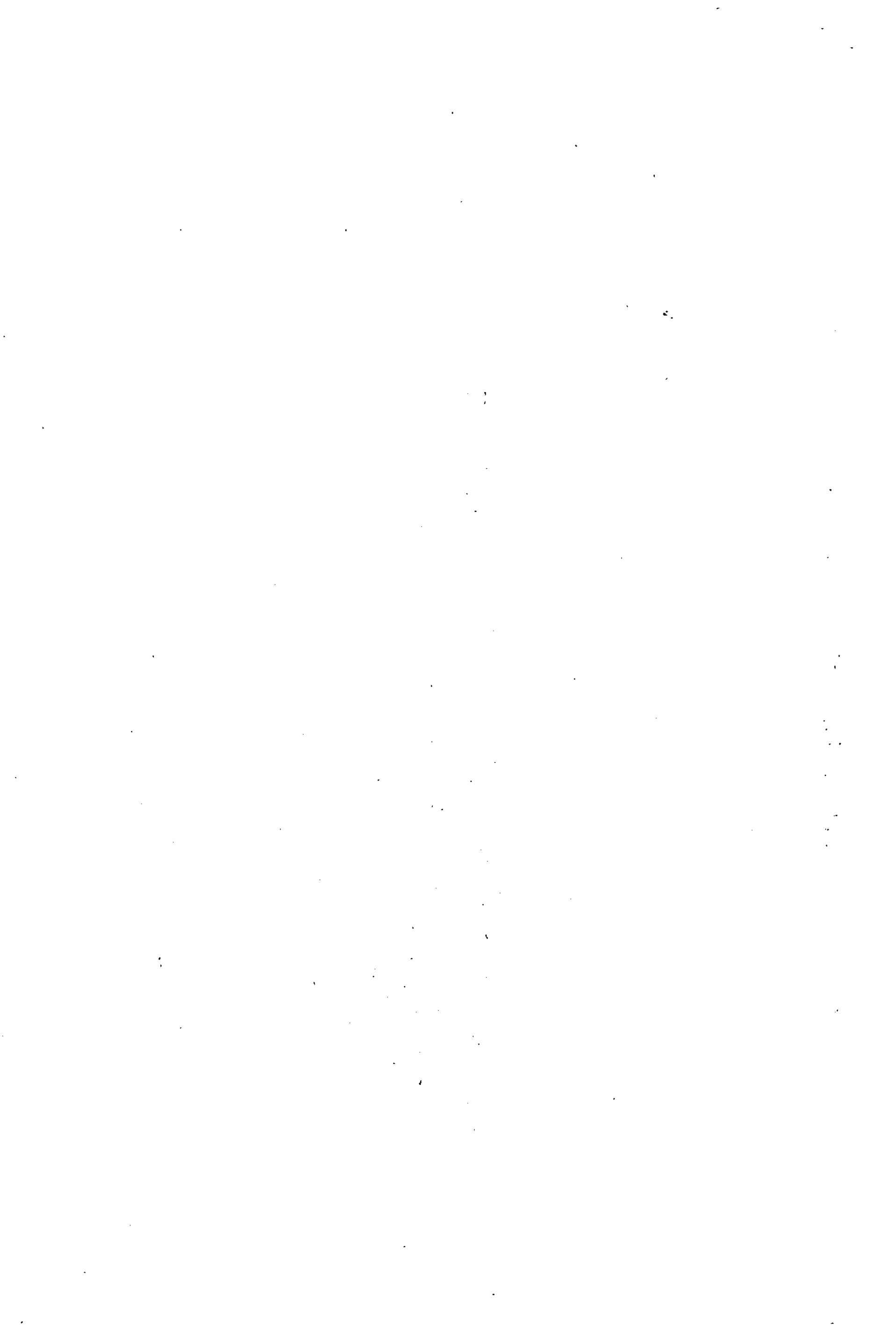
أصدقائي بمجلة جيل جديد

إلى راشد ويوسف ... شُكرًا لأنكما بالجوار

إلى ابنتي سوزان ... شُكرًا لأنكِ بحياتي

وأخيرًا ... إلى الإنسان ... في كُلِّ زمان ومكان

عبير



مقدمة

ما رؤيتنا للإبداع؟ وما تصوراتنا النمطية عن المبدع؟

البعض يرى أن الإبداع بالأصل محاولة لتأجيل الجنون. هو نتاج لصراع باطني داخل المبدع كفيل بقلب موازين الاتزان والمعقول بلا نذير، فقد يقترن الإبداع بالتصرفات غير المبررة وغير الواقعية للمبدع الذي لا يعيش كما البشر قد يحلّ له ما لا يحلّ لغيره فهو ذاك الساهر دائمًا، غير حليق الذقن، السيجارة لا تُفارق شفتيه، مظهره غير عادي، يتناول القهوة السوداء بلا سُكر، يمارس ما هو غير معتاد، يعيش حالات الضياع والشرذمة والبوهيمية، وينال منة الألم في غير ذي موضع، يحبُّ حدّ العشق ويفشل في الحب، فيكفر به ويصبح عدوًّا له أو يتحول عنه إلى العلاقات المتعددة الجنسية العابرة.

المبدع على هذه الشاكلة قد يراه الناس مهووسًا أو غريب الأطوار شخصًا يصعب الوثوق به، شخصًا غير عادي لا يسهل التعامل معه، رغم كل الملامح السابقة لصورة المبدع، ورغم تقبل المتلقي لتلك الصورة في الغالب فإن من الغريب أن يكون هناك صورة أخرى للمبدع ليست نادرة بل غير معتادة ولكنها متكررة.

ألا وهي الطاغية المبدع..

على مر العصور قدَّم لنا التاريخ نماذج متعددة لطُغاة مارسوا الإبداع وتذوَّقوه بما لا يتفق مع طبيعتهم الديكتاتورية سواء في الرسم، أو النحت، أو الموسيقا، أو الخطابة، أو الكتابة.

يوليوس قيصر كان يقرض الشعر.

هتلر كان يمارس الرسم ومتذوقًا للموسيقا وعاشقًا للعمارة.

ستالين كان ممارسًا للكتابة والشعر أيضًا. فرانكو كان يرسم أيضًا.

موسوليني كان كاتبًا صحفيًا، وله تجارب أدبية.

ماو كان شاعرًا وكاتبًا للمقالات غير إصداراته الفكرية فيما يخص فلسفته.

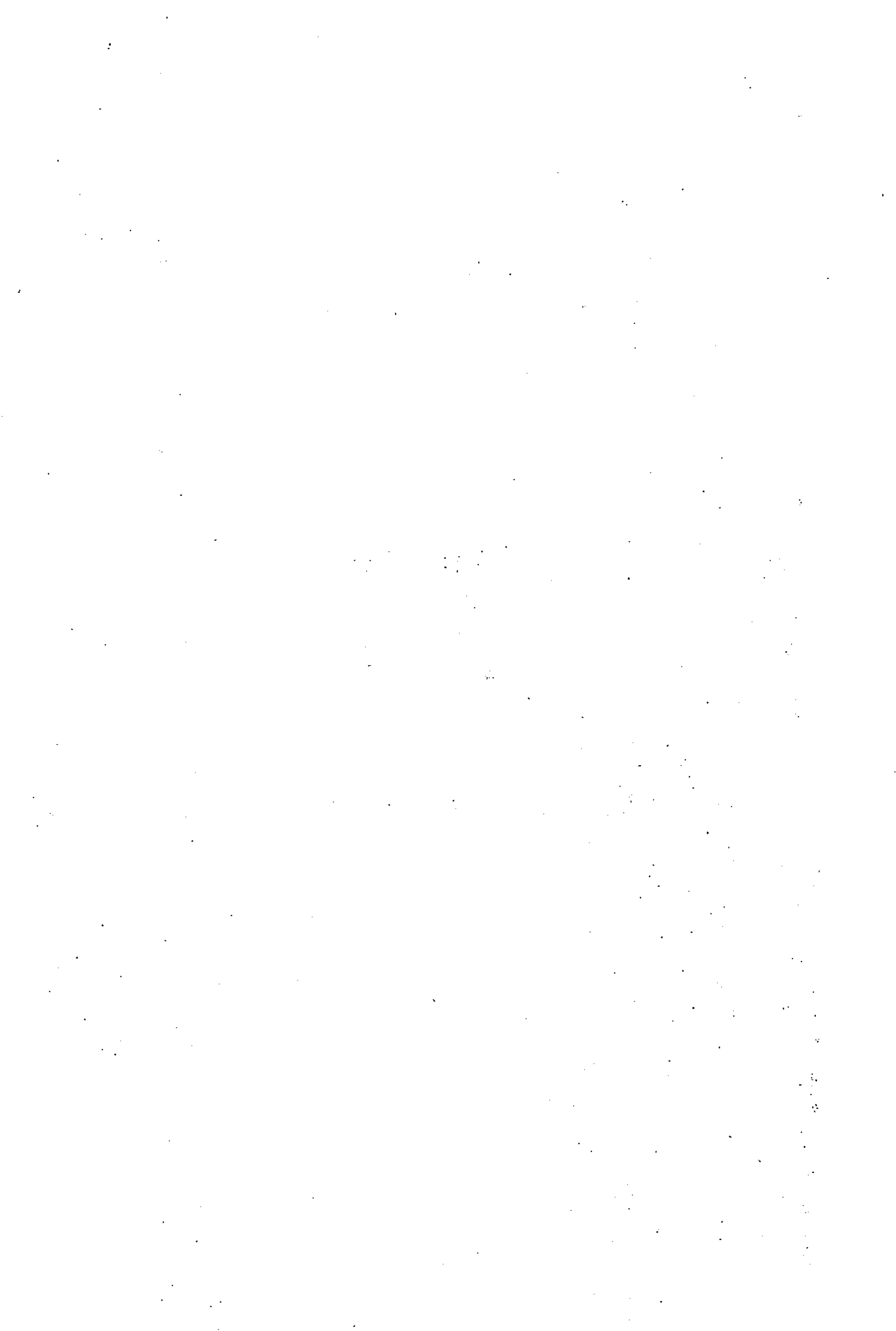
القذافي، صدّام حسين كلاهما مارس الكتابة وصدرت لهما أعمال شعرية وأدبية تحمل اسميهما.

وهذه الظاهرة هي ما سنحاول التحدُّث عنها في هذا الكتاب، لنحاول أن نعرف، طبيعة العلاقة بين الطُّغيان والإبداع.

القسم الأول

الطُّغيان والإبداع

محاولة لفهم العلاقة بينهما



عشرات الأسئلة تدّفقت إلى ذهني وأنا أفكر بالأمر.

كيف يصبح الإبداع والطُغيان وجهين لعملة واحدة؟ هل يكون الفنان عُنصريًّا؟

كيف يقترن الإبداع وهو بالمجمل خَلْقُ حالةٍ من الجمال مع القتل والطغيان وممارسة العنف والوحشية؟

هل هي محاولة فرض الطاغية السيطرة على كل مقومات الحياة بما فيها الإبداع نفسه؟

السيطرة على الخيال، على التصورات التي يمنحها الإبداع وحصرها في رؤيته هو، كي يصبح أمام شعبه المقهور تحت وطأة ظلمه وأمام نفسه ربما مالكًا لكل شيء وأي شيء؟! هل هو ذاك الإحساس بالعنصرية البغيضة وتميزه عن غيره؟ ومن ثَمَّ محاولةٌ منه للتألّه؟ أم محاولة خفية للبحث داخل نفسه عن مساحة مُفتقَدة من الجمال؟ أو درء صفة الطغيان عن نفسه والوقوف أمام مرآته سائلًا لها عن انعكاس صورته لتخبره أنه لا أجمل منه في العالم.

عند قيامي بتحليل النماذج التي ذكرتُها لإيجاد عاملٍ مشترك فيما بينهم. خطر على بالي مشهد ما زال عالقًا بذهني في الفيلم الشهير "القيامة الآن" من بطولة مارلون براندو للمخرج العبقري فرانسيس فورد كوبولا المأخوذ عن رواية "جوزيف كونراد" "قلب الظلام".

مُلخَّص الرواية عن العقيد "وولتر كيرتز" الذي توغَّل عميقًا في الغابات بأفريقيا وانقطعت أخبار مكانه عِن القوات الخاصة التي ينتمي إليها عدا معلومات تشير إلى ما يرتكبه من أعمال قتل، فتقرر إرسال ضابط للعثور عليه وقتله بسبب الحالة الجنونية التي تحول إليها فصار خطرًا على حياة الناس، وبعد رحلة شاقة يصل الضابط إلى مكان هذا العقيد المعزول حيث تحيط به الغابات فيجده جالسًا في محل إقامته يمارس هوايته بقراءة قصائد الشاعر الإنجليزي"ت. س. إليوت" ومن حوله تتناثر أعدادٌ لا تُحصى من الجماجم لأناس قام بقتلهم على أيدي عصابات تعمل لحسابه بعد أن انقطعت الأسباب بينه وبين الجيش الذي ينتمي إليه، فهو قَتَلَ لمجرد القتل ولمتعة القتل.

لا أدري؟ لِمَ ذكرني هذا القائد المجنون بشخصية هتلر.

يقول هتلر: لقد أصبحت سياسيًّا ضد رغبتي، فلو عاد بي الزمن إلى الوراء لما اخترتُ الدخول إلى مُعترَك السياسة، ولكنت اخترت أن أصبح فنانًا أو فيلسوفًا! ومما عُرف عنه أنه كان عاشقًا للمسرح تمنى لو أصبح فنانًا مسرحيًّا.

ولكن! هل كان هتلر سياسيًّا فعلًا؟

توقفتُ لحظاتٍ أمام مقولة هتلر، انتبهتُ إلى أنه لم يكن ذاك السياسي الذي يستخدمُ أساليبَ المُداهنة والمُراوغة والالتفافِ للوصول إلى ما يريد في أيٍّ من معاركه.

لقد كان رجلًا عسكريًّا يرى في نفسه وفي جنسه الأفضلية والتميّز، رجلًا لغته هي القوة المُستمدَّة من الطبيعة العسكرية، وتلك الطبيعة هي الرابط الذي يجمع بين أغلب الشخصيات التي أسلفتُ وذكرتُها، فأغلبهم رجال حربٍ، وهم طُغاة قطعًا! أشخاص اعتقدوا أنهم مُميزون حَدَّ التقديس سواء لإحساسهم بالتميُّز العنصري كهتلر أو لامتلاكهم القوة التي تُوفِّرها لهم الآلة العسكرية وأدواته، كموسوليني الذي لم يكن عسكريًّا.

فهل نستطيع اعتبار أن طبيعة تلك الشخصية العسكرية التي تتحرك وَفْقَ حدود مرسومة بدقة غير قابلة للمرونة والاتساع لقبول حدودٍ خارجها بالموازة مع البنية الطاغوتية والطبيعة السايكوبتيكية للشخص هما المحرك الرئيسي لتُحوِّل بالتدريج سيطرتَه من سيطرةٍ على الواقع المعيش إلى محاولة لفرض السيطرة على الإبداع والخيال أيضًا؟ ربما! مقارنة بكثير من النماذج، لكن بالمجمل ليس هذا هو السبب الوحيد.

في دراسة قام بها أكاديميَّانِ من أكاديمي جامعة "كونستانز الألمانية" من سنوات عن "الفنون الحكائية والعنف" تطرَّقا إلى أن الطُّغاة يدركون أن الخيال هو الذي يُذَكِّر المرء بإنسانيته، يمنحه آفاقًا أخرى وعوالم أخرى وأماكن أخرى وسيناريوهات أخرى. فيأتي الطاغية ليقول لشعبه ببساطة: حتى هذا الخيال بقبضتي، وأنا فقط مَن أُتيحُه لكم وفق رؤيتي.

هل تتذكرون "وينستون" في **1984**، رواية جورج أورويل الشهيرة؟ فعملُه مُحررًا مسئولًا عن مراجعة التاريخ يجعله يُعيد كتابة الوثائق ويغير الصور بحيث تتفق مع ما يعلن الحزب أنه الحقيقة، يمحو الأفراد المغضوب عليهم أو "اللا أشخاص" ويعدم الوثائق الأصلية في "ثقوب ذاكرة" مخصصة لذلك.

ألا يقوم الطُّغاة بالتحكم في ذاكرة الشعوب بتحديد ما يعرض عليهم من أخبار وأحداث، بل بكيفية عرضها أيضًا؟! ألا تقوم الآلة الإعلامية الطاغوتية بتوظيف المتاح مسموحًا أو غير مسموح لتشكيل وعي الشعوب بما يتناسب مع تصورات الحكام ويتوافق مع أهوائهم ويخدم مخططاتهم؟ أليس هذا نوعًا من إحكام السيطرة على الخيال بل ضبطه في أُطرٍ وحدودٍ نابعة مما يريده الطاغية؟

لقد أشارت الكاتبة الألمانية دكتور حنّا أرنت في كتابها عن التوتالرية "الشمولية" إلى أن:

"الطاغية يتحوَّل طغيانه بمرحلةٍ ما ليس إلى الأعداء والأصدقاء بل إلى الخيال نفسه حيث يُوظِّف الخيال لخدمة نظامه القمعي الشمولي، ويصبح الخيالُ إحدى وسائله لإحكام السيطرة على السيناريوهات المحتملة أو البديلة التي تتصورها الشعوب، فيوظف الخيال ليكون مدروسًا متناغمًا مع رغباته وأوهامه الطّاغوتية".

لكن هل يمكن حقًّا لطاغية مريض بالسايكوباتية أن يكون مبدعًا؟!

والإجابة التي تقدمها لنا كتب علم النفس هي:

نعم! يمكن بالفعل أن تكون للقائد السايكوباتيكي علاقة بالإبدا ع، ليس بالضرورة أن يكون إبداعا متميزًا ولكنه قادر على أن يقدم إنتاجا أدبيًّا أو فنيًّا متوسط القيمة، فليس غريبًا أن يكون الإيطالي موسوليني صاحب موهبة في الكتابة الصحفية، أوصلته إلى أن يكون رئيس تحرير لصحيفة يكتب لها الافتتاحيات الحماسية التي صنعت له شعبية بين الناس، كما لم يكن غريبًا أن يكون هتلر مؤلفًا لكتاب سيرته الذاتية الذي أسماه "كفاحي" قبل أن يعتلي سُدّة الرايخ الثالث، كما أنه كان رسامًا حاولَ دراسة الرسم وقدَّم عدة لوحات .

يرى البعض أن هناك في ذهن الطاغية مساحة صغيرة للإبداع، لكنها مساحة غير قابلة للاتساع والتمدُّد، مساحة شائهة بما يُمثّل موقعها في الدماغ الذي تحاصره كميات هائلة من التشوُّهات تمنعه من النمو والتطور،وهي التشوهات التي تُمثّل خصائص أساسية في المريض السايكوباتي وتعوقه عن التعامل تعاملًا سويًّا وطبيعيًّا مع العالم الذي حوله، أو الواقع الذي يعيش فيه، وتكاد تقطع الأسباب والروابط التي تربطه برفاقه في الإنسانية، وعندما يصل المريض السايكوباتي "صاحب المهارات التآمرية التي تتيح له ذلك مع قوة دافعة تسوقه لامتلاك السلطة والقوة والسيطرة" إلى السلطة فهو لا بد أن يتحوَّل بسرعة الى طاغية، ولن يلبث مدة في الحكم حتى يخترع الأسباب لإعلان الحرب؛ لأنها تعطيه رُخصة للقتل وارتكاب المجازر دون حسيب ولا رقيب أو عقاب، وتمنحه فرصة عظيمة لإرضاء نَهَمِه المجنون لإيقاع أكبر قدرٍ من الأذى وأضخم عددٍ من الكوارث.

فضلًا عن التقلُّب من موقفٍ الى آخر لدى المريض السايكوباتي، فلا وجود لثباتٍ، أو تناسبٍ أو انتظامٍ في سلوكه أو حديثه ولا نسق يسير عليه بل هو دائمًا "غير مُتوقَّع" **Unpredictable**، أي لا قدرة لأحدٍ على أن يتنبأ بما سيقدم عليه. يقول اليوم شيئًا وفي الغد شيئًا مخالفًا له. وملازمًا لهذا التقلب والارتباك في الآراء والأفكار والسلوك يأتي الكذب، فالمريض يمارس الكذب دون أن تطرف له عين، ويحيا حياته بلا مبادئ أو مُثل على رغم أنه يمكن أن يقول غير ذلك، أو يجعل من هذه المبادئ شعارات تُقدِّم له غطاءً لارتكاب جرائم القتل.

هذا الطاغية لا يرى في مرايا الأرض والسماء إلا ذاته المتضخمة وأناهُ، بما يترتَّب عنه إلغاء أي وجود لأي كيان آخر غيره وإقصائه وإزالته وإبعاده، ساعيًا إلى محو كل الأسماء إلا اسمه، وتحطيم كل التماثيل إلا تمثاله، وإطفاء كل النجوم إلا نجمه.

وفي هذا الإطار لم يكن غريبًا أن يرفع العقيد القذافي شعارًا في دولته:

أن لا نجومية في المجتمع الجماهيري، ليصبح هذا الشعار بمنزلة القانون، وليبقى هو وحده النجم الأوحد حتى لو بسماء الإبداع!

هناك أمر جدير بالملاحظة.

هل يمكن أن نعتبر أن رغبات الطُّغاة الدفينة التي فشلوا في تحقيقها ليتحول بهم مسار الحياة إلى منحًى آخر مختلف كل الاختلاف وبعيد كل البعد عن تطلعاتهم الحقيقية، في أن يكون لهذا التحول أثره الدائم فيهم ويعود بهم الحنين إلى ممارسة ما حُرموه أو فشلوا فيه، في حين أنهم زعماء وحكام لشعوبهم مسيطرون على أقدارهم بديكتاتوريهم وطغيانهم وقتها سيمارسون إبداعهم ولو كان فاشلًا بلا معنى أو قيمة، وسيفرضونه على الواقع كما يفرضون كل شيء؟!

فبالقياس إلى هتلر الديكتاتور! هناك هتلر الفنان الفاشل في الرسم حسب رأي الأكاديمية، والذي كان يحاول أن يصبح أحد الرسامين العظام، وأن يجعل من الفن الألماني أعظم الفنون.

هل كان هذا بسبب قيمة الفن الجوهرية أو لإحساس هتلر بقيمة الجمال! أم لشعوره بالتميز وفق نزعته العنصرية ورغبته في أن تتصدر بلاده عرش الموسيقا الكلاسيكية والفن والمعمار؟ وعليه، فقد جعل من نجاحه في الوصول إلى السلطة فيما بعد ما يمنحه الفرصة ليفرض فنه عندما أعاد تقديم لوحاته المرسومة بالألوان المائية عام 1925 مرة أخرى وقدَّم تحليلًا لها.

بينما موسوليني الذي كان كاتبًا صحفيًّا وخطيبًا مُفوَّهًا يُجيد التأثير في الجموع، يميل ميلًا فطريًّا إلى العنف منذ طفولته وفي فترة شبابه رافضًا ومتمردًا على كل الثوابت بما فيها الدين ورموزه.

أما القذافي فقد أعاد تجميع مقولاتٍ من الشرق والغرب لينشرها في كتابه الأخضر لتكون كلماته دستور حياة، ودليلًا في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الشعب أن يعتنقها ويؤمن بها، كما كتب أيضًا قصتين قصيرتين تصلحان لاعتبارهما وثيقتين لتحليله نفسيًّا إحداهما باسم "الهروب إلى جهنم".

ملاحظة أخرى تستحق التوقف.

لو عقدنا مقارنة بين أدولف هتلر وبينيتو موسوليني مثلًا وصدّام حسين ومعمّر القذافي من حيث كونهم طُغاة وبالوقت نفسه لامسوا تلك المساحة من الاقتران بالإبداع اقتربوا منه بشكل أو بآخر، حتى لو اعتبرنا أن ما قدموه لم يكن إبداعًا بالمعنى المفهوم، أو أنه لم يكن

ذلك الإبداع الذي يحمل قيمة تعني الرُّقي والارتقاء بمتلقيه عاطفيًا ووجدانيًا وانفعاليًا، سنجد أن هتلر وموسوليني رغم طغيانهما فإن نزعتهما العنصرية التي تتضح في أفكارهما ونظرتهما للآخر تُظهِر ميلهما لما يُمثِّله جنسهما أما رؤيتهما للشعوب والأجناس الأخرى فعلى أنها أحقر شأنًا وأقل قيمة.

بينما كان صدّام والقذافي كلاهما طغيانه موجَّهٌ بشكل أكثر قوة ناحية شعبيهما وبني جنسيهما وجلدتيهما بل ودينهما حيث وجّه صدّام أغلب طغيانه إلى الشيعة من بني قومه على اعتبار العداء التاريخي والديني بين طائفتي السُّنّة والشيعة، أما القذافي فكان طغيانه موجهًا ضد المعارضين والمخالفين له من أبناء وطنه بالمجمل، وبالعموم بعد عهود من حكم ديكتاتوري استبدَّ فيه بالسلطة. لا أدري حقيقة ما السّر في هذا؟ وأظنُّ أنه أمر يستحق البحث والدراسة.

هل الطاغية في الشعوب السامية يختلف عنه في الشعوب الآرية؟ هل السامي يشعر دائمًا بتلك النزعة الاستعلائية له كونه فردًا وسط المجموع؟ ومن ثم فإنه من السهل ومن المقبول أن يتحول لطاغية ضد المجموع مهما تكن العلاقات الوثيقة التي تربطه بهذا المجموع!

بينما الآري ترتبط نزعة التعصب والاستعلاء لديه بالكُل "المجموع":

بنو قومي هم الأفضل، شعبي هو الأحق والأجدر بالتسيّد والسلطة!

ومن ثم فالآخرون هم الأقل شأنًا

إن الفروق بين العـ[illegible] سعة وعديدة قد تضعنا في مأزق العنصرية وتتوه بنا عن مقصدنا، وليس هذا بمحل طرحها لكنني ذكرتُ تلك الملاحظة لأنني بالفعل كنتُ قد توقفت عندها مليًّا.

على الرغم من هذا كله وجدت أن المحصلة واحدة.

طاغية وإبداع – الغالب لا يكون مميزًا أو جيدًا– وطبيعة سيكوباتية تتحكم بفرد تمكن من القوة سواء أكانت قوة عسكرية أم سلطة حاكمة أم كليهما معًا لينتهي الأمر به إلى محاولة إمساك كل الخيوط بيده، وأخيرًا التحكم في الخيال كما التحكم بمصائر الشعوب!

بالنهاية نخلُص إلى أن الطبيعة السيكوباتية والنزعة إلى التألّه بحس عنصري يدّعي صاحبه التميُّز والتي تتلاقى أحيانًا مع القوة العسكرية بأدواتها الشمولية وما تمنحه من سلطة، بالإضافة إلى سمتٍ إبداعي يتوافر بشكل أو بآخر لدى صاحب تلك الشخصية.

هذه العوامل مجتمعة قد تكون تفسيرًا ممكنًا لفكرة إبداع الطُّغاة وإجابة عن السؤال:

كيف يكون الطاغية مبدعًا؟

ومن هذا المنطلق فإن محاولة الطاغية للإنتاج الإبداعي ليست إلا محاولة ضمنية لإحكام سيطرته بصورة أو بأخرى على الواقع والخيال لدى شعبه، بفرض إبداعه أو ما قد نطلق عليه جزافًا إبداعًا وهو أبعد ما يكون عن هذا، كما يفرض عليهم كل شيء آخر.

وعلينا ألا ننسى أهمية الفنون في حياة الشعوب، التي عندما سُئِلَ "العقاد" عنها أجاب:

"بوسعنا العيش دون مَلَكَة النظر سبعين عامًا دون أن نهلك، ولا نقدر أن نعيش سبعين يومًا دون الرغيف، ولم يقل أحد لهذا إن الرغيفَ أهم من البصر، ولكن بتقييم السوق: الرغيف أرخص من الكتاب، والتمثال أغلَى من الثوب فقيمة الشيء لاتتعلق بقدر الحاجة إليه، بل بقدر ما نصبح عليه إذا حصَّلناه، فتحصيلنا الرغيف يساوينا بسائر الأحياء، ولكنْ تحصيلنا الجمالَ لا يجعلنا أحياءً وحسب، بل يجعلنا بشرًا ممتازين في أمَّة ممتازة تُحِسُّ وتُحْسِنُ التعبيرَ عن إحساسها".

"الضروراتُ تُوكِلنا بالأدنَى من مراتب الحياة، أما الذي يرفعنا إلى الأوّج من طبقات الإنسان، فهو الفنون".

لذلك أقول وأنا على يقين:

إن الأنظمة القمعية الظالمة التي تسلب المجتمع أي مظاهر إبداع أو فنون وتمنعها عنه أو تقوم بتشويهها عن عمدٍ بما هو شائهٍ من اللإبداع تحت مسمى ديني أو وطني!

تفعل هذا لأنها تدرك:

أن وجود شعب متذوق للفن ومؤمن بالإبداع، متعطش للخيال هو شعب لا يمكن أن يعيش دون الحرية، وقيم الحياة الكريمة... هو بالنهاية شعب ثائر!

وبناء على هذا. فإحكام السيطرة على الخيال يعني ببساطة:

إحكام السيطرة على الشعوب، وربما منعها من الثورة على الطغيان.

عندما بدأت في البحث عن علاقة الطغيان بالإبداع. وجدتُ نفسي أرتادُ وأجوب بمسالك عدة بين طبيعة المبدع وطبيعة الإبداع وسيكولوجيته! بين قيمة الفن وفلسفته وتأثيره في متلقيه، وأهمية الخيال للفرد والمجتمع! وأخيرًا سيكولوجية الطاغية.

ذاك الذي ترتعش روحه للحنٍ من ألحان بيتهوفن أو موتسارت لا يتورع عن اعتقال معارضيه وإعدامهم، أو الذي يرسم لوحات الطبيعة الساحرة ويقرض أشعارًا رومانسية ولا يتورع عن إزهاق الأرواح بدمٍ بارد.

في الحقيقة كنت وما زلتُ أثقُ بأن للفنون تأثيرها في المبدع قدر تأثيرها في المتلقي، وأن للفنون على أنواعها قُدرةً على تهذيب النفس والارتقاء بها، وأنه من الصعوبة أن يكون صاحب التذوق الفني الموسيقي سفاحًا قاتلًا، أو يكون متذوق الشعر الذي تُخايله الألفاظ ودلالتها، مخاتلًا ومخادعًا لا يتورع عن اعتقال من ينطق أو يكتب كلمة مخالفة له.

أو أن يختار عاشق الألوان على اختلافها ذاك الذي يقرأ رمزية المعنى بين ضربة فرشاة وأخرى اللون الأحمر فقط ليلون به الواقع من حوله، وليته لون الورود بل لون الدماء، دماء ضحاياه..

ولكن!

بالبحث واختيار عدة نماذج من طُغاة حكموا شعوبهم بالحديد والنار وفي الوقت ذاته أظهروا ميلًا لتذوُّق الفنون والاستمتاع بها فضلًا عن محاولة إضافة إنتاجٍ لها بمختلف فروعها الأدب/ الشعر/ الرسم.

ما قادني إلى عدة نقاط:

- تعريفنا للفنون:

ما الفن حقيقة؟ ما فهمنا له؟ وهل يختلف من شخص لآخر أو من ثقافة لأخرى فيقودنا هذا الاختلاف إلى اختلاف منهجي في التعامل مع الفن ومعياري في درجة تذوقه والإحساس به؟

- تأثير الفن في متلقيه:

هل الأمر لا علاقة له بالإبداع أو تذوق الفن من قريب أو من بعيد؟ فكونك طاغية لا يمنعك من أن تتذوق الفن أو أن تبحث عن الجمال ربما في محاولة لنيل المتعة وطلب اللذة التي يبعثها الفن أو لمجرد إثبات القدرة على ممارسة الفن ما دام الطاغية يرى في نفسه بطلًا خارقًا يستطيع الإتيان بأيِّ فعلٍ، وربما في محاولة خفية لعلاج النفس وشفائها مما يعتمل بها من جرّاء تأثير طبيعتها السيكوباتية وما يستتبع هذا من تصرُّفات وأفعال.

- محاولة لفهم طبيعة الإنسان وهنا أعني به الطاغية:

من حيث كونها العامل الأقوى تأثيرًا سواءٍ في ارتكابه لجرائمه بحق البشرية، أو في تذوقه للفن أو محاولته لاقتناص كل قيمة وإحكام السيطرة عليها.

وعلى هذا كان علّي البحث في عدة محاور تصبُّ جميعها في محاولة فهم الفكرة المطروحة وهذه المحاور هي:

1- فلسفة الفنون.

2- تعريف الطاغية والفرق بين الطاغية والديكتاتور.

3- سيكولوجية الإبداع.

4- سيكولوجية الطُّغاة.

5- مقارنة بين سيكولوجيتي الإبداع والطُّغاة لاستنتاج العلاقة بينهما من خلال الوسائل التي يستخدمها الطُّغاة.

6- نماذج مختارة لطُغاة على مر العصور وعرض سِيَر حياتهم وعلاقتهم بالإبداع.

7- مقارنة بين إبداع هتلر وموسوليني وفرانكو، ونظرة إنسانية على الطُّغاة من منطلق معرفي.

***

1- فلسفة الفنون

بالرجوع إلى كتاب "فلسفة الفنون" لـــ"ب. كروتشه" الذي يعرف فيه النشاط الفني على أنه:

"أول خطوات نشاط الفكر، فهو الصورة الفجرية لنشاط الفكر، وهو حدس خالص أي إدراك مباشر لحقيقة فردية جزئية، إدراك خالٍ من أي عنصر منطقي، وأنه من شأن المخيلة وإن المعرفة الحدسية هي المعرفة الفنية وهي سابقة على المعرفة المنطقية".

وأن مفاهيم مثل:

الحدس/الرؤية/التأمل/الخيال/التخيل/التمثّل/التصوّر

جميعها مترادفات تتردد باستمرار حين نتحدث عن الفن وإن كل حدس محض وكل معرفة فنية تُعبِّر عن حالة خاصة بالذات، فالفن هو التعبير عن شعور، وهو التكافؤ الكامل بين العاطفة التي يحسها الفنان وبين الصورة التي يعبر عنها.

وعليه فإن تصنيف الفنون والآداب غير ممكن لأن الحدوس فردية وجديدة أبدًا ولا نهاية لعددها ولا قيم ثابتة للتصنيفات التي يضعها النقاد للفنون داخل الفن الواحد.

فالفن ليس ماديًا، وليس نفعيًّا ليس له علاقة باللذة والألم من حيث كونهما لذةً أو ألمًا.

قد ننظر للوحة مثلًا ونُحبها لأنها حرَّكت بداخلنا ذكريات محببة إلينا رغم قبحها فنيًّا، والعكس صحيح قد نكره لوحة جميلة بالفعل فنيا لأنها من صُنع منافس لنا، وعلى هذا فاهتماماتنا العملية وما يصاحبها من لذات وآلام قد تختلط أحيانًا باهتماماتنا الفنية إلا أنها لا تستند إليه ولا تقوم عليه. كما إن التمذهب النقدي ووضع قوانين تحكم الفنون وتصنفها وفق التزام الفنان بالقواعد أو درجة إحداث الفن للذة أو توليده للحقيقة. وفي النهاية كون العمل الفني أخلاقيًّا من عدمه، واعتباره على هذا أثرًا جميلًا أم قبيحًا، هو معيار خاطئ للحكم على الفن كما يرى "كروتشه". لأن الفنان فنان لا أكثر، أي أنه إنسان يُحب ويعبّر وليس عالمًا أو فيلسوفًا أو أخلاقيًّا. وقد تنصب عليه صفة التخلُّق من حيث هو إنسان.

أما من حيث هو فنان خلَّاق، فلا نستطيع أن نطالبه إلا بشيء واحد. هو التكافؤ التام بين ما ينتج وما به يشعر، وعليه يكون موقف الناقد من مبدعات الفن موقف المتعبد لا موقف القاضي أو الناصح،

فهو بدوره فنان آخر يحسُّ ما أحسَّه الأول ويعيش حدسه ثانية، يعيش بصورة واعية ما عاشه الفنان بصورة غير واعية.

هنا توقفتُ كثيرًا!

لأن معياري في الحكم على الفن، هو حكم خاصٌّ بي أنا، أو حكم خاص بكل من يُؤطِّر الفن وفق مذهبية معينة، كما يقوم النقاد بنقدهم للعمل الفني بينما الأمر في النهاية مجرد أشد تجريدًا غير قابل لإخضاعه لأحكام أو تصنيفات.

كذلك فإن نظرتي للفن والإبداع هي نظرتي الخاصة، وهي التي تؤثر بنوع خاص في توظيف للفن وتوظيفي للإبداع. أرى الفن وسيلة للارتقاء الإنساني روحانيًّا ووجدانيًّا، أراه وسيلة سمو وارتفاع عن الماديات، وغيري يراه وسيلة للتمتع والبحث عن لذة أو وسيلة لانقضاء الوقت.

أما الطاغية صاحب الشخصية السيكوباتية فيراه أداة من أدواته التي يقوم بتوظيفها لإحكام سيطرته على شعبه، أو كي يتخطى الأمر، فكرة العدائية ضد المعارضين أو المخالفين له كما قالت "حنّا أرنت"، ليصبح العداء موجهًا للفن والخيال والإبداع بحد ذاته من حيث إحكام السيطرة عليه وقمعه داخل قلعة الطاغية التي يسجن فيها كل مخالف له حتى لو كان فكرة! مجرد فكرة يحتكرها هو لنفسه!

إن "كروتشه" ينفي عن الفن حمل عبء توجيه الناس نحو الخير وبثّ كراهيتهم للشر وإصلاح عاداهم وتقويم أخلاقهم. ينفي كون "كورديليا" شكسبير أخلاقية و"فرانشيسكا" دانتي غير أخلاقية، ويعتبرهما لحنان من روحي الرجلين ليس لهما إلا وظيفة فنية، ويقول إن الفن بما يحويه من تناقضات وإن حمل أم لم يحمل مفهومًا أخلاقيًّا فهذا لا يعني كون الفنان أخلاقيًّا أو لا! فالفنان من حيث كونه إنسانا ليس خارجًا عن سلطان الأخلاق كون فنه خارجًا عن سلطاها.

لهذا وجدتُ نفسي أنأى بتحميل الفن أكثر مما يحتمل، فكون الفنان يعتبر فنه رسالة وكون الناقد والمتلقي يحكم على المنتج الفني من هذا المعيار فإنما يندرج هذا تحت قيمة الإنسانية نفسها التي ترى في الفن رسالة سامية بما يقدمه.

وعليه فقد قنعت برسوخ كون الفن أداة مطوعة في يد مستخدمها. كما أن حُكمَنا على العمل الفني قد يكون نابعًا من طبيعتنا أو ما يُمثّله صاحبه لنا. قد ننظر للوحات هتلر بعيدًا عن كونه راسمها، فنجد فيها جمالًا لن نكتشفه ما دامت قد اقترنت في أذهاننا بهتلر. وقد نقرأ أشعار صدّام أو إرهاصات القذافي بعيدًا عن اسميهما فنجد فيها ما قد يعجبنا.

إذًا علينا أن نعود للطاغية ونحاول تفهُّم طبيعته. ربما أدركنا من خلال هذا ما يخصُّ الفن ولكن من خلال من يقدمه لنا، لا من خلال الفن نفسه.

***

2- تعريف الطاغية وتوضيح الفرق بين الطاغية والديكتاتور:

فلنعُدْ أولًا لأصول الكلمتين باللاتينية. ونتعرف إليهما بالإنجليزية ثم نشرح الفرق بينهما:

الطاغية **Tyrant**

الزعيم الذي يسيء استعمال السلطة وهو من القوة والشراسة والجبروت بما يجعله يتصرف كما لو كان إلهًا إن لم يدعِّ الألوهية بالفعل بروما القديمة لم يكن للقب الطاغية تلك السطوة والسمعة السيئة التي اكتسبها بالعصر الحديث، بل كان لقبًا للتعبير عن الاستبداد الشديد استخدمه الشاعر اليوناني أرخيلوخس، تحوّل إلى معنى كريه مع الجيل الثاني من طُغاة الإغريق.

***

الديكتاتور Dictator

القاضي في روما القديمة والذي كان يُعيَّن من قبل مجلس الشيوخ لسيادة الجمهورية في أوقات الطوارئ، هو الحاكم الذي لا يحكم عبر الوسائل الديمقراطية. يُستخدم المصطلح بشكل عام لوصف حاكم لديه أكبر قوة من أي فرد في الحكومة يملك أو يسيء استخدام السلطة الشخصية خاصة تلك التي تجعل القوانين دون سيطرة فعالة من قبل السلطة التشريعية وفي العصر الحديث استُخدِمَ المصطلح للتعبير عن القمع، والحكم الفاسد.

جدير بالذكر أن العائلة اللغوية والمفهومية التي ترتبط بالمعنيين جمعت عدة مصطلحات مثل:

الطغيان، الاستبداد، الدكتاتورية، الشمولية، السلطة المطلقة، الأوتوقراطية، والمستبد المستنير الطاغية دائمًا ديكتاتور، في حين أن الديكتاتور ليس بالضرورة طاغية.

الفرق الرئيسي بينهما هو:

الطاغية يمكن أن يكون أي زعيم، أو مسئول منتخب يستغل القوى التي أُعطيَ إياه بموجب اختياره ويقوم بالانتهاكات للدرجة التي تجعل منه ديكتاتورًا.

أما الديكتاتور هو مجرد شخص يملي، الذي يتحدث القانون ويؤدي من خلاله العمل الذي يقوم به، وفي القرن التاسع عشر ظهر في الفكر السياسي الأوروبي مصطلح "الديكتاتور العادل" أو "المستبد المستنير العادل" ليصف قائدًا حكيمًا، لكنه مستبد.

هذا اللقب يرفضه بعض علماء السياسة لأنه يجمع المتناقضات بما لا يمكن تحققه لتناقض الظلم مع الاستنارة، كما عبّر عن هذا الفرنسي "موريس دوفرجيه بقوله:

"كيف يمكن أن يوصف المستبد بأنه عادل أو الديكتاتور بأنه مستنير؟

مع التأكيد أنه لا وجود لما يسمى بـــ "الطاغية الأخلاقي" عند وضع اللقبين في ميزان واحد.

فالطغيان رمز للظلم، والطاغية دائمًا ظالم مُستغل لكل مصدر قوة تحت يديه للإطاحة بمعارضيه لا مستخدمًا للقوانين فقط لتحقيق ما يريد.

كما أن هناك فارقًا كبيرًا بين الاستبداد الشمولي والاستبداد الديكتاتوري!

فكل نظام شمولي هو حتمًا ديكتاتوري، ولكن ليس كل نظام ديكتاتوري هو بالضرورة شمولي.

يوجد بالنظام الديكتاتوري هامش نسبي من الحرية النقابية والسياسية والاجتماعية "تعددية محدودة" حيث لا يتغلغل الاستبداد في كل مفاصل الحياة وأدقها بلا استثناء.

بينما النظام الشمولي لا يترك مؤسسة من مؤسسات المجتمع سواء كانت مدنية أو عسكرية خارج هيمنته المطلقة "تعددية معدومة" موظفًا بذلك قدرات هذه المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية والإعلامية بشكل خاص لما يخدم رأس النظام.

في الأنظمة الشمولية ينتقل "الرئيس أو الملك" من مرحلة "الديكتاتور" إلى مرحلة "الطاغية" والتي يمكننا اعتبارها أعلى مراحل الاستبداد.

يرى البعض أن تحوّل الديكتاتور إلى طاغية أمر خاضع لكثير من المعايير التي تحكمه، فكلاهما نتاج الواقع المعيش المحيط بالطاغية إما بسبب المحيطين المنتفعين به أو الخاضعين له، أو بسبب الظروف والأحداث التي تتعرض لها بلاده.

يقول إمام عبد الفتاح إمام في كتابه "الطاغية"

"يبدو أنّ أفلاطون كان على حق عندما ذهب إلى أن ظهور الطاغية مرهون بوجود الفوضى أو التسيّب في الدولة، بحيث

يكون هو "المنقذ" الذي يعيد النظام، والأمن، والاستقرار إلى البلاد".

يقول أندوروز في كتابه عن "طُغاة الإغريق":

"إنهم كانوا يظهرون في فترات الأزمات بحيث يكون المبرر العام الشائع الذي يسوغون به الطغيان هو نفسه تبرير الديكتاتورية في كل عصر."

قدرة الطاغية على النهوض بحكومة فعالة، بعد أن أصبح جهاز الدولة عاجزًا عن مواجهة الأزمات التي تظهر بسبب ضغوط خارجية أو توترات داخلية.

ومن ثم كان الأمل ينعقد على ظهور حاكم قوي يُعيد النظام والاستقرار إلى المدينة اليونانية، هو: الطاغية، وإن كان أندروز نفسه يستطرد ليقول:

"عندما كانت الحاجة تدعو إلي وجود طاغية، فإنه عندما يحكم كان يذهب في حكمه أبعد من الأزمة التي جاء ليعالجها، فالضرورة العامة شيء يتحد مع الطموح الشخصي ولا يمكن الفصل بينهما بوضوح، فضلًا عن أنه ليس من السهل على الحاكم المطلق أن يتقاعد!"

***

3- سيكولوجية الإبداع

في دراسة للدكتور يحيى الرخاوي عن طبيعة الإبداع وعلاقته بالحلم، ذكر أن:

"الإبداع هو عملية طبيعية من صلب الحياة، وقوانينها، بمتابعة مسار الظاهرة الحيوية عبر تاريخها التطوري حتى أفرزت البشرية بما هي وبما يتجلى في بعض نتاجها الخارج عنها مما يسمى إبداعًا".

كما ذكر في الدراسة نفسها أن:

"إن علاقة الحلم بالجنون بالإبداع هي علاقة مركبة؛ حيث يجمع بينها منبع واحد، ثم تفرقها ظروف تناسب جرعة التنشيط مع فعل الإبداع القادر على لمّ وتوليف وتكامل هذا الفيضان الدوري المناسب (الحلم) أو المفرط العشوائي (الجنون النشط)".

وما بين "إبداع الحلم" الذي يتم في بعض الثانية أو بضع ثوانٍ، وإعادة إبداع الحياة الذي يتم عبر طول عمر الفرد، يظهر من بعض الأشخاص الإبداع المسجل بأدوات الفن، والآداب والعلوم، ولغاتها.

يُذْكَر رأي سيجموند فرويد لتفسير الإبداع على أنه: نتاج عدد من العمليات النفسية التي تعتبر منشأ الإبداع ومنها الصراعات في العقل الباطن والتفريغ الانفعالي والتخيل وأحلام اليقظة ولعب الأطفال وإعاقة القمع النفسي والانسجام بين العقل الباطن والأنا، فهو يقول:

"إن الإبداع على كل المستويات إنما ينبع من الطريقة المتميزة للحركية البيولوجية الكيانية الإيقاعية النوابية للمادة الحية عمومًا، التى تسمح باستيعاب التنشيط الدوري (وأحيانًا باستدعائه لاستيعابه)، إذ تسمح بالتعامل مع مستويات الوعي، ومتناقضات الوجود الداخلي والخارجي (معًا)، بطريقة جدلية (ديالكتيكية) تخلق الجديد: في كل مجال بحسبه".

وفي تعريف آخر للإبداع نقول إنه:

"حالة عقلية بشرية تنحو لإيجاد أفكار أو طرق ووسائل غاية في التفرد، بحيث تشكل إضافة حقيقية لمجموع النتاج الإنساني، وتكون ذات فائدة حقيقية على أرض الواقع إذا كان الموضوع يرتبط بموضوع تطبيقي أو أن يشكل تعبيرًا جديدًا وأسلوبًا جديدًا عن حالة ثقافية أو اجتماعية أو أدبية إذا كان الموضوع فلسفيًّا نقديًّا أو أن يشكل تعبيرًا ضمن شكل جديد وأسلوب جديد عن العواطف والمشاعر الإنسانية إذا كان الموضوع يتعلق بالنتاج الأدبي وأشكاله".

أما التحليل النفسي الحديث فيركز على ما قبل الشعور في الإبداع، وما يلعبه الحدس دورًا مهمًا في الإبداع، وكونه حُكمًا عقليًا أو استنتاجًا ليس مبنيًا على التفكير المنطقي، إنما على اللاشعور.

حيث يتميز الإبداع في الفن بأنه يعتمد على العقل الباطن أكثر من العلوم على المنطق.

وعليه فإن المبدع يتميز بعدة خصائص:

* القدرة على التفكير الإبداعي:

التفكير الإبداعي الذي يجب أن يتميز به المبدع هو نوع من التفكير يقترن بإبداع الشخص لنتاج جديد، وتكوينات جديدة في النشاط المعرفي ذاته من خلال إبداعه وانطلاقه في اتجاهات متعددة.

* التمتع بخاصية الخيال الخصب:

الشخص المبدع في أي مجال من مجالات الإبداع لا بد أن يمتلك هذه القدرة التي نسميها "الخيال" كي يبدع إنتاجًا منفردًا غير مسبوق، وكلما كان الخيال المستقبلي أكثر خصوبة واستمرارية كانت الحصيلة الحياتية الفعلية أكثر إيجابية، على العكس من الشخصيات العادية حبيسة الواقع التي تتنفس الرتابة والخمول.

* الرغبة في التفرد والتميز:

المبدع يحرز خصائص وسمات يتفرد بها دون الآخرين، ويتميز بما لا يمتلكه الآخرون من صفات عقلية وحسية، لذلك فهو يسعى للتفرّد عنهم في معايشة الواقع والتفاعل معه، وكأن الشخص المتفرد يشقُّ لنفسه طريقًا جديدًا لم يُطرق من قبل؛ لذلك هو يترك بصماته على جانب رئيسي من جوانب الحياة المتباينة.

* شدة الاعتزاز بذاتيته:

المبدع هو شخص شديد الالتصاق بنفسه، ذاتي المركز، يترجم كل شيء من حوله في ضوء ذاتيته لأنه لا يحب أن يكون مجرد نسخة من ملايين النسخ المتشابهة في عدم تفرُّدها أو تميُّزها، ينظر إلى نفسه على أنه نسيج قائم بذاته، غير متكرر، له إبداع يلتصق به شخصيًّا، ولكنه لا يتصف بالصلف أو الغرور أو التعالي على الآخرين، لأنه يستمد خبراته الإبداعية من الآخرين، فلا شيء يتم إبداعه من فراغ، إلا أن المبدع يحيل هذه الخبرات الموضوعية إلى خبراته الذاتية.

* الثورة على المألوف:

الإبداع هو انتهاج خط جديد غير مألوف في مجال ما من مجالات الحياة، وإذا كان الناس يتمسكون بكل ما هو قديم مألوف، فإن المبدع بما يقدم من إبداع لا يجاريهم وجهات نظرهم، هو يرفض المألوف ويتطلع إلى ما هو جديد، لذلك سرعان ما يعلن ثورته على ما هو مألوف قديم.

* الرغبة في ارتياد آفاق جديدة:

محاولة المبدع لتقديم ما لم يقدمه أحد من قبل، يبادر بالتقاط تلك الجوانب أو الزوايا أو القضايا التي لم يتطرق إليها أحد، أو لم يلتفتوا إليها، أو لم ينجحوا في إلقاء الأضواء الكافية عليها، أو تعثّروا في تفسيرها وفهمها.

* القدرة على إدراك العلاقات الجديدة وابتكارها:

المبدع لا يقف عند حدود العلاقات الموجودة بالفعل، بل يبتكر علاقات جديدة لم تكن موجودة من قبل، ويتخطى حدود الإدراك والابتكار إلى الإحساس الوجداني المتوهج، بحيث يدفع تلك العلاقات التي ابتكرها لتترجم إلى عمل إبداعي مجسد.

* القدرة على تجديد الأهداف:

المبدع بحاجة دائمة إلى تجديد الأهداف الإبداعية التي يتبناها بحيث تتمشى مع طبيعة الحياة، ولأن الحياة هي سلسلة من العمليات المتدفقة والمتنوعة، لذا فمن الضروري بالنسبة للمبدع أن يلاحق التغيرات التي تقع بداخله من جهة، والتي تحدث من حوله من جهة أخرى، ولا يتأتى هذا إلا بتجديد الأهداف الإبداعية التي يرغب في تحقيقها.

***

4- سيكولوجية الطُّغاة

لكل طاغية عبر التاريخ شخصيتها المميزة وبصمتها المتفردة في الإجرام، إضافة إلى مجموعة من الطبائع والسمات مشتركة عند جميع الطُّغاة مهما يختلف الزمان والمكان فلهم وسائلهم المباشرة وغير المباشرة لإحكام سيطرهم.

وعلى هذا فالسمات النفسية العامة للطاغية:

1- البارانويا "ميجالومانيا":

كل طاغية مصاب حتمًا بمرض جنون العظمة "ميجالومانيا"، يختزل كل شيء في شخصيته ويرى العالم من خلالها فقط، هو المركز وكل ما يدور حوله ينطلق من وجوده "صدّام حسين، بوكاسا، هتلر، ستالين، موسوليني.. غيرهم".

مصاب بالبارانويا كأحد أشكال "الذهان النفسي" وربما عقدة الاضطهاد والتآمر، من أعراضها الهذيان الثابت والمنتظم ولكن

المصاب يبدو ظاهريًا سليمًا من حيث القدرة العقلية والاستدلال غير أنه يبني استدلالاته على أوهام وحوادث غير واقعية، الشخص "البارانوي" طموح يُسخر كل شيء في سبيل الوصول إلى غايته، يظنُّ أن الجميع يحيك مؤامرات خفية للنَّيْل منه، لديه شعور دائم بالتهديد من قبل أعداء وهميين في مُخيلته؛ لذلك يكون حذرًا جدًّا، غير متسامح أبدًا، قلقًا، حساسًا وسريع الاتهام للآخرين بالكذب والتآمر عليه خصوصًا لمن يخالفه الرأي.

يعيش الطُّغاة في عالمهم الخاص متقوقعين على مجدهم الذاتي منفصلين تمامًا عن الواقع.

قال نيكولاي تشاوشيسكو للصحفيين قبل القبض عليه مع زوجته وإعدامهما رميًا بالرصاص بأربعة أيام فقط.

"لن يحدث تغيير في رومانيا إلا إذا تحولت أشجار البلوط إلى تين".

فرؤية الطاغية لنفسه:

أنه في مركز العالم وفي استطاعته إعادة تشكيله.

***

2- الاستبداد بالرأي والرفض المطلق لأي رأي مخالف:

المستبد لا يمكن أن يقبل أي خلاف أيًّا كان نوعه، فهو لا يستمع لغيره، ويظنُّ أنه دائمًا على حق وصواب أي اختلاف معه بالرأي هو جزء من المؤامرة عليه، الخلاف حتى لو كان بسيطًا يُشكل خطرًا على سلطته وعلى وجوده ويستوجب التخلص من مصدره دون أي تردد، الطاغية "سايكوباتي" يميل للسادية خصوصًا بلحظات الغضب والانفعال.

تكفي كلمة واحدة مخالفة لرأيه كي تودي بصاحبها إلى العزل السياسي، وربما التصفية الجسدية حتى لو كان أقرب المقربين وأكثر الموالين المخلصين المستبد لا يعرف الرحمة والشفقة، وانتقال الشخص من حيّز الصداقة معه إلى حيّز العدو الخطير يتم لأتفه الأسباب الوهمية، فالطاغية متكبر، مغرور، ينفرد برأيه، ويظنُّ أنه المصدر الوحيد للرأي الصحيح والفكر الصحيح وقراراته حكيمة ولا شكّ.

***

3- التألّه ومسحة القدسية:

الطاغية يظنُّ أنه على تواصل مع قوى عُليا يستمد منها قدرات خارقة لحماية أتباعه، إرادته هي إرادة الشعب المنبثق عنه وممثل له، ومهمته الأولى هي إنقاذ هذا الشعب من المخاطر التي تحيق به، إنه ملهم الشعب ومصدر الأمان له.

يقول "عبد الرحمن الكواكبي" في "طبائع الاستبداد" إنه:

"ما من مُستبدٍّ إلا ويتخذ صفة قدسية يشارك بها الله".

هذا الإحساس بالعظمة والتفرّد يقود الطاغية أحيانًا إلى تصرفات شاذة:" أمزجة غريبة في تناول الطعام، اقتناء أسلحة مطلية بالذهب أو حيوانات معينة كالأسود والنمور، ممارسة سلوك مضحك أو ارتداء ملابس مضحكة، التقديم لنفسه كأديب أو شاعر أو فنان". كل طاغية يعاني ضغوطًا نفسية كبيرة كونه المركز الوحيد والمطلق للسلطة في البلاد، بما يؤدي إلى اضطرابات في بنيته الشخصية يستطيع ضبطها والسيطرة عليها في الأوقات الطبيعية وتظهر بشكل مفضوح في لحظات الانفعال والتهيّج العاطفي.

***

4- الاعتقاد بانفراده بشخصية مميزة:

شخصية مطلقة تجتمع فيها المتناقضات، بين القوة والشجاعة وبين الرحمة والحنان يضرب بيد من حديد دون أي شفقة ولا يتوانى عن تقديم العطاءات يتضح هذا التناقض الصارخ في الألقاب التي اختارها الطُّغاة لأنفسهم.

جوزيف ستالين اختار لنفسه لقب "أبي الفقراء" أو "الأب الصغير للشعوب"، ماو تسي تونج "المُوجِّه الأكبر"، معمّر القذافي لُقّب بـــ "ملك ملوك أفريقيا" و"الأخ القائد".

يرى الطاغية نفسه معصومًا من الخطأ، أي خلل أو فساد هو مسئولية الآخرين، فهم لم يطبقوا جيدًا نصائحه وتوجيهاته، يشعر دائمًا بنشوة سلطته ويتحسسها من وقت لآخر من خلال خطاباته الاستعراضية،فالطاغية يضع نفسه في صورة كائن لا حدود لإمكانياته أو لإرادته، ولا يسمح لأحد بالوقوف في طريق ممارسة سلطته المطلقة.

ماذا يحدث إذًا عندما تتلاقى الملامح السيكولوجية للمبدع مع سيكولوجيته كطاغية؟

هذا ما أحاول الإجابة عنه بالفقرة التالية.

***

5- مقارنة بين سيكولوجيتي الإبداع والطُّغاة واستنتاج العلاقة بينهما من خلال الوسائل التي يستخدمها الطُّغاة.

بعد إحاطتنا بسيكولوجية الإبداع والأخذ في الاعتبار بملابساته وتأثير اللاشعور واللاوعي فيه واعتبارات العوامل النفسية المؤثرة في العملية الإبداعية. ثم إلقاء نظرة على شخصية الطاغية من حيث كونها شخصية سايكوباتية ضعيفة خائفة مريضة بجنون العظمة والبارانويا، علينا أن نتعرف إلى الوسائل الرمزية التي يستخدمها الطاغية مباشرة/غير مباشرة للتأثيرُ في شعبه.

***

أولًا: الوسائل المباشرة في نظم الطُّغاة الشمولية:

السلطة العسكرية متمثلة في الجيش وغالبًا ما يتم السيطرة عليه بشكل مباشر من قِبل الطاغية ناهيكم عن كون الطاغية بالأصل رجلًا عسكريًّا كما ذكرت في المقدمة.

وهناك أيضًا المنظومة الأمنية التي تعمل على مراقبة المواطنين وزرع الخوف والرعب في قلوبهم، فكل مواطن هو عُرضة للاتهام بالخيانة والتآمر على الوطن، ومن ثم يكون عُرضة للمراقبة والبطش في أي وقتٍ.

***

ثانيًا: الوسائل الرمزية غير المباشرة في نُظم الطُّغاة الشمولية:

1- العقيدة:

كل نظام شمولي يستمدُّ شرعيته من عقيدة "قومية، أممية، دينية.. إلخ"، وهي وسيلة للسيطرة على جميع الفئات العمرية في المجتمع "طلائع البعث، شبيبة الثورة، الشبيبة الهتلرية، الشبيبة الشيوعية".

وتُعتبر هذه العقيدة المصدر الشرعي للسلطة، وغالبًا ما يتم تفريغها من محتواها واختزالها بشخصية الطاغية فهو الوحيد القادر على فهمها بشكل صحيح وتطبيقها وحمايتها من الانحراف وتصحيح مسارها في حالة ابتعادها عن أهدافها "الحركة التصحيحية"، فحالة الفصام النفسي والبارانويا التي يعيشها الطاغية تنعكس على العقيدة نفسها، فنجد الفرق الشاسع بين الأفكار التي تنادي بها هذه العقيدة وسلوك من يتحدث باسمها. في الأنظمة الشمولية يسعى الطاغية دومًا عبر وسائل إعلامه لأن يكون رمزًا للعقيدة من جهة وللوطن من جهة

أخرى لا يمكن الفصل بين الوطن والقائد والعقيدة وأي هجوم على شخص القائد هو انتقاص من قيمة الوطن ومحاولة النيل منه. أي ثورة أو تمرد على النظام الشمولي وعلى القائد هي خيانة للوطن!

***

2- الصورة:

للصورة الشخصية "بورتريه" مكانة مركزية خاصة في حياة الطاغية وحكمه، فهي تنتشر في كل مكان وزاوية من الوطن ولها وظيفتان:

الأولى رمزية، فوجود صورة الطاغية يُعبر عن قبول الطاعة والولاء له، لذلك يجب أن تكون موجودة في جميع الأماكن العامة والخاصة، ويجب أن يكون للطاغية حضور دائم، يقال إن المصور الشخصي لهتلر "إينريش هوفمان" التقط له حوالي **2.5** مليون صورة! والثانية نفسية، فالطاغية يسعى لتخليد شخصه من خلال الانتشار الهائل لصوره وتماثيله وهي تمنحه الثقة بالنفس والشعور؛ لأنه يعشق ذاته ونرجسيته حَدَّ الهوس.

تختلف صورة الطاغية من فترة لأخرى بحسب المراد منها فهو تارة رجل علم مثقف حاملًا معه كتابًا، وتارة رجل محارب حاملًا سلاح أو لابسًا الكاكي، أو باللباس الفلكلوري لأنه قادم من أغوار التراث الشعبي.

يقول فرويد في كتابه قلق في الحضارة:

"بأنه كلما زاد الخوف عند الطاغية من فنائه، إزدادت دوافعه التدميرية ظهورًا، وزاد معها التدابير والإجراءات الوقائية للحيلولة دونها".

***

3- البروباجندا " الدعاية الموجهة" واللغة:

في الأنظمة الشمولية لا يوجد شيء إسمه "إعلام" إنما نوع من الدعاية الإعلامية المُوجَّهة، فجميع وسائل التواصل الجماهيري من صحف وراديو وتليفزيون تخضع بشكل مباشر ومُحكم للطاغية وتُعتبر الحامل اللغوي للعقيدة التي يمثلها، فالطاغية من خلال تلك المنظومة الإعلامية:

- مصدر إلهام الشعب في العلوم والآداب والفنون! فالطاغية هو الراعي الأول للعلم والعلماء هو "المعلم الأول" لأن "المعلمين هم بناة الأجيال"، وهو الطبيب الأول، والمهندس الأول، والفنان الأول، والفيلسوف الأول.. إلخ

- ضامن استقرار الأمة! في زمن الاضطرابات السياسية والثورات ومع أول هزة سياسية تختفي عبارات الوحدة الوطنية لتحل مكانها عبارات تُجسِّد حالة الانقسام والفتنة والطائفية وتتحول البروباجندا إلى نوع من التجييش والتخويف من المستقبل، التهديد والمقايضة "إما القبول بواقع الاستبداد والعبودية أو الفوضى والخراب"، ابتزاز

الشعب بالأمن، مقابل تخليه عن مطلب الحرية هو المحرك الأساسي لإعلام الأنظمة المستبدة حين تثور عليها شعوبها.

– عدو، مؤامرة، خيانة! سواء بزمن الاستقرار أو الاضطرابات السياسية. هناك ثلاثة مصطلحات مستخدمة بشكل يومي في وسائل إعلام الأنظمة الشمولية: عدو، مؤامرة، خيانة.

فمن خصائص الأنظمة الشمولية أنها تفتعل الأزمات وتخلق أجواء متوترة ملائمة لإثارة الحروب مع أعداء خارجيين، وفي مثل هذه الأجواء يجد الطاغية مجالًا مناسبًا لممارسة عنفه والقتل دون رقيب لإرضاء ميوله السايكوباتية وعُقده الاستعراضية القيادية والخطابية.

تاريخ الطُّغاة من جنكيزخان وهولاكو ونيرون إلى هتلر وموسوليني وماوتسي تونج وستالين وصولًا إلى جمال عبد الناصر وصدّام حسين ومعمّر القذافي وغيرهم، يشهد بحقيقة هذه الحالة الحربية التي يضع فيها الطاغية شعبه.

في النهاية، أستطيع أن أقول وعن طيب خاطر:

إن ذائقة الطاغية الفنية واهتمامه بالفن ليست إلا وسيلة لتحقيق متعة خاصة له.

مع ترك مساحة صغيرة إن جاز لي القول، أتوقع بمقتضاها أنه لا زال يحمل بداخله بعضًا من إنسانية أو قليلًا من رغبة دفينة في السمو أو الارتقاء، أو حتى مداواة نفسٍ لا يملؤها إلا السوء.

كما أننا نستطيع أن نُكوِّن تصورًا منطقيًّا عن إبداع الطاغية إن جاز لنا تسميته إبداعًا، بعد أن نتوقف أمام محاولاته للخلق والابتكار من خلال لون ما من الفنون أو فهم ذائقته حيال الفنون ممثلة في الآداب والموسيقا والرسم بشكل عام.

شئنا أم أبينا فالفن في النهاية ليس سوى أداة بيد الطاغية، يطوعها لخدمة أهدافه وأغراضه لإحكام سيطرته المطلقة واستكمال استبداد الظالم على شعبه، ومحاولاته الإبداعية ليست إلا انعكاسًا شائهًا لطبيعته المشوهة المريضة، وللدلالة على هذا،ورغم اتفاقي مع كروتشه فيما يخص الفنون بشكل عام من كونها ليست وسيلة أخلاقية لحث الناس حول عمل الخير ورغم قناعتي أن استمتاعنا بالعمل الأدبي، هو في النهاية معيار شخصي يختلف من قارئ لآخر، كما هو إبداع الكاتب بحد ذاته وغير القابل للتصنيف من خلال تصنيفنا للكاتب نفسه، فإن علينا ألا نغفل عن أهمية الأدب كأداة في يد الطاغية أو كسلاح للبروباجندا.

ثِقُوا تمامًا أن الحكومات تدرك قيمة الكلمة وأهميتها وتأثيرها في الشعوب.

ثِقُوا أن الكلمة سلاح قوي فعال تتضح أهميته في كونه أداة للتأثير في الوعيّ الجمعي، أو إعادة بناء المفاهيم والتصورات النمطية لدى الجموع.

نعم! هم يستغلون الإبداع بشكل أو بآخر، يوظفونه كأداة يستخدمونها لترويج سياساتهم وترسيخها بالوعي العام.

في كتاب: "قضية زيفاجو: الكرملين، ووكالة المخابرات المركزية، ومعركة الكتاب الممنوع"

Zhivago Affair: The Kremlin، the CIA and the Battle Over a Forbidden Book The

والذي يكشف مؤلفاه "بيتر فن وبيترا كوفي" بناء على وثائق نشرتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA بشأن رواية بوريس باسترناك "الدكتور زيفاجو" باعتبارها أفضل مثال على هجوم وكالة المخابرات المركزية باستخدام الثقافة الأدبية، وأن الرواية ساعدت على تمزيق الاتحاد السوفييتي وتركت آثارًا مثيرة للفتنة على حاضر الصراع الثقافي ومستقبله.

وصف جوزيف ستالين الكُتّاب بأنهم: "مُهندسو الروح البشرية" كما عبّر عن اعتقاده أن الأدب هو أهم سلاح للبروباجندا، وأنه أداة سياسية قوية، وأن "ما تنتجه الأرواح أهم مما تنتجه الدبابات".

إن مشاعر ستالين تجاه الأدب ليست مجرد أوهام مضطربة لرجل ديكتاتوري، ولكنها رؤية يتبناها من هم بموقع السلطة فها هو رئيس الأعمال السرية لوكالة المخابرات المركزية واصفًا الكتب:

"تختلف الكتب عن كل أنواع البروباجندا الإعلامية، لأن الكتاب الواحد قادر على تغيير فكر القارئ وتصرفاته بشكل ملحوظ إلى حَدٍّ لا يماثله تأثير أي وسيط آخر."

واستخدم استعارة عسكرية في تعليقه ووصفه للثقافة، مسميًا الكتب "أهم سلاح للبروباجندا الاستراتيجية".

إن الحكومة الأمريكية، وتحديدًا وكالة المخابرات المركزية، اهتمت بحماس لاستخدام الأدب لإثبات الأيديولوجيات الأمريكية وتدمير الشيوعية خارج البلاد،هي قد اعتبرت الرواية تحديًا للشيوعية وأنها طريقة تجعل المواطنين السوفييت يتساءلون عن قمع حكومتهم لأحد كتابهم العظام، مما حدا بالوكالة العمل إلى نشر الرواية.

هذه الراوية كتبها باسترناك تخليدًا لذكرى صديقه الشاعر الجورجي والذي عُذِّبَ وأُعْدِمَ من قِبل الحكومة السوفيتية، فكانت رواية تخالف الأوامر الرسمية في كتابة الأدب، إذ إنها تُعظِّم "الرجل السوفييتي" والثورة.

كاد العمل أن يكون تقديسًا للرأسمالية أو "أسلوب الحياة الغربي" ولكن بعض فقراته شككت صراحةً في أن سفك الدماء في الثورة كان مُبرَّرًا، وكانت أجزاء كثيرة منه غير مبالية بالسياسة، إلى حدٍّ ما وبطبيعة الحال، كانت خطورة فشل الإشادة بالنظام توازي خطورة الرغبة في مساءلته، فكان لا بد من منع نشر "الدكتور زيفاجو".

إلا أن باسترناك استطاع تهريب نسخة من المخطوطة إلى دار نشر إيطالية وأعطى أصدقاء من فرنسا وإنجلترا ومن جهة أخرى نُسخًا، أرسل للناشر ملاحظات خاصة بالفرنسية وطلب منه أن يتجاهل أي محاولات للتواصل بأي لغة أخرى حماية للراوية.

أما وكالة المخابرات المركزية التي منحها الكونجرس تفويضًا مبهمًا لتتولى: "مهام وواجبات أخرى متعلقة بالمخابرات ذات تأثير في الأمن الوطني"، بما أتاح لها توسعة سلطتها حتى وصلت للمجالات الثقافية، وكالة في إطار ما أطْلَقَ عليه فن وكوفي "ثقافتها الأدبية" قامت بنشر عدد من الكتب بهدف تعزيز "الإدراك الروحي للقيم الغربية" وتضمن ذلك روايات لكُتّاب مختلفين مثل جورج أورويل، وألبير كامو، وفلاديمير نابوكوف، وجيمس جويس، فاستخدمت طرقًا سرية لنشر روايات جورج أورويل، كما كانت الحكومة الأمريكية تحاول التلاعب بثقافة الاتحاد السوفييتي لتساعد المواطنين السوفييت بأن يعوّا خطورة حكومتهم الجائرة التي تتلاعب بثقافتهم.

من هذا المنطلق قامت الوكالة بالاشتراك مع وكالات مخابرات ألمانية الترتيب لطباعة نسخة روسية من الرواية بشكل غير قانوني، نُشرت في معرض بروكسل العالمي عام 1958، واستخدمت الوكالة أيضًا مطابعها الخاصة في واشنطن لطباعة نسخ مُصغَّرة بحجم الجيب، فكانت النسخ المصغرة أسهل للتهريب.

وعندما فاز باسترناك بجائزة نوبل للآداب عام 1958 اتهمته السلطات السوفييتية بأنه خائن ومتواطئ مع الغرب. لكن احتشد الكُتّاب من حول العالم للدفاع عنه، وأضحت سمعة الكتاب السيئة سببًا لزيادة المبيعات. إن الجهود الأمريكية نحو البناء الثقافي أدق بشكل عام منها عند السوفييت، فالوكالة سعت إلى الترويج للكتب عوضًا عن منع نشر الكتب وانتشارها، ولم تهدد الوكالة الكُتّاب أو ترغمهم على دعم أيديولوجية بعينها وتشجيعها.

المؤلم أن باسترناك لم يفكر في روايته كسلاح لحرب فكرية فوصفها: "سعادتي وجنوني النهائيان"

بالنسبة له، كانت الرواية مجرد أداة لنقل رسالة معينة، وكان محبطًا بسبب ما اقتبسه الإعلام العالمي منها ليظهره بأنه كان ناقدًا للنظام. لقد أراد أن يُعامل كتابه كرواية وليس كمنشور.

بعد أن قبل باسترناك جائزة نوبل عاد ورفضها بعدما شهد ضغطًا لا يُحتمل من الحزب الحكومي الرسمي مع تركيز الإعلام على المقاطع التي تقاوم الشيوعية، واعتبار باسترناك الكاتب النبيل رغم اضطهاده والناقد الشجاع للنظام الفاسد مما أساء بشكل بالغ وغير مسبوق للاتحاد السوفييتي.

في كتابهما "قضية زيفاجو" أشارا فن وكوفي إلى ضعف محاولات وكالة التجسس في الحرب الثقافية فهي ساعدت عدة أعمال لم يُقرأ

أيٌّ منها على نحو واسع إلى يومنا هذا، فالتدخل الحكومي الذي يسبق إنشاء الأدب يعدُّ نوعًا من الفشل، أي إن توظيف الأدب لأجل التأثير بالرأي العام، والوعي الجمعي من خلال أعمال تبدو كما لو كانت موجهة عمدًا لخدمة أغراض سياسية وسلطوية، ليس ناجحًا للحد الذي يجعل للعمل قوة التأثير مما لو كان عملًا حقيقيًّا.

"إن النتاج الأدبي الحقيقي أشد تأثيرًا من أفضل جهود حكومية لبناء الثقافة".

لذا يبدو أن نشر هذه الأدوات الثقافية التي تُروِّج لاهتمامات وطنية ودعمها، استراتيجية أكثر تأثيرًا، إنه أمر يعكس استراتيجية مختلفة، الاعتماد على الفن والفكر بدلًا من القوة لتحقيق أهداف الأمن. ولكي يكون الفن فنًّا فإنه يجب أن يكون أكثر من مجرد أداة سياسية أو كما قال باسترناك:

"ليس صحيحًا أن الناس يعظمون الرواية بسبب السياسة هذا هراء، إنهم يقرؤونها لأنهم أحبوها".

على الجانب الآخر علينا ألا ننسى أن "هناك جرائم تصبح محترمة بقوة الاستمرار" وأعني بها الجرائم التي تُبرِّرها السلطات المستبدة والحكومات الغاشمة، ويتم هذا باستغلال مجموعة من أصحاب الأقلام المأجورين. الذين وصفهم الدكتور "محمد حسين هيكل" في كتابه "ثورة الأدب":

"وإذا كنا بسبيل الكتّاب ورجال العلم، فإن المنافقين والمتملقين ممن يظهرون في عصور الطغيان، هم على الإنسانية بلاء دائم وشرّ مستطير، يفسدون الآداب والأخلاق، ويعلّمون الناس الكذب والنفاق، وينزلون بأدب الكتابة إلى أحط درجاته، وهم مع ذلك من الطاغية موضع إغرازه، وإن شابَ الإغراز احتقارا! ثم هم لن ينزل بهم حيف أو ينالهم بسبب إفسادهم الخلق والأدب واللغة أي أذى، بل إنك لتراهم حثالة السفالة المُجسمة موضع الإكبار من بطانة الطاغية لأنهم يظنون أن في الزلفى إليهم والقرب منهم وسيلة لاستعادة الجاه الكاذب والمال المسروق".

***

6- نماذج مختارة: طُغاة على مرّ العصور،

وعرض سِيّر حياتهم وعلاقتهم بالإبداع

إن التاريخ حافل بأسماء الطُّغاة على مر العصور، فبعد أن تحول الإنسان من الحياة الفردية إلى الحياة الجماعية متمثلة في الأشكال الحياتية المتنوعة والمتدرجة:

أسرة/عائلة /قبيلة /قرية /مدينة /إقليم /مملكة /إمبراطورية أيًّا كانت طبيعة تلك الحياة التي تحولت من نطاقها الصغير المحدود للنطاق الواسع الممتد، الذي شمل الأبعاد الاجتماعية والسياسية بل الجغرافية أيضًا، فلم تقتصر المكونات الحضارية على ما تنتجه الحضارة من قيم وعادات وحكايات وأساطير وآثار معمارية تدُّل عليها، أو على مخطوطات ونقوش حجرية تحكي عن أصحاب الحضارة وما يَخـــلْفونه بمراحل تطورهم الحضاري من مظاهر تدل على نهضتهم زراعيًّا /صناعيًّا /ثقافيًّا /فنيًّا /اجتماعيًّا.

وهناك البُعد السياسي الذي تعنيه تلك الحضارة حيث لم يعد نظام الحكم قاصرًا على رب العائلة أو شيخ القبيلة أو حاكم الإقليم، فاتساع مدى امتلاك الإنسان للأرض وتزايد أعداد البشر في حيز ما تطور معه نظام الحكم، فأصبح هناك الملك والإمبراطور والزعيم وإن كان في ظل نظام يُدعى جمهوريًا.

هذا الشكل السياسي ارتبط بصورة أو بأخرى بالطبيعة الجغرافية، وأصبح للممالك والإمبراطوريات حدود يجب حمايتها أو القيام بالتوسع فيها على حساب غيرها من الممالك أو الإمبراطوريات الأخرى.

صاحَبَ هذا نهضةٌ عسكرية بدأت منذ اكتشاف الإنسان للمعادن وتحويلها إلى وسائل دفاعية أو أسلحة تطورت من استخدام الخناجر والنبال والرماح والسيوف والمجانيق والعجلات الحربية، وصولًا إلى البنادق والمدافع والصواريخ النووية بعيدة المدى العابرة للقارات والطائرات الشبحية والمدرعات والمقاتلات الحربية، فضلًا عن الأسلحة الجرثومية والبيولوجية وغيرها من أسلحة يُصنَفُ بعضها بأنه مُحرمّ دوليًا وجميعها أدوات منحت تلك النظمَ السياسية قُوَّتَها في إحكام السيطرة بجيوشها وأسلحتها سواء على شعوبها أو على شعوب أخرى.

رغم تلك القائمة التي ذكرت بعض عناصرها، فإن أخطر سلاح في نظري هو المبتكر والمستخدم لتلك الأدوات، فما هي – في النهاية

- إلا أدوات بيد حاملها ذاك الذي تساوره رغباته وتتملك منه أطماعه، الإنسان!

الإنسان هو أخطر سلاح عرفته البشرية وستعرفه إلى أن تفنى، تلك التركيبة المعقدة من المشاعر والانفعالات والنوازع والأحاسيس، كل هذا تحت تحكم العقل البشري الذي ما زال وسيبقى لغزًا عصيًّا.

عندما بدأتُ البحث عن أشهر الطُّغاة في العالم وجدتُ قائمة مُطولةً متناثرًا أفرادُها من الطُّغاة في أرجاء المعمورة، أسماء شهيرة حتى وإن لم نعلم الكثير عنها فمجرد ذكرها يجلُب معه الكثير من المآسي والجرائم والانتهاكات التي ارتُكبت في حق البشرية جمعاء. العديد من الأسماء التي قد تجدونها في قوائم الويكيبيديا أو أي دائرة معارف ورقية أو إلكترونية، أي أنها تصنيفات متفق عليها، والتي قد يقبل البعض منكم أو يرفض تلك التصنيفات، ولكنني أذكر بعضها كأمثلة متناثرة بين مشارق الأرض ومغاربها، وإن كان هناك خلط عمومًا بين الطاغية والديكتاتور رغم الفرق الذي أوضحته فيما سبق سواء أكان لفظيًّا أو دلاليًّا.

يرون، كاليجولا، قيصر، جنكيز خان، هولاكو، عيدي أمين، جمال عبد الناصر،شاوشيسكو، بيونيشيه، حافظ الأسد، الملك الحسن الثاني، ستالين، لينين، روبرت موجابي، عمر البشير، ألبرت رينيه، أورتيجا، نورييجا، فيدل، شافيز، الخميني، كريموف، أيوب خان،

سوكارنو، كيم إيل سونج، هوشي منه، سوهارتو، روبيسبير، بونابرت، جورج السادس، أتاتورك، تيتو، خرشوف، ميلوسيفتش.. إلخ.

ومما لاحظته وجود سيدة واحدة تم اعتبارها طاغية/ ديكتاتورًا هي أنديرا غاندي.

مما يحزن أن لأفريقيا القارة الأم نصيب الأسد من طغاها، فتلك القارة الغنية بمواردها الطبيعية والبشرية وكنوزها المختلفة كان من الممكن أن تصبح أفضل قارات العالم وأن يكون لشعوبها السبق الحضاري بما يمتلكونه، لكنهم وقعوا بين مطرقة الاستعمار، وسندان الطُّغاة وعليه فلم يكن حالهم باستقلالهم أفضل من حالهم وقت استعمارهم.

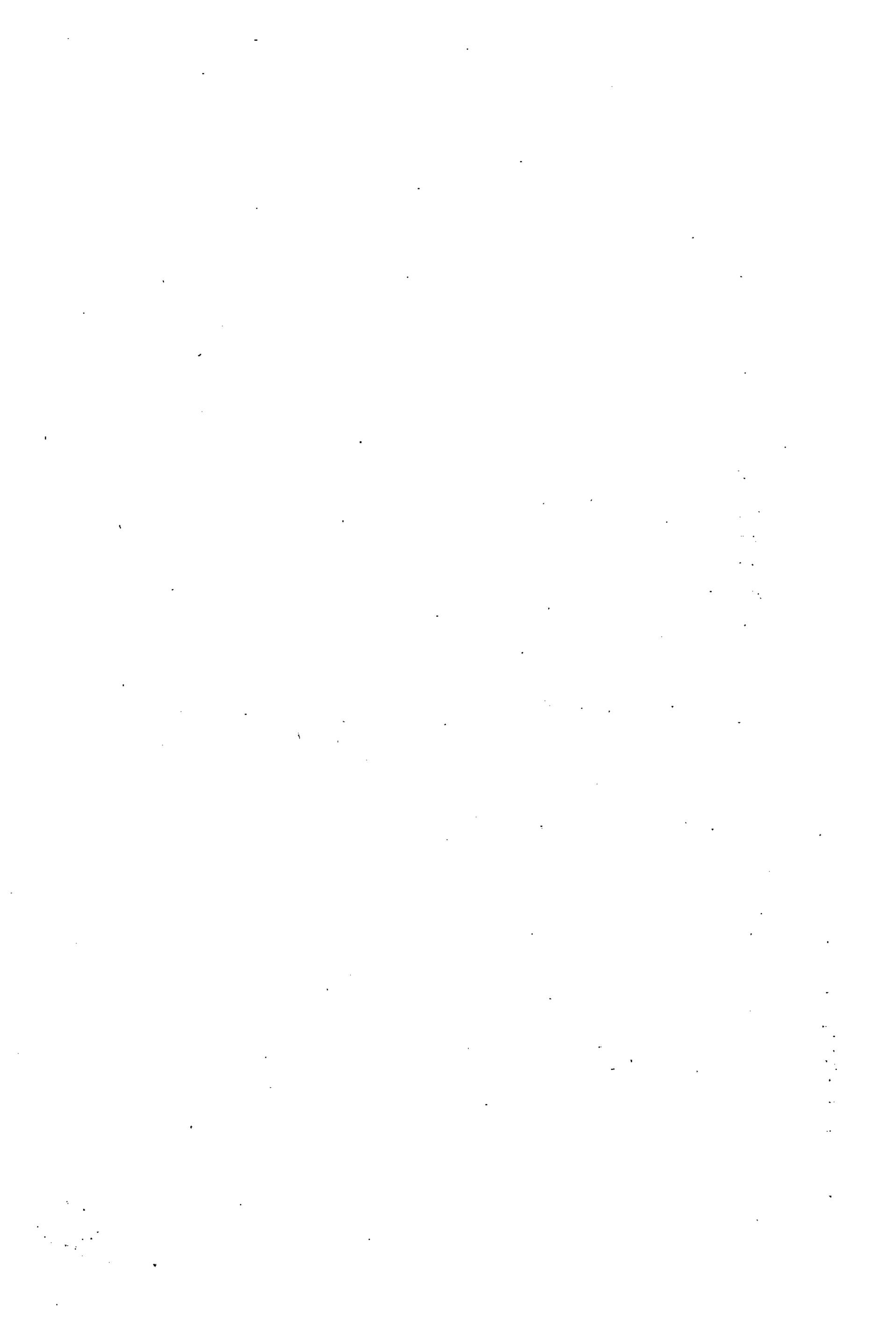
إن الحديث عن الطغيان يطول ويجوب بنا مسالك ودروبًا عدة، ولا يكفيه كتاب واحد أو مجلد واحد، ولأن كتابي هذا يتعرض لجانب بعينه في حياة الطُّغاة من حيث علاقتهم بالإبداع وتحليل هذا الجانب وفهمه في محاولة مني فقط لعبور بوابة المجهول وارتياد عالم الطُّغاة على أساس بشريتهم التي أحاولُ البحث عنها من منطلق مدخل الإبداع وعلاقتهم به، ولهذا اخترتُ لكم من تلك القائمة أسماءً بعينها.

***

القسم الثاني

نماذج لشخصيات

جمعت ما بين الإبداع والطغيان



أُقدِّم لكم في هذا الجزء، سبعة نماذج، لسبع شخصيات كانوا طُغاة، ارتبط تاريخهم بالإبداع، والفنون، كمظاهر حضارية بصورة أو بأخرى.

سواءً مارسوا بأنفسهم الإبداع، أو تذوقوه، وشجعوه كهنري الثامن، الذي يعدُّ اختياري له تحديدًا، ذا دلالات، سأذكرها في خضم الحديث عنه.

وعلى هذا، سنجوب معًا سيرة حياة الأسماء التالية من الطُّغاة، حسب ترتيب ميلادهم:

1/ هنري الثامن

2/ بينيتو موسوليني

3/ أدولف هتلر

4/ فرانسيسكو فرانكو

5/ ماو تسي تونج

6/ معمّر القذافي

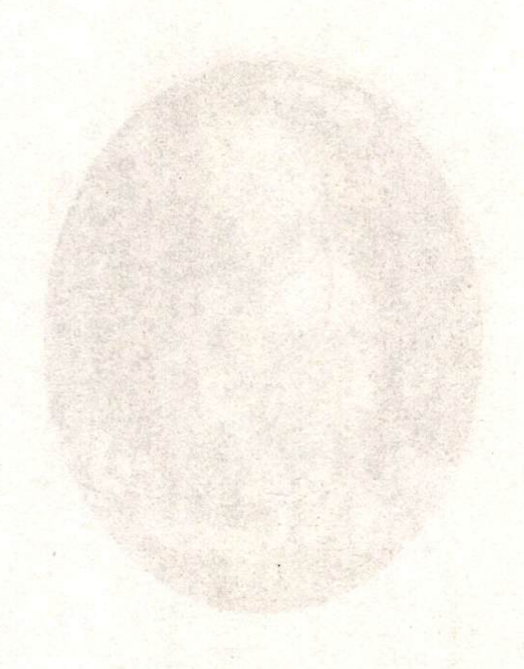
7/ صدّام حسين





هنري الثامن

28 يونيو 1491 - 28 يناير 1547



بداية أخبركم أن الفقرة التالية ستحمل اعترافًا غريبًا. ولكن تقبلوه بصدر رحبٍ، لسببين: أولهما أن هذا لن يكون أغرب اعتراف مني فهناك اعتراف آخر ستلقونه خلال صفحات الكتاب. وثانيهما فلأننا نجوب خلال النفس البشرية، اعتبروا اعترافاتي هذه جزءًا من تعقيدات النفس البشرية وغموضها. أما اعترافي فهو أنني "طالما أحببت هنري الثامن، ولم أنظر إليه على اعتباره طاغية بالمعنى المتعارف عليه".

ببساطة لا أدري سبب تعلقي بسليل آل تيودور، صاحب اللحية الزرقاء كما وُصِف في الرواية الكلاسيكية. التقيتُ هنري بفترة مراهقتي، حيث كنت قد قرأت ترجمة كتاب للبروفسيور "جون باول" بعنوان: "هنري الثامن– السفاح" تعرفت من خلال الكتاب على رجل مغرور وعنيد ومخادع، لكنه ملك عظيم، كان عهده من أكثر العهود ثورية في تاريخ أوروبا، كان راعيًا للعلوم وممثلًا رئيسيًّا في مسرح السياسة الأوروبية.

على الجانب الإبداعي هنري كان كاتبًا رومانسيًّا، نشر أدبيات وأشعارًا تدل على فصاحة وطلاقة في اللسان، وتعدُّ الرسائل العاطفية المتبادَلة بينه وبين آن بولين بما تحويه من أشعار وقصائد رمزًا أدبيًّا بتاريخ التراث الإنجليزي. بالحقيقة إنني مفتونة بشخصيته نوعًا على تناقضاتها ربما سيرة حياته تكشف نوعًا عن سر افتتاني بشخصيته على الرغم من أخطائه القاتلة، وقسوته ونوبات غضبه وعواصف انتقامه. كي نتعرف إلى هنري جيدًا لا بد لنا من التعرف إلى جزء من تاريخ إنجلترا قبل حكم آل تيودور وفي أثنائه.

مع أواخر القرن الخامس عشر تغيّر شكل العالم في الشرق ظهرت الدولة العثمانية وفي الغرب ظهرت إسبانيا بعد سقوط الأندلس، أمريكا قارة جديدة وأرض موعودة بانتظار البرتغاليين والهولنديين والإسبانيين. أوروبا تولد من جديد، فمع سطوة الإقطاع ورجال الدين والكساد الاقتصادي الذي كان يعصف بكل القارة، ليتمخض ميلاد قوة جديدة وعصر جديد تشكلت ملامحه مع إعلان "مارتن لوثر" الحرب الشاملة على كل ما هو قديم.

الحقيقة إن من أحدث التغيير الحقيقي أو صاحب الضربة الكبرى في النهضة الأوروبية كان ملكًا من جزيرة منفصلة عن أوروبا، جزيرة الضباب إنجلترا، كان هو السبب الرسمي والأول لعصر ستتغير فيه نظرة أوروبا للدين والمجتمع بسبب قصة حبه لآن بولين ذاك هو هنري الذي غيّر تاريخ العالم وحوّل إنجلترا لدولة عظمى، وساهَمَ في تغيير أوروبا كلها بالخروج عن سلطة الكنيسة.

هو الابن الثالث لــ هنري السابع "1457–1509" أول حكام أسرة تيودور والذي كان انتصاره على ريتشارد الثالث هو ما وضع نهاية لحرب الوردتين التي كانت قد بدأت في عام 1455. وحرب الوردتين هي سلسلة من المعارك الأهلية التي حدثت في إنجلترا بين عامي "1455– 1485" بين أنصار أسرة لانكستر "Lancastrians" وأنصار أسرة يورك "Yorkists"حول الأحق بكرسي العرش، وسميت بهذا الاسم لأن اليوركيين كان شعارهم وردة بيضاء، واللانكاستريين كان شعارهم وردة حمراء.

سبب هذه الحرب يعود إلى فترة حكم الملك إدوارد الثالث والصراع بين أبنائه الأربعة بعد موته عام 1377 والذي استمر بين الأبناء والأعمام والأحفاد بما لا مجال لذكره هنا، حتى حدثت أول معركة عرفت بحرب الوردتين بسانت الباتز 22 مايو عام 1455 وانتهت الحرب بعد أن قام هنري تيودور حفيد أوين تيودور الزوج الثاني لــ كاثرين فالوا زوجة هنري الخامس بتجهيز جيش لانكستري لمقاتلة ريتشارد الثالث. الذي قُتِلَ في معركة بوردورث فيلد عام 1485 وهُزِمَ اليوركيون.

بذلك تُوِّج هنري تيودور ملكًا باسم "هنري السابع"، وتزوج ابنة "إدوارد الرابع" "إليزابيث يورك" وتُوضع نهاية لحرب الوردتين، ليُدْمَج شعار الأسرتين "الوردة الحمراء والوردة البيضاء" في شعار

واحد ليكون وردة تيودور الحمراء والبيضاء. نجح "هنري السابع" بامتياز في إعادة إنجلترا كقوة اقتصادية كما استطاع تحسين النظام الاقتصادي، كما نجح في إقصاء كل المتسابقين على الحصول على العرش من بعده.

الطفل هنري فأمضى معظم طفولته في بلدة "إلثام" قرب جرينتش حيث تعلم الفرن[illegible] [illegible]ان ملمًّا بالإسبانية والإيطالية، واهتمَّ بالرياضيات وانع[illegible] [illegible]عر والألعاب الرياضية كالفروسية والتنس.

في نوفمبر **1501** تزوج آرثر ولي العهد أمير "ويلز" الأخ الأكبر لهنري من كاثرين الأرجوانية ابنة فرديناند وإيزابيلا ملكي أراجون وقشتالة وبزواجهما توحدت إسبانيا، وبعد مراسم الزفاف الذي لم يدم طويلًا تُوفي الأمير إثر إصابته بمرض السل، بعد ستة أشهر من زواجهما. وبوفاة آرثر أُلقيت كل مسئولياته على عاتق أخيه الأصغر هنري، فأصبح هنري أميرًا على ويلز، وكان السبيل الوحيد لإنعاش التحالف بين إنجلترا وإسبانيا عن طريق المصاهرة فقدم والده عرضًا لزواج هنري من أرملة أخيه كاثرين، على الرغم من أن هنري كان صغيرًا جدًّا على الزواج آنذاك.

تطلّب هذا الزواج إصدار موافقة من البابا على زواج هنري بكاثرين، وذلك بسبب تحريم زواج الرجل بامرأة أخيه، وافق البابا على هذا الزواج بعد أن أقسمت كاثرين أنه لم يكن هناك علاقة

زوجية بينها وبين الأمير آرثر. عندما توفي هنري السابع عام **1509** تولى العرش من بعده ابنه الأمير هنري باسم هنري الثامن عن عمر يناهز السابعة عشرة، وكان أول عمل قام به الملك الجديد أن تزوج من كاثرين وتم تتويجهما معًا في مراسم تتويج مشتركة في **24** يونيو عام **1509**. بعد سبعة أشهر من زواجهما أنجبت كاثرين أول طفلة لها، لكن الطفلة تُوفيت في أثناء ولادتها ثم أنجبت بعد ذلك بعام ابنًا أسمته هنري، والذي تُوفي بعد **52** يومًا من ولادته.

ثم حدث لها إجهاض ثالث ورابع، بعدهما أنجبت ماري التي كُتبت لها الحياة، وأُجهضت بعدها مرتين، كانت له عشيقتان إليزابيث "بيسي بلونت وماري بولين" وقع هنري بحب إحدى وصيفات زوجته وشقيقة عشيقته ماري وهي آن بولين فقرر أن يبتعد عن كاثرين.

"مَن يأخذ امرأة أخيه سيكون عقيمًا".

هكذا يقول سفر اللاويين، وكدليل على ذلك، جميع أبنائه من كاثرين ماتوا صغارًا باستثناء ماري.

كان هنري راغبًا في وريث ذكر لذلك فقد خططَ سرًّا أن يقدم التماسًا إلى البابا لإبطال زواجه بكاثرين والتي توسَّلت إلى البابا كيلا يبطل هذا الزواج، ربما لأن ابن أخيها هو "كارلوس الخامس" إمبراطور روما.

وقد استمر النقاش القانوني والسياسي لهذه القضية مدة 6 سنوات أقسمت كاثرين خلالها أنها وآرثر لم يتم زواجهما ومن ثم لم يكونا زوجًا وزوجة بحق حتى وصلت الأمور إلى ذروتها عام 1533 عندما أصبحت آن حاملًا، ولم يفلح الكاردينال "توماس وولسي" كبير أساقفة يورك في إنهاء أمر زواج هنري بإنجلترا، كما كان يريد هنري، مما صعَّد الأمر إلى الكنيسة بروما تحت سلطة البابا، فلم يجد هنري حلًّا سوى أن يتمرد على البابا ويعلن أنه هو الشخص الوحيد الذي له سلطة على كنيسة إنجلترا، ويكلف "توماس كرانمر" رئيس أساقفة كانتربري بفسخ الزواج.

أُجبرت كاثرين على ترك القصر الملكي، وجُرِدت من لقبها كونه ملكةً، وعُرفت باسم أميرة ويلز الأرملة، وتم إبعادها عن ابنتها ماري، وعاشت على مدى الثلاث سنوات المتبقية من حياتها في العديد من القلاع والمزارع في ظروف سيئة في قصر كئيب يحوطه خندق مائي في عزبة كيمبولتون، وتُوفيت في 7 يناير 1536 وتم دفنها في "كاتدرائية بطرسبرج" وتمت مراسم تأبينها بصفتها الأميرة الأرملة.

منذ بداية حكم هنري، بدأ يتضح نمط الاعتقالات المفاجئ والتهم الملفقة والإعدام، وسيلة هنري للتضحية ببعض الأغنياء كأكباش محرقة لسياساته ولتصفية من لم يعد وجودهم ملائمًا، فقام بإعدام السير ريتشارد امبسون، وأدموند ددلي، بدعوى أنهما كانا سببًا في الضرائب الباهظة التي فُرِضَت على الشعب في عهد والده كونهما وزيرين في بلاطه.

رغم أن الأمر قد يبدو غير مفهوم وغير مبرر. بدا أن في عقل هنري شيئًا، فبلاده كانت غنية وقوة اقتصادية كبرى، وكان هناك أمر ما يشغل الفتى هنري منذ سنوات. بداية عصر التنوير وأن تكون إنجلترا كدولة هي وحدها من تستطيع مفاجأةِ الجميع وبناء عصر النهضة إداريًّا.

لكن! إذا كان هناك أمر آخر فلا بد لنا من وقفة حياله فهو من يشغل باله في خطط تكوين مملكته العظيمة؟ إنه "مارتن لوثر". كان هنري كونه شخصًا سياسيًّا متأثرًا بفكر"مارتن لوثر"بعد أن قرأ كل كلمة كتبها الرجل رغم هذا فإن هنري قد أظهر نفسه كمتنور من نوع مختلف يبطن إعجابه الشديد بالبروتستانتية ويظهر عداوته لمارتن لوثر كما يظهر اعتناقه الكاثوليكية.

هنري لم يكن ملكًا عاديًّا بل كان مثقفًا ومتعلمًا أبدى إعجابه بكامبريدج وأوكسفورد وروادهما، أظهر حبًّا للفلسفة والعلوم، وكان فخورًا ببريطانيا دولة علمٍ لا دولة سلاح أو دين.

لربما أظهر شيئًا من العلمانية ضمن غطاء ديني، لكن ما فعله هنري من دعم للعلماء يُجسِّد الحقيقة التي قامت عليها سلالة تيودور.

تلك المقدمات تتمخض عن نصر حقيقي ضد الإقطاعيين في إنجلترا مع ملك جديد سيبدأ معه عصر احترام العلم بالإضافة إلى سياساته التي كانت تقتضي بين حين وآخر بعقد تحالفات مع حلفاء إسبانيا لمجابهة أعداء كإسكتلندا والوقوف في وجه منافسين كفرنسا، لقد كان تمرد هنري على سلطة الكنيسة هو الأول من نوعه، فلم يسبق من قبل أن فعلها أي أحد بأن فكّ زواجًا كاثوليكيًّا، ذلك الزواج الذي لا طلاق فيه، لقد لجأ هنري الثامن إلى كل الحلول الممكنة وأظهر حنكته السياسية وسعة أفكاره وحيلته ومدى شغفه بالنساء.

كان لهنري هدفان واضحان: الزواج والإنجاب، وعندما أحبَّ، ساعده شغفه على تحقيق ما يتمنى. لم يكن الفاتيكان جاهزًا قط لمثل هذه المفاجآت، فقضية التنوير التي كان يدعو لها "مارتن لوثر" كانت حرب الكنيسة الأكبر، وعلى الرغم من أن هنري الثامن أراد ألَّا يخسر تأييد الكاثوليك له، فقد أخفى إعجابه بالبروتستانتية من خلال خطابات الانتقاد لمارتن لوثر.

كان لا بد من أن يقوم بأمر من اثنين لكي يجعل من آن بولين زوجته وملكة على عرش إنجلترا، إما أن يقنع أحد رجال الدين الكبار في روما بأن يقوم بخطوة لم يسبقه إليها أحد، وإما أن ينشأ كنيسته الخاصة التي تُقرُّ له أفعاله.

وهذا ما فعله بعد أن تسبَّب بموت الكاردينال توماس وولسي كمدًا عام 1530 والذي أُعْتُبر يومًا الحاكم الفعلي لإنجلترا بعد اتهامه بالخيانة العظمى فنصّب نفسه كبيرًا للأساقفة وذاك العمل فعليًّا هو بداية عصر النهضة في أوروبا حيث لا حكم ولا سطوة لرجال الدين أو الإقطاع حيث كسر التحالف بينهما وغيّر وجه أوروبا وشجَّع دولًا وجماعات على عصيان الفاتيكان وما يرتبط به من رموز الإقطاع التي نخرت بجسد الاقتصاد الأوروبي، ذلك الكساد الذي ما كان يفارق أوروبا نتيجة سياسة الإقطاع ونجح في ضَمِّ أصوات رجال العلم في كامبريدج وأوكسفورد.

لقد جعل من نفسه صورة المنقذ لأوروبا، واستغل هذه الشخصية الجديدة ليخفي تحتها مطامعه في تبديل زوجة بأخرى، والسعي وراء وريث شرعي يُرسِّخ نسل سلالة تيودور بالفعل نال ما أراد! فقد حصل على دعم الجامعات الإنجليزية والبرلمان لِيُقرِّر الانفصال عن كنيسة روما، وانتفض الفاتيكان وأعلن أن طلاق هنري غير شرعي، وأن زواجه من آن بولين أيضًا غير شرعي وأنهما مهرطقان، وأعلنت الكنيسة فصل إنجلترا عن ملكوتها، وكردة فعل على قرار الفصل البابوي دعا الملك هنري في نوفمبر عام 1534 البرلمان إلى التصويت على مرسوم السيادة الذي بموجبه أصبح هنري الثامن الرئيس الأعلى للكنيسة في إنجلترا، لقد حرَّر هنري دون أن يقصد الناس من ارتباطين أساسيين كرَّسا الشخصية الأوروبية لعقود ستغدو إنجلترا اعتبارًا من اليوم عظمى لتنعزل عن الشطر الواقع تحت سيطرة الكنيسة في روما.

هكذا أصبحت لإنجلترا كنيسة مستقلة، وهي أول كنيسة في التاريخ تستقل عن الفاتيكان.

لقد كان هنري متيقنًا من قوته المطلقة، مُنهيًا بزيجته بـ آن بولين عصر القلق والتوتر وفاتحًا على نفسه نار حرب مع الجميع، حربًا لن تختتم إلا بيد ابنته إليزابيث الأولى ابنة آن بولين الوحيدة آخر سلالة تيودور والتي ستُصلح كل أخطاء والدها الجسيمة وتكون فترة حكمها واحدة من أزهى العصور التي عاشتها إنجلترا، ليُعرف عهدها بعهد التسامح الديني.

هنري عاشق المراهنة والنرد البارع كملحنٍ ومؤلفٍ موسيقيّ وشاعر، دعوني أصِفْهُ بـ طاغية من نوع خاص، إن الباحث في حياة هنري خلال فترة حكمه، سيجد أن طغيان هنري بشكل عام لم يكن موجهًا حيال شعبه، بالمعنى المفهوم أو المتعارف عليه، بل كان في الأغلب، حيال رجالات القصر، والأغنياء والكنيسة، الذين حاربهم جميعًا،بين فورات غضبه التي تعصف بالبعض ليصبح مصيرهم الإعدام.

وهكذا يتضح طغيان هنري، بين مصادرة أملاك الأغنياء من الإقطاعيين لصالح المملكة، أو مصادرة ثروات رجال الكنيسة والحدّ من سلطاتهم وتقنينها. ليس تبريرًا لأفعاله العجيبة، فهو قطعًا شخص غريب الأطوار، ربما يكمن صراعه في الدور الذي رُسِمَ له القيام به، أن يكون ملكًا لإمبراطورية كبيرة، توحَّدت بعد سنوات طوال من

فرقة وانقسام، بين أهل يورك وأهل لانكستر، تلك الإمبراطورية واجهت أعداءً من كل الجهات، ومطامع من ملوك لممالك أخرى، خاصة مع انتشار الزواج السياسي بين تلك الممالك ببعضها البعض، مما جعل من المطالبة بالعروش اعتمادًا على المصاهرة والأنساب أمرًا خطرًا يهدد استقلالية كل دولة على حدة.

هنري كان من الرافضين للزواج السياسي المنتشر في أوروبا في ذلك الوقت، ومع هذا وجد نفسه مضطرًّا للزواج بأرملة أخيه، التي خُطِبَ إليها وهو بعد طفلٌ صغير في الحادية عشرة من عمره، وتزوجها بعد خطبتهما بستة أعوام. وهنري نفسه طالَبَ بعرش فرنسا بحكم المصاهرة والأنساب من ناحية والدته إليزابيث اليوركية والتي توفيت وهو بعد في عمر الحادية عشرة.

إن ما فرضته الالتزامات الملكية على هنري، زادت من تأثير أفعاله وتصرفاته الجنونية، أو لطغيانه– مجازًا– سأسمح لنفسي باعتباره طغيانًا قائمًا على نزق طفولي، فذاك الطفل داخل هنري لم ينضج قط، الذي فَقَدَ أمَّه وهو بسن صغيرة، ذاك العاشق الذي يسهل الإيقاع به، لم يكن إلا طفلًا تحوَّل إلى طاغية رغم أنفه.

إن القارئ للتاريخ يدرك بسهولة أن آن بولين لم تكن ضحية كل الوقت، فهي بشكل أو بآخر أوقعت هنري في حبائلها، عندما شعرت أنه راغب بها، لطموحها بأن تصبح ملكة، وبعد الزواج زادت عصبيتها وزاد غرورها حد الجنون لاعتقادها أنها امتلكته بالزواج،

كانت مغرورة ومتكبرة ومتعجرفة بما يكفي لجعل الشعب سعيدًا بإعدامها.

إن تاريخ أوروبا الملكي، بما حوى من الدسائس والمؤامرات والخيانات وجرائم القتل المدبرة، يجعل من طغيان هنري أمرًا محل نظر وتمعُّن وتدبُّر، خاصة إذا ما قارناه كنموذج مع النماذج الأخرى من الطُّغاة المرفقة سيرة حياتهم.

ربما تكمن مشكلة هنري الكبرى في رغبته المتأججة في إنجاب وريث ذكر لعرشه -لاعتقاده أن البنات لا يصلحن للحكم والمحافظة على وحدة أسرة تيودور وفرض السلام الذي تحقّق بعد حرب الوردتين- وقد كان خاطئًا في هذا، فبينما نجحت اليزابيث الأولى أو "إليصابات" الملكة العذراء ابنته من آن بولين في الحفاظ على حكم آل تيودور، وفي إصلاح أخطاء والدها العديدة. فإن حفيد عمتها مارجريت والذي خلفها فيما بعد "جورج السادس" كان وبالًا على الشعب الإنجليزي خاصة بتعصبه الشديد ضد البروتسانت.

إن هنري رغم كل شيء بما قام به في الإصلاح الإنجليزي، والذي حوّل إنجلترا إلى أمة معظمها من البروتستانت جعل من بلاده لاعبًا استراتيجيًّا رئيسيًّا في أوروبا، ربما التهديد الحقيقي لعرشه كان ثورة المتمردين عليه عندما قرر هدم الأضرحة التي يتبرك بها الفقراء، فقام الكثيرون منهم شمال لندن بالتمرد عليه في الحركة التي عُرِفت

بـــ"مهاجري الرحمة" والتي تفاوض هنري مع قائدها "روبرت آسك" ثم قبض عليه هو وعدد من المتمردين ليتم إعدامهم بتهمة الخيانة.

"توقع موت الملك"، "تخيل موت الملك"، "الخيانة المفترضة"، "محادثة الأغراب وتقليد تصرفاتهم"،"الخيانة العظمى"كلها مصطلحات تعبر عن أسلوب هنري في التعامل مع معارضيه بالبلاط الملكي بدءاً من السير امبسون و دادلي اللذين اعتقلهما بعد يومين من تتويجه، ثم اتُّهِما بالخيانة العظمى وجرى إعدامهما عام 1510.

كان هذا هو تكتيكه الأول للتعامل مع هؤلاء الذين وقفوا في طريقه حيث سعى هنري الثامن لترسيخ سلطته التي لا تقبل المقاومة أو التحدي، فهو لم يتردد في إعدام عدد من الشخصيات الإنجليزية المرموقة علنًا، وهو الشيء الذي لم يسبقه أو يحاكيه فيه أحد من خلفائه.

شملت قائمة المعدومين زوجتين من زوجاته، آن بولين، وكاثرين هيوارد ابنة عمها التي تزوجها بعد وفاة زوجته جين سيمور والدة ولي عهده الأمير إدوارد.

أُعدم عشرون نبيلًا، وأربعة من القادة الشعبيين، وستة من المقربين إليه وأصدقائه، كالسير توماس مور، والأسقف جون فيشر أسقف "روشيستر" لمعارضتهما الانفصال عن كنيسة الفاتيكان وأداء القسم للملك بوصفه على رأس الكنيسة، إضافة إلى الكاردينال وولسي

الذي مات في سجنه قبل إعدامه بتهمة الخيانة، ودوق "نورفولك" وولده بتهمة افتراض الخيانة، ولم ينقذ الدوق من الإعدام سوى موت هنري في أثناء المحاكمة.

نعود لأمر الكنيسة، هل اعتنق هنري البروتستانتية؟

هنري لم يتنصل من مذهب الكنيسة الكاثوليكية فهو كان متعمقًا في علوم الدين ألّف في هذا كتابًا لكنه أعلن نفسه حاكمًا أعلى لكنيسة إنجلترا عام 1534 تبع ذلك عدد من الإجراءات التي أدت لانفصال كنيسة إنجلترا،بتمرير العديد من القوانين منها قانون التعيينات الإكليركية، والذي يلزم الكهنة بانتخاب الأساقفة المرشحين بشكل سيادي والقانون السيادي، الذي أعلن أن الملك هو صاحب أعلى سلطة في كنيسة إنجلترا وقانون الخيانة في العام نفسه الذي جعل عدم الاعتراف بالملك على هذا النحو خيانة عظمى، عقوبتها الإعدام.

كما تم تمرير قانون بيتر بينس ردًّا على الحرمان الكنسي، والذي يؤكد أن إنجلترا ليست خاضعة لسلطة بعد الله إلا للملك، وأن التاج الملكي الإنجليزي قد تعرض للإهانة بطريق غير مبررة ومتعنتة، وبشكل ابتزازي من قبل البابا وأعلن أن كنيسة إنجلترا تخضع لسلطان هنري.

رأى هنري ومستشاروه أن البابا كان يتصرف كأمير إيطالي يتدخل في الشئون الدنيوية، تاركًا دوره الديني. لم يَرُق لهنري أن إنجلترا يمثلها كاردينال واحد فقط من أصل **50** كاردينال بلا احتمال أن يصبح هذا الكاردينال يومًا ما بابا لروما.

ومع الوقت لم يعد بإمكان هنري تقبُّل أن يكون اتخاذ القرارات الكبرى في إنجلترا في يد الإيطاليين، وقد كانت قضية طلاقه تجسيد لتلك المشكلة، ولم تكن المشكلة في حد ذاتها.

قام هنري بتغييرات جذرية في الممارسات الدينية التقليدية وأمر رجال الدين بمكافحة مفاهيم الصور الخرافية والآثار الدينية والمعجزات والحج، وأزال معظم الشموع من الكنائس، وأصدر مراسيم باستبعاد قديسين واستخدام الإنجليزية بدل اللاتينية في الطقوس الدينية، ودمَّر المزارات الدينية، وأتمَّ هنري قمع المعارضة لسياساته الدينية بمطاردة للرهبان وتعذيبهم وإعدام بعضهم.

وقام بنزع ملكية الأسر ذات المكانة الدينية التي تمتلك مساحات كبيرة من الأراضي، ونقل ملكية تلك الأراضي والتي تبلغ مساحتها نحو خُمس مساحة أراضي إنجلترا إلى أيدٍ جديدة بهدف تكوين طبقة جديدة من النبلاء تدين بالولاء للعرش، يمكنه الاعتماد عليهم في المستقبل.

في عام 1542 كانت الخطوة الأخيرة، حيث تم حلّ جميع الأديرة، ونقلت ممتلكاتها للتاج وفَقَد رؤساؤها مقاعدهم في مجلس اللوردات، واحتفظ فقط رؤساء المطرانيات والكهنة بعضوياتهم في المجلس، ليصبح للمرة الأولى عدد الأعضاء الأساقفة أقل من عدد الأعضاء من غير الأساقفة فيه.

تخلصت إنجلترا من سلطة الكنيسة. وتلك كانت بداية أوروبا للولوج إلى عصر النهضة والتنوير.

على الجانب الآخر فإن هنري المبدع يعتبر مُؤسِّس البحرية الإنجليزية، فقد شَهِدَ عهده ميلاد القوة البحرية الإنجليزية، والتي كانت النواة لانتصار إنجلترا على أسطول الأرمادا الإسباني، حيث ازداد عدد القطع البحرية في الأسطول الإنجليزي بفترة حكمه إلى ثلاث وعشرين سفينة، كما دشّن منطقة خاصة لإصلاح السفن والمدفعية والعناية بهما.

اهتم هنري أيضًا بالعمارة وتطوير المباني المميزة كقصر "ننساتش" وكنيسة "كلية الملك" ودير "وستمنستر" في لندن. أدخل التحسينات على العديد من المباني المصادرة من ممتلكات وولسي، ككنيسة المسيح في أوكسفورد وقصر "هامبتون كورت" وقصر "وايت هول" وكلية "الثالوث" في كامبريدج، وزاد عدد القصور في عهده من 5 قصور في عهد والده إلى 25 قصرًا، ولحبه للموسيقا كانت جميع قصوره تحتوي على "أراغن" موسيقية فخمة.

هنري كان ملحنًا موسيقيًّا بارعًا، يكتب الأشعار الموسيقية ويضع لها ألحانًا، ومن أشهر قصائده الشعرية أغنية تراثية بعنوان "هل تسمحين سيدتي؟" إضافة إلى ألحانه المشهورة كلحن"اللهو مع الخلّان".

استغل الفنَّ بقُدرته على التأثير في الجموع في ترسيخ ما قام به من ممارسات تجاه الكنيسة حيث قام بتأسيس فرقة مسرحية غنائية شعبية وتمويلها،كانت تجوب البلاد لتعزيز الممارسات الدينية الجديدة، والسخرية من القديمة، في المسرحيات التي عرضتها الفرقة.

سخرت الفرقة من البابا والكهنة والرهبان الكاثوليك وصورتهم كشياطين أجانب، في حين أشادت بالملك العظيم المدافع بشجاعة وبطولية عن الإيمان الحقيقي.

رغم أن هنري كان رياضيًّا في مطلع شبابه فإنه وبسبب الحادث الذي تعرض له أثناء مبارزة اللهو عام **1536** بينه وبين العاهل الفرنسي لم يلتئم جرحه وبقي متقرحًا للفترة المتبقية من حياته ما منعه من الحفاظ على المستوى نفسه من النشاط البدني المعتاد، وتسبب الحادث في تقلب مزاج هنري بما كان له تأثير كبير في شخصيته، فبدأت معاناته مع السمنة والمشكلات الطبية الأخرى قرب وفاته أصبح وزنه زائدًا بشكل كبير، ولم يعد قادرًا على الحركة إلا بمساعدة الآلات، وفي الثانية صباح يوم **28** يناير**1547** ضغط هنري يد كرانمر

كبير الأساقفة دلالة الإيمان والتوبة، وتوفي بعد أن هيمن على إنجلترا قرابة ثمانية وثلاثين عامًا. انطلق موكب الجنازة من قلعة "وندسور"، ودُفن في 16 فبراير 1547 إلى جانب نعش الملكة جين سيمور.

وهكذا انتهت حياة هنري الثامن أقسى ملوك إنجلترا وأكثرهم مزاجية وإرعابًا.



بينيتو موسوليني

29 يوليو 1883- 28 أبريل 1945

طالما أزعجني هذا الرجل، موسوليني!

بفترة مراهقتي عندما تعلمت شيئًا عن نظرية "الوجوه" للماركيز "سيزار لومبروزو" وعلاقتها بالمجرمين بدأت تطبيقها على كل الوجوه من حولي أو على الشخصيات المعروفة التي تصادفني في كتاب أو مجلة، بالطبع لم أكن على دراية كاملة بما طرح الرجل في نظرياته وأبحاثه والتي ورغم أنها تمثل عصب الفلسفة الوضعية في الفكر العقابي والسياسة الجنائية فقد تعرَّضت للنقد في بعض أوجهها سواء للقصور الموضوعي أو المنهجي.

وظهرت نظريات أخرى ربما تُفنِّد تلك النظرية التي تقوم على أساس أن هناك أشخاصًا يتميزون بخصائص جسدية وملامح عضوية خاصة وسمات نفسية معينة، وأن هؤلاء الأشخاص ينقادون إلى الجريمة بتأثير العوامل الوراثية، ويندفعون إلى الإجرام بحكم تكوينهم البيولوجي اندفاعًا حتميًا لا يكون حياله من سبيل للعلاج سوى استئصالهم من المجتمع.

فقد اكتشف لدى عينة من المجرمين الذين أجرى أبحاثه عليهم وجود تجويف في مؤخرة الدماغ مثل الذي يوجد عند بعض الثدييات الدُنيا، كما استرعى انتباهه شذوذ في تكوين الأسنان وشكل الجبهة وحجم الجمجمة، يشبه الحال الذي كان عليه حال الإنسان الأول.

وقتها طبعًا لم أعلم بكل هذا، ولكنني قنعتُ بصحة النظرية واستهوتني الفكرة حد القناعة التامة، إلى أن فقدتُ اهتمامي بها تمامًا، لكنني لا أنسى أنني ومن منطلق تلك النظرية التي وضعها واحدًا من أبناء إيطاليا نفسها وطن موسوليني، أنني قد منحته على أثرها لقب مجرم عن جدارة واستحقاق، كان أحد الوجوه المستفزة بالنسبة لي كلما رأيت له صورة شاهدت هذا الإنسان البدائي الهمجي. لم أكن لأعلم عنه الشيء الكثير حتى قرأت كتابًا اسمه "أيام موسوليني الأخيرة"، في الواقع وفيما بعد وحتى هذه اللحظة التي بدأت فيها البحث في سيرته للكتابة عنه كنتُ أستطيع تأكيد أن "الدوتشي" ليس طاغية فقط بل هو مجرم بالفعل منذ نعومة أظفاره.

بعيدًا عن لهو مُراهَقته، ونظرية علمية تغيرت وظهر ما يناقضها، سيرة حياة موسوليني تخبرنا عن هذا المجرم، بالفطرة إذا جاز لي القول. حتى انظروا لوجهه!

ولكن! لنتتبع سيرته معًا ربما نكتشف عنه أكثر مما كنا نعلم.

الاسم الكامل بينيتو موسوليني أندريا ولد في 29 يوليو 1883 في "بريدابيو" وهي قرية صغيرة أعلى "فيرانودي كوستا" بشمال إيطاليا،

كان والده "اليساندرو"، يعمل حدادًا وكان اشتراكيًا صميمًا ملحدًا متهكمًا على الدين، ووالدته "روزا" كانت تعمل مدرسة في مدرسة ابتدائية كاثوليكية،وسمي بنيتو على اسم الرئيس الإصلاحي المكسيكي بينيتو خواريس، لموسوليني أخ يُدعى "أرنالدو" وأخت تدعى "ادفيدج"، وخلال نشأته كان موسوليني طفلًا مشاكسًا وعاصيًا لأوامر والديه، وكان سريع الغضب، وعنيفًا بطبعه فتم طرده مرتين من المدرسة لاعتدائه على أحد زملائه الطلاب بالسكين في بطنه، كانت عائلته فقيرة كسائر عائلات الأقارب والجيران، وهو طفل كان همجيًا ومتهورًا مُنِع من دخول كنيسة والدته لسوء سلوكه حيث كان يرمي رواد الكنيسة بالحجارة. اضطر إلى دخول المدرسة متأخرًا في مدرسة داخلية، لم يكن كثير الكلام، ولكنه كان يجيد استعمال قبضته، في الثامنة من عمره كان يسرق، ودائم الشجار مع بقية أقرانه.

نستطيع أن نقول إن موسوليني ورث من والده ميوله الإلحادية، وتشبَّع بأفكاره الأناركية، والتي تهتم بالحركات العمالية والنقابية، الأفكار السياسية التي تقترن بالأفكار الاشتراكية، وأفكار القومية ومبادئها.

ذات يوم سمعته أمه ينطلق بحديث مسرحي صاخب وهو وحده في غرفة النوم، فظنته جُنّ إلا أن بنيتو الصغير أخبرها:

"إنني أعد العدة ليوم تهتز إيطاليا على صوت كلماتي".

قبل أن أشارككم سيرة حياة موسوليني، وكيف وصل للقب الدوتشي؟ وماذا فعل بإيطاليا حتى يوم إعدامه. هناك الجانب الإنساني في حياة موسوليني، والذي اتضح لي بين لمحة وأخرى بمعرض بحثي في سيرته. علاقته بأخيه أرنالدو الذي يصغره بعامين، الذي اختلف تمامًا عن بينيتو. أخوه هذا كان مؤمنًا بالفاشية، ليس فقط كأخ لموسوليني ولكن كونه صحفيًّا وكاتبًا ترأس جريدة أخيه عندما ترك تحريرها وتفرغ للعمل السياسي، وكان أسلوبه الهادئ ولغته الأدبية الراقية، والتي تختلف كثيرًا عن لغة أخيه أحد أهم أسباب نجاح الفاشية في التأثير في العقول بإيطاليا.

عندما نتحدث عن أهمية البروباجندا في صناعة الزعيم، يكون طبيعيًا أن نذكر جوبلز المستشار الإعلامي لهتلر أو مهندس الدعاية له. لكن الكثيرين وأنا منهم لم يعرفوا عن أرنالدو موسوليني الذي ربما كان رجلًا في الظِّل. ولكن كان له دور مُهمٌّ في حياة موسوليني. وللفاشية في حد ذاتها كما ذكر موسوليني نفسه. والذي كان رب أسرة ورقيق المشاعر على حد وصف أخيه تأثر بموت ابنه الأكبر سندرينو حد كتابة مرثية لأجله.

إن موسوليني الذي يذكر أخاه كثيرًا في خضم صفحات كتاب "خواطر زعيم" بما يُنبئ عن جانب آخر لموسوليني ربما لم يتعرف إليه الكثيرون، جانب الأخ والعم الذي يأسى لوفاة ابن أخيه، ولحزن أخيه الذي لا ينتهي. كما تتضح من صفحات الكتاب نظرته للصحافة

وقلم الصحفي عندما يتحول لقلم كاتب، إن موسوليني – ولا شك – يقدر قيمة الكِتَاب والكُتَاب فيقول:

"إن أخيه الذي تحولت كتاباته لكتابات أدبية خاصة بعد موت ابنه لتكن تجربة ثرية وميزة لا ينالها الكثيرون. أما الأخ يبدو كما لو كان صورة مغايرة لموسوليني اللهم إلا في اتفاقهما الفاشي، بالبحث علمتُ عن اهتمام أرنالدو بالبيئة والغابات بحكم تخصُّصه فلقد كان مدرسًا زراعيًّا قبل أن يكرس حياته للصحافة، وكتابة خطب أخيه".

سأشارككم بفقرات اخترتُها من كتاب خواطر زعيم.

هذا الكتاب ترجمه المُعَرِّب "صبحي وجيدة"، ونُشر في مصر منذ سنوات، حيث اختار المُعرِّب ومؤلِّف الكتاب، كتابات لموسوليني تحوي خواطره وحوار صحفي معه ضمَّنهما صفحات الكتاب.

الجزء الأول منه مُفعم بالعاطفة، يحتوي على مرثية موسوليني لأخيه، بالقسم الأول، وبقسمها الثاني مرثية أخيه التي كتبها عن ابنه الذي تُوفي.

أما الجزء الثاني فاختار المُعَرِّب حديثًا صحفيًّا بين موسوليني وإريك لودفيج، ثم كتابات مُنتقاة من موسوليني يصف بها المعارك، وآراء موسوليني بشأن الاستعداد للحرب والفاشية.

يقول في هذه الفقرة واصفًا مترلهم وحياقم.

"كنتُ أنام مع أرنالدو في غرفة واحدة وسرير حديدي واحد من صُنع والدي وعلى جوال محشو بورق الذرة فما كانت لنا حشية سواه، وكانت شقتنا تتألف من غرفتين في الطابق الثاني من وكالة فارادو ندخلهما من الغرفة الثالثة وهي مدرسة والدتي. كانوا يستنفعون بغرفتنا كمطبخ، وكان بجانب فراشنا صوان من خشب أحمر يحوي ثيابنا وأمامه قمطر مقوس غاص بكتب وجرائد قديمة كنت أتصفَّحها أنا وأرنالدو.

قرأتُ ما يصدر في هذا العصر من قصص ومجلات والتي كانت تصدر في "جنوفا "وبين الأدراج عثرت على خطابات الغرام التي كان والدي يكتبها لوالدتي وقرأت بعضًا منها. كانت نافذتنا أمام السرير وكنا نرى منها رُبَى وتلالًا والقمر وهو يطل من خلف فردينانو، وكانت على الجانب الثاني لسريرنا قصعة العجين، وعلى قرب منها الموقدة والتي تكون خامدة دائمًا.

كان والدي ووالدتي وادفيدج ينامون في الغرفة المجاورة وكان أثاثها صندوقًا كبيرًا وصوانًا ضخمًا من الخشب الأبيض تبدو للعيان من فوقه تسعة ملفات من القماش لثيابنا، كانت والدتي تفخر بها وتغار عليها بشكل خاص، ثم مائدة بالوسط كنت أدرس عليها وقد طالعتُ عليها بعد ذلك مطالعاتي الأولى في كتاب "أخلاق الواقعين" تأليف روبرتو أرديجو و"تاريخ الفلسفة" لفيورنتينو، و"البؤساء" لفيكتور هوجو.

كان أرنالدو يرافقني في لعبي في الصيف، أما في الشتاء فكنا نقاسي البرد في بيتنا المدخن، ولا نلهو بعض اللهو إلا بالثلج. كان البؤس حولنا بالغًا أشده، وكانت الناس تقرضنا الخبز والزيت والملح".

ويقول واصفًا أخاه:

"إن أخي دائمًا ما كان أكثر رقة وطيبة مني، ولم يكن على شيء من تهوري، ولم يكن له سجالات مع أصدقائه، أما أنا فعلاقاتي بالأصدقاء دائمًا ما كانت تنتهي بشجارات عنيفة".

ويتحدث هنا عن أسلوبه في الكتابة:

"وكان تراثي، وأستطيع أن أجزم بهذا دون خجل أو تواضع زائف تراثًا ثقيلًا على خليفتي، لأنني كنتُ قد تركت طابعي على مقالاتي والعناوين والرسوم والمذكرات التي أوعزت بها، وجميعها ذات طابع مجادل ومحارب في غير مهادنة، وقد عودت الإيطاليين على أسلوبي وهو ابن فطرتي الطبيعي والشرعي، ومن ثم لن أستطيع أن أستره يومًا بأسماء مستعارة أو وسائل أخرى".

ثم يتحدث عن أسلوب أخيه في الكتابة وتجربته:

"لقد كانت مقالة أرنالدو منتظرة، كان ينتظرها في أول الأمر من كان يريد أن يرى فيها إيحائي، وكان ينتظرها بعد ذلك من يقدر قيمة مكتوبات أرنالدو الذاتية ومادتها وأسلوبها، ولكن أرنالدو يبلغ أوجّه خصوصًا بعد مأساة سندرينو، فيرتقي من صفوف الصحافة إلى مصافِّ الكُتاب.

هذه ميزة لا ينالها إلا القليلون، فمن الصحفيين من لن يكونوا يومًا كتابًا، ومن الكتاب من لن يسعهم أن يصيروا صحفيين لأن العمل الصحفي عمومًا مُقيَّد لحد بعيد بالواقع، لا يستطيع أن يقدم عليه سبحات الأدب، ولو أنه لا شك في أن الصحافة تستطيع أن تروض العقل كما يعد الملعب الرياضيين فيصير الصحفي كاتبًا عندما يبطن نفسه، عندما يبدأ يرى الأشياء لا في هيئتها السينمائية الماثلة ولكن في هيئتها المدلولية، عندما يطرق برأسه ويفكر في المسائل الأصلية عندما يحمله إلى القمة ألم قاسٍ، كما هو الأمر في حال أرنالدو فيشعر بخلوص نفسه من الأغلال التي كانت تُقيِّدها إلى البسيطة ويتنفس في جو الأشياء اللانهائية. فتنتهي صحافة الجريدة اليومية ويبدأ الشعر. شعر الحب والموت، شعر الأمل والاستسلام، شعر الحياة الدنيا وما بعدها من إغراء وأسوة ".

ويقول في فقرة أخرى:

"ولكن أرنالدو يرتفع إلى هجير حريته التامة وقوته العقلية والروحية في نشاطه الصحفي منذ سنة 1930 وفي الخطب الأخيرة التي ألقاها في الأشهر الأخيرة من هذه السنة. فلا يعود أحد حتى أكثر خصومه مكرًا أو أشدهم خبثًا- يصدق أقصوصة أرنالدو- مترجم بسيط ومذيع- مكبر صوت الزعيم...إلى الفقرة التي يقول فيها:

فيخلب أرنالدو لبّ الشعب الذي يسمع له ويمتلك حواسَّه في خطبة "فاريزي" في نوفمبر وعلى الأخص في خطبة ديسمبر وهي الخطبة التي ألقاها في مدرسة "الفلسفة الفاشية" في ميلانو".

ويواصل بينيتو الحديث عن أخيه حتى الفقرة التي يقول فيها:

"...أرنالدو حتى الآن صحفي ثورة القمصان الأسود الكبير الذي لم يفقْهُ أحد.

وإن أرنالدو لم ينسَ يومًا حتى في أصغر المقالات وفي النبذ وفي التعقيب على الأخبار وفي كل ما يمثل الجزء التافه من الصحافة، لم ينسَ اللهجة المؤدبة، تلك اللهجة التي ترفع من قدر المهنة وتجعل منها شيئاً مختلفًا اختلافًا جوهريًا عن مجرد التجارة في أخبار وورق مطبوع".

ومن حديث له مع الصحفي إميل لودفيج اخترت هذه الفقرة:

"لقد سجنتُ 11 مرة في أربع دول، سجنت في برنا ولوران وجنيف وترنتو وفورلي وفي أمكنة أخرى عديدة، وقد ارتحت في كل هذه السجون راحة ما كنت أستطيع أن أمتع نفسي بها من نفسي، لست ناقمًا على هذه البلاد التي سُجِنْتُ بها، أذكر أني قرأتُ في أحد تلك السجون "دون كيشوت" وابتهجت بها ابتهاجًا لا يوصف".

ويقول عن الصحافة بعد أن أصبح زعيمًا في الحديث نفس:

"ليست الصحافة اليوم كما كانت قبل الحرب! الجرائد تدافع اليوم عن المصالح لا عن العقائد، فكيف تستطيع أن تربي من يكتبها! أما من الوجهة الفنية فلا تزال الصحافة معلمًا بارعًا لكل من قُدِّر له أن يشتغل بالسياسة ويندمج في الدولة".

وعن الإمبراطوريات العظيمة:

"لكل إمبراطورية دون شكٍّ قمة تقف عندها لأنها دائمًا صنيعة رجال نابغين، في طبيعتهم بذور الفناء والسقوط. فهم عنصر التوقيت ككل شيء شاذٍّ، ولكنها قد تدوم قرنًا أو قرنين أو عشرة قرون حسب إرادة تحكم القائمين بها".

وعن علاقة السياسي بالخيال:

"السياسي محتاج دائمًا للخيال وإلا فهو جافٌّ ولن يصل إلى شيء ما ولكنه في هذا سواء مع كل الناس فليس في استطاعة أحد منا أن يصل إلى شيء إن لم يكن له شعور شعري وإن لم يكن له خيال. شاعر المسرح يستطيع أن يعد الطريق لرجل السياسة، ويسبق الشاعر عادة الثورات. الشاعر نبي العهود الجديدة دائمًا".

أكتفي بتلك الفقرات. ولنتعرف معًا على الدوتشي.

على الرغم من كل المشكلات التي تسبب بها في المدرسة، فإن موسوليني تمكّن من الحصول على شهادة وبعد ذلك عمل فترةً قصيرة مدرسًا في مدرسة ابتدائية في بلدة "جوالتياري"، لكن عمله لم يُدم طويلًا ولم يتمّ تجديد عقد عمله بسبب علاقة أقامها مع سيدة كان زوجها متغيبًا لأداء الخدمة العسكرية.

انتقل موسوليني إلى سويسرا في يوليو 1902، هربًا من الخدمة العسكرية، خلال هذه الفترة لم يستطع العثور على عمل دائم فيها، وتم القبض عليه بتهمة التشرد وسُجِن ليلة واحدة، ففي صبيحة يوم 24 يوليو 1902، أُوقفته الشرطة تحت جسر قضى تحته ليلته.

لم يكن بحوزته حينها إلا جواز سفر وشهادة التخرج من مدرسة المعلمين و 15 سنتيمًا، عمل موسوليني في عدد من الوظائف الغريبة، وقضى أمسياته في حضور الاجتماعات المحلية للحزب الاشتراكي، كانت واحدة من تلك الوظائف العمل وكيل دعاية لنقابة البنائين، ومن هنا تبنّى موسوليني موقفًا عدوانيًّا جدًّا، وكثيرًا ما كان يدعو للعنف، ودعا إلى إضراب عام لإحداث التغيير المنشود أدى هذا لتعرضه للاعتقال عدة مرات ما بين عمله المضطرب في النقابة خلال النهار والعديد من الخطب والمناقشات مع الاشتراكيين في الليل، سرعان ما بنى موسوليني اسمًا لنفسه في الأوساط الاشتراكية، وبدأ كتابة عدد من الصحف الاشتراكية وتحريرها.

قضى موسوليني الأشهر الأولى من عام 1904 متنقلًا في أماكن عدة بين جنيف وفرنسا، تحديدًا بين جنيف وآنماس حيث كان يعقد اجتماعات، ويُلقي محاضرات ذات طابع سياسيّ ونقابي إضافة إلى مراسلات صحفية مع منشورات ومجلات اشتراكية وفوضوية.

وفي شهر أبريل من عام 1904 وأبعدته سلطات كانتون تيشينو بسويسرا مجددًا إلى إيطاليا حيث حُوكم فيها بتهمة التقاعُس عن أداء الواجب العسكري.فعاد موسوليني إلى إيطاليا لأداء الخدمة العسكرية.

ثم تحول إلى "لوزان" حيث سجل في كلية العلوم الاجتماعية وتابع لبضعة أشهر محاضرات عالم الاجتماع "فيلفريدو باريتو" والفيلسوف "فريدريك نيتشه"، و"جورج سوريل" إضافة إلى أفكار الماركسي "تشارلز بيجوي" والتي أثرت في بعض أعمال موسوليني، والذي كان يدعو من خلالها إلى إسقاط الديمقراطية الليبرالية،والرأسمالية باستخدام العنف.

سعى موسوليني إلى نشر أفكاره النارية، وآرائه التي تضمنت الإلحادية وفي مضمونها تدشين مفاهيم جديدة لاشتراكية تعتمد على الفوضى، وإثارة المشكلات، هاجم رجال الدين، والكنائس، ودور العبادة والأديان كافة، ووصل الأمر به لمهاجمة المسيح نفسه، فأمر رجال الدين في سويسرا بطرده منها.

ما بين عامي 1908 و1910 ، أقام موسوليني في سويسرا فترات متقطعة، فعمل بنّاء في شركة المقاولات البرية والحديد في "لوجانو"

حيث تَعَرّف إلى الزعيم الاشتراكي "جوليالمو كانيفاشيني" الذي استضافه في بيته، وفي عام 1909، عاش فترة قصيرة في النمسا وعمل في نقابة العمال، في فبراير من عام 1909، وفي مدينة "تورينتو" ذات الأصول الإيطالية التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية النمساوية المجرية، عمل إداريًّا للفرع المحلي للحزب الاشتراكي وأصدر صحيفة

"Il Trentino veduto da un Socialista" "تورينتو بعين اجتماعي" كما عمل مُحررًا لصحيفة "L'Avvenire del Lavoratore" أو "مستقبل العامل" وكتب عدة مقالات وقصصٍ قصيرة.

نشر روايته الوحيدة بعنوان "عشيقة الكاردينال" " L'amante del Cardinale" بحلقات مسلسلة بجريدة أسبوعية، وهي رواية رومانسية مبتذلة عن قصة مأساوية لرجل دين كاثوليكي وعشيقته بالقرن السابع عشر.

أدت هجماته على النزعة العسكرية والقومية إلى طرده من النمسا، فعاد مرة أخرى إلى إيطاليا، وواصل الترويج للاشتراكية وتطوير مهاراته كخطيب، فقد كان قويًّا وواثقًا من نفسه، وعلى الرغم من أخطائه في عرض الحقائق التي كان يقدمها فإن خطبه كانت دائمًا مقنعة، ووجهات نظره ومهاراته الخطابية العالية في أثناء الخطب سرعان ما أدت إلى انتباه زملائه الاشتراكيين له.

عندما أعلنت إيطاليا عام 1911 الحرب على تركيا وتحركت لغزو ليبيا، قاد موسوليني ككل الاشتراكيين، مظاهرات ضد الحرب وحوكم وسُجن لعدة أشهر، وبعد إطلاق سراحه رحَّب به الاشتراكيون، بدأ العمل رئيسًا لتحرير صحيفة اشتراكية إيطالية "Avantie" أو "إلى الأمام" في 1 ديسمبر 1912.

في عام 1914، وبعد اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند، وبداية الحرب العالمية الأولى، أعلنت الحكومة الإيطالية أنها ستبقى محايدة تمامًا، بدأ موسوليني في استخدام منصبه رئيس تحرير لصحيفة وحثّ زملاءه الاشتراكيين على دعم الحكومة في موقفها الحيادي من الحرب. فجأة ودون مقدمات أو مشاورات مع قيادة الحزب الاشتراكي سرعان ما تغيَّرت وجهات نظره، وأصبح مناصرًا لدخول إيطاليا في الحرب، ونشرَ موسوليني مقالًا في الجريدة يطالب فيه إيطاليا بالدخول إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، فطُرد من عمله والحزب، واتُّهم بالخيانة، وقد فُسِّر هذا التحول بأنه قبض مبلغًا سريًّا من الحكومة الفرنسية.

الحرب العالمية الأولى ودور موسوليني فيها:

في عام 1915، أعلنت إيطاليا الحرب على النمسا، والانضمام رسميًّا للحرب العالمية الأولى، وقد تم وقتها استدعاء موسوليني للخدمة في ميلان وقضى موسوليني عامين بالجيش وخلال خدمته كانت

وحدته العسكرية تجرب سلاحًا حربيًا وانفجر مما أدى إلى إصابته إصابات بالغة، ولكنه سرعان ما تعافى منها.

موسوليني والفاشية:

الفاشية مُشتقة من الكلمة الإيطالية Fascio بمعنى الصولجانات، وتدل على رابطة بين مجموعة ولا تعني الفاشية فقط أساليب القمع الخالص كما هو معتاد، لأن الحركة الفاشية في حد ذاتها قدمت صيغًا من الحكم والإدارة السياسية بعيدًا عمَّا اقترن بها من أساليب قمعية.

بعد الحرب العالمية الأولى، أصبح موسوليني معاديًا للاشتراكية، وبدأ الدعوة إلى حكومة مركزية قوية في إيطاليا ودعا موسوليني لضرورة وجود ديكتاتور لقيادة هذه الحكومة، لم يكن موسوليني الوحيد الذي أراد التغيير، فكثيرون أرادوا ذلك فبعد الحرب العالمية الأولى كانت إيطاليا تشهد كثيرًا من المشكلات وأصبحت في حالة من الفوضى.

لم يكن العمل متوافرًا للجنود العائدين من الحرب.والأسعار كانت عالية، ولم يكن باستطاعة الفقراء شراء حوائجهم، ومع تزايد الاضرابات في المدن تشكّلت العصابات من الفقراء، وبدأت بحرق بيوت الأغنياء.

كان الناس يبحثون عن وسيلة لجعل إيطاليا قوية من جديد، وقد استشعر موسوليني مزاج الشعب وحالته النفسية، وكان يرى غضب الجنود، لم يكن موسوليني راضيًا عن حياة الفقراء، وكان يريد تغيير ذلك، آمن بالآراء الفاشستية وبأن العنف هو السبيل الوحيد لتحقيق التغيير.

في تلك الفترة بدأت موجة من القومية تجتاح إيطاليا، وبدأ كثير من الناس في تشكيل مجموعات محلية صغيرة قومية.

كانت الفاشية قد أصبحت حركة سياسية منظمة بعد اجتماع ميلانو في 23 مارس 1919. بدأ موسوليني بتجميع هذه الجماعات في منظمة وطنية واحدة تحت قيادته، فأسَّس ما يُعرف بـــ "وحدات الكفاح" "Fasci Italiani di Combattimento"،كان شعارها القمصان السود والهراوة اللتين أصبحتا علامتين تميزان حركة موسوليني التي بقيت هامشية، رغم كونها النواة لحزبه الذي وصل به الحكم فيما بعد والذي أطلق عليها فيما بعد اسم "الحزب الفاشي".

فشل الحزب في انتخابات 1919، ولم يفز أي فاشي بمقعد في البرلمان، وحصل موسوليني على 4000 صوت فقط في مدينة ميلانو مقابل 180 ألف للاشتراكيين.

عندما كتبت مجلة إلى الأمام الاشتراكية تنعى خسارة موسوليني في الانتخابات، هُوجم مقر الحزب الاشتراكي بالقنابل، وحين داهم

البوليس مكاتب مجلة موسوليني وُجِدت قنابل ومتفجرات فسجن أربع سنوات، ثم أُطلق سراحه ليعود مرة أخرى ويتمكن من دخول البرلمان في عام **1921** وشكلّت الفاشية فرقًا مسلحة من المحاربين القدامى" "Milizia Volontaria per la Sicurezza Nazionale" "Blackshirts" or "Squadristi" "جماعة القمصان السوداء" لإرهاب الفوضويين والاشتراكيين والشيوعيين.

وكان نشوء المذهب في إيطاليا عام **1920** على إثر اضطرابات عمالية حاول فيها العمال الاستيلاء على عناصر الإنتاج وقاموا بالاستيلاء على بعض المصانع؛ مما أدى إلى شَلّ حركة السوق الاقتصادية، وأوشكت البلاد أن تنهار. على أثر ذلك قام موسوليني بتأييد من جماعات كبيرة وأعاد النظام إلى نصابه وتولى الحكم عن طريق القوة، ومنذ ذلك الحين اقترنت الفاشية باسمه.

إن أصحاب القمصان السوداء لم يتصرفوا كحزب سياسي وإنما كرجال عنف وعصابات. قال لهم موسوليني: إن عليهم معالجة مشكلات إيطاليا/ وأن يكونوا رجالًا أقوياء، فعندما يكون هناك إضراب عمالي يأتي "الفاشيست" ويوسعون العمال ضربًا، فمن وجهة النظر الاقتصادية تقضي الفاشية بتكوين نقابات من العمال وأرباب العمل، يفترض بأعضاء هذه النقابات أن يكونوا كلهم من الحزب الفاشي، كما تسعى لإيجاد نوع من التعاون بين الطبقات يؤدي لتحقيق

السلام الاجتماعي. لهذا فهي لا تــؤمن بحق الإضراب ولا تستهدف القضاء على الرأسمالية الوطنية.

في صيف 1922 كان هناك إضراب كبير في المواصلات وقد عجزت الحكومة في التعامل مع ذلك، ولكن الفاشيست سيروا الحافلات والقاطرات وأنهوا الإضراب بعد أن قام موسوليني مقابل دعم مجموعة من الصناعيين بالموافقة على استخدام قواته في كسر الإضراب ووقف الانتفاضات الثورية، عندما فشلت الحكومات الليبرالية المتتابعة في وقف انتشار الفوضى استجابت إيطاليا لموسوليني بطريقة أو بأخرى، عاد العمال لمصانعهم، والطلاب إلى مدارسهم، وبدأ الدوتشي رحلة السيطرة على السلطة، وأصبح في النهاية الحاكم الوحيد الذي لا يخضع إلا للمَلِك.

كان الشعب يطالب بزعيم قوي مثل موسوليني ليقود البلاد، وقال موسوليني إنه الوقت المناسب للاستيلاء على السلطة،ففي أواخر صيف عام 1922 قام الحزب الفاشي بعمل مسيرة بمقاطعات رافينا وفورلي وفيرارا في شمال إيطاليا، أحرقت المسيرة مقرات ومنازل كل عضو في المنظمات الاشتراكية والشيوعية على حدٍّ سواء وبحلول شهر سبتمبر من عام 1922 سيطر حزب الفاشية على معظم شمال إيطاليا.

في 2 أكتوبر وباحتفال بمدينة نابولي الجنوبية صرخ موسوليني في الجماهير:

"إما أن تعطي لنا الحكومة أو سنأخذ حقنا بالمسير إلى روما".

هذا هو دور موسوليني المبدع الذي صنع مستقبل الدوتشي، بقدرته على التأثير في الجموع "خطابيًّا/ كتابيًّا"، هذا هو ما أخبر والدته عنه ذات يوم واهتزت إيطاليا على صوت كلماته.

أجابته الحشود: "إلى روما. إلى روما"

أربعون ألفًا من أصحاب القمصان السود جاؤوا من مختلف المدن الإيطالية إلى روما.

"سوف نُعْطَى السُّلطة وإلا فسوف نأخذها"

إن هذا العدد الضخم من عشرات الألوف من المضللين لم يكن لهم أي وجود غداة الحرب العالمية الأولى، إذا بهم خلال سنوات قليلة يحملون هوية الحزب الذي شكّله موسوليني وينعمون بالامتيازات، وسط أوضاع متردية سياسيًّا واقتصاديًّا، هيأت لموسوليني الذي تحوّل من الاشتراكية إلى الفاشية من جعل حزبه بديلًا لدولة لم تعد ذات وجود، ومكّنه من القيام بحملة ديماجوجية حرّك من خلالها الغرائز المتطرفة لعدد كبير من العاطلين عن العمل من الجنود المسرحين، ومن ذوي السوابق الإجرامية، ومن فلول عصابات الإجرام المنظم "المافيا" و"الكومورا" و"فايدا" فجعل لهم أيديولوجية متعصبة حد التطرف ليملأ الفراغ السياسي والأيديولوجي والروحي المأزوم بسبب الهزيمة المريرة في الحرب العالمية الأولى.

مسيرة روما "Marcia Su Roma":

في 28 أكتوبر1922 قامت فرق مسلحة من حركة الحزب الفاشي قوامها 14000 فاشي بعمل مسيرة الى روما بالقطارات والحافلات، وعلى الرغم من تنظيمها بشكل سيئٍ وعدم توافر الأسلحة الكافية لها فإن هذه الخطوة أربكت الملك فيكتور مانويل الثالث ملك إيطاليا، ونتيجة الذعر الذي شعرت به الحكومة عُرِض على موسوليني منصب وزير في الحكومة، وناشد رئيس الوزراء الملك إعلان حالة الطوارئ لكنه رفض،ودعا موسوليني لتشكيل حكومة ائتلافية جديدة، وبالفعل وافَقَ موسوليني، كان عمره آنذاك 39 سنة ليصبح أصغر رئيس وزراء في تاريخ إيطاليا 31 أكتوبر 1922. منذ ذلك الحين وحتى عام 1926 استمر قمع الحكومة لمؤسسات الحكم المنتخبة وقتل القادة الذين عارضوا الفاشيين،وفي أبريل 1926 حُرّمت الإضرابات، وسُنّت قوانين عمل جديدة، وأُلغي الاحتفال بالأول من مايو.

بدأ موسوليني بالتغيير في إيطاليا بإلغاء كل الأحزاب الأخرى، فكان على الشعب التصويت للحزب الفاشي فقط، وعلى الشباب أن يتعلموا مبادئ الفاشيست.

كان يقول لهم: "أن تعيش يوما واحدًا مثل الأسد خير لك من أن تعيش مئة عام كالخروف".

كان على الصغار الالتحاق بمعسكرات التسييس الفاشيستية، وكان يتم إعدادهم كجنود صغار، وكان عليهم الإيمان والطاعة والقتال، وكان الفاشيون ينظمون غارات في الأرياف وهم في شاحناتهم، يدخلون المزارع المعروفة بنزعتها الاشتراكية، فيقتلون الناس أو يعذبونهم، شتتوا الحزب الشيوعي واغتالوا العديد من قادته، وأزاحوا مؤسساته النقابية وجمعياته التعاونية. ثم بدأت الخطوة المهمة.

الحرب الثقافية:

القيام بطبخ كل النزعات والاتجاهات والأساليب في الأدب والفن في وعاء الاتجاهات القومية، الذي تختلط فيه الفنون والآداب والدعاية، باتجاه منغلق ومُعادٍ لأي قومية أخرى، أو اتجاه آخر وبهدف معلن هو تحرير الثقافة الإيطالية وتوحيد أشكالها ومقاييسها لتتطابق وتتجانس مع فكر الدوتشي.

امتلأت الساحات والشوارع بتماثيل موسوليني وبجداريات كبيرة تخلد أفعاله، كما بدأت حركة تنظيم شاملة للأطفال والفتيان وطلبة المدارس والجامعات على استخدام السلاح وحفظ الأناشيد القومية الفاشية، وبدأت حملة تجريد العشرات من الصحفيين من هوياتهم في النقابات الصحفية، كما أغلقت جميع الصحف والمجلات الأدبية، مع إجبار الناس على وضع صور موسوليني في غرف النوم، وإيقاد الشموع بعيد ميلاده، وانتزع رجاله الحُلي الذهبية من النساء وخواتم الزواج من أصابع المتزوجين.

تشكلت لجان في طول البلاد الإيطالية وعرضها من كتاب الدولة وأساتذتها لإصدار قوائم سوداء بالمثقفين المحظورين، وبأسماء الكتب المعادية التي يجب حرقها وإتلافها ومنعها من التداول، استمر حكم موسوليني حتى عام 1943 خلال حكمه كان رئيس الدولة الإيطالية ورئيس وزرائها، وفي بعض المراحل وزير الخارجية والداخلية، بدأ حاكمًا دستوريًا للبلاد ثم تحول إلى الديكتاتورية بعد إجراء الانتخابات التي سيطر فيها على جميع المقاعد في البرلمان لتعيين نفسه "زعيمًا" لإيطاليا، تحديدًا في 3 يناير 1925 بدعم من غالبية الفاشية له، أعلن موسوليني نفسه ديكتاتور إيطاليا وعُرِف باسم الدوتشي "الزعيم" أو "القائد" بالإيطالية "Il Duce"

نجح في ذلك مدة عشر سنوات، قام خلالها بتوطيد سلطته بسنّ سلسلة من القوانين واستصدارها حولت الأمة كلها إلى دكتاتورية الحزب الواحد.

الحرب العالمية الثانية وأخطاء موسوليني فيها:

قبل أن نتعرف إلى سياسات موسوليني في تلك الحرب علينا أن نتعرف إلى سياساته الخارجية والتي بدت كمقدمات للنهايات، السياسة الخارجية التي اتبعها تجنبت خيار السلام، واعتبرته ظاهرة متعفنة، حيث أصرّ على أن:

"الفاشية لا تؤمن بإمكانية ولا بفائدة السلم الدائم، الفاشية تفهم الحياة كواجب ونضال وقهر".

وبالمقابل، دعمت فكرة إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة، وطمحت لتوسيع مناطق نفوذ إيطاليا. لم يخفِ موسوليني رغبته في السيطرة على كل حوض البحر الأبيض المتوسط، وأن يحوله إلى بحيرة إيطالية لينشئ إمبراطورية تمتدُّ من الحبشة إلى ساحل غينيا الغربي، دعا الإيطاليين إلى زيادة النسل ليمكنهم من استعمار هذه الإمبراطورية الشاسعة واستيطانها، وعندما تسّلم زعامة إيطاليا غيّر سياسة إيطاليا اللينة في "ليبيا" إلى الشدة.

فنقض الاتفاقات المعقودة مع الليبيين، ورفض الاعتراف بالمحاكم الشرعية في المناطق التي يسيطر عليها الإيطاليون، وأبى إلا أن يكون الجميع خاضعًا لإيطاليا، وعيَّن لهذا الغرض حاكمًا جديدًا هو"بونجيوفاني" ومنحه سلطة مطلقة في حكم ليبيا، وزوَّده بصلاحيات واسعة وجيش كبير بقيادة اللواء "رودولفو جرتزياني" واللواء "بادوليو" وأمر المفوّض السامي الإيطالي بحل معسكرات القبائل بولاية برقة، وأمر قواته باحتلال مركز القيادة السنوسية "أجدابيا" عام 1923م.

في أثناء محاولاته اليائسة تنفيذ خطته في ترسيخ الاستيطان الاستعماري في ليبيا، قتل 200 ألف نسمة من المواطنين الليبين طوال

ثلاث سنوات فقط قبل عثوره على الثائر "عمر المختار" واعتقاله حيث قررت المحكمة إعدامه رغم سنه التي جاوزت الخامسة والسبعين، فأُعدم في اليوم التالي في 16 سبتمبر 1931 بمركز "سلوق" في بنغازي.

واصل الإيطاليون استباحتهم للشعب الليبي إضافة إلى مصادرتهم الأراضي الليبية من أصحابها وشجع هجرة الإيطاليين إلى ليبيا وأمدوهم بالأموال وفتحوا لهم المدارس، في 9 نوفمبر1939 قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، أصدر مرسومًا بضم ليبيا "طرابلس وبرقة" وجعلها جزءًا من الوطن الأم "ليبيا بالأصل تطلق على الصحراء التي تقع غرب نهر النيل وجنوب برقة وطرابلس" مع منح السكان الجنسية الإيطالية وإلزامهم بتعلّم اللغة، ومَن عارضه هتك عرضه، وأمر بإلقاء كثيرًا من الناس من الطائرة وهم أحياء إلى غير ذلك من الأعمال الوحشية.

كان عازمًا على تحويل إيطاليا إلى إمبراطورية وللقيام بهذا، فإيطاليا في حاجة إلى مستعمرة، لذلك في أكتوبر 1935،قرر غزو إثيوبيا دون إعلان حرب على اعتبار أنها أقل من أن تستحق هذا الشرف، وكان لتوّه قد انتهى من سحق ثورة عمر المختار في ليبيا بوحشية بالغة، وسُمِّي هذا الغزو بالغزو الوحشي، حيث انتقدت الدول الأوروبية الأخرى إيطاليا، ما عدا ألمانيا بقيادة هتلر وفي مايو 1936، استسلمت إثيوبيا وحصل موسوليني على إمبراطوريته.

كان موسوليني راغبًا في أن تكون إيطاليا دولة عظمى، وكان مستعدًّا لخوض الحروب من أجل ذلك. لوّح بقوته الهائلة وقدرته على تعبئة اثني عشر مليونًا، مسلحين بأحدث الأسلحة، في حين أن الرقم الحقيقي لم يكن يعدو المليونين، أما الطائرات والبوارج والدبابات الثقيلة التي طالما تحدث عنها، فلم يكن لها وجود، ولم تكن قواته تملك سلاحًا أثقل من العربات المصفحة التي تزن ثلاثة أطنان، عكس ألمانيا التي كانت متفوقة عسكريًّا.

عندما يقارن الخبراء العسكريون بين هتلر وموسوليني فإنهم يلفتون الانتباه إلى أن أدولف هتلر، الذي كان قد شكلّ منظمته الفاشية الخاصة به، والحزب الوطني الاشتراكي الألماني للعمال المعروف باسم الحزب النازي أكثر وضوحًا في أهدافه في حين كان موسوليني أكثر غموضًا وانتهازية.

وكان هتلر معجبًا بموسوليني، على عكس موسوليني الذي كان يكره هتلر في البداية، ومع ذلك، واصل هتلر دعم موسوليني ومساندته، وهذا أدّى في نهاية المطاف إلى دخول موسوليني في تحالف مع هتلر وهذا التحالف جعل موسوليني يصدر بيانًا عرقيًّا تجاه اليهود عام 1938، حيث قام موسوليني بتجريد اليهود من جنسيتهم الإيطالية، وإزاحة اليهود من الحكومة والتعليم والوظائف، وحظر الزواج المختلط، فكانت إيطاليا تسير على خطى ألمانيا النازية، وحتى

بداية الحرب العالمية الثانية، وبتحالف محور برلين وروما كانت إيطاليا قد احتلت"إثيوبيا" 1936 وحاربت مع نظام فرانكو القمعي في "إسبانيا" 1939- 1936 واحتلت "ألبانيا" 1939، واتسع التحالف ليشمل اليابان، هنجاريا، رومانيا، وبلغاريا بما يعرف بحلفاء المحور، واشتدت رابطة صداقة قوية بين هتلر وموسوليني.في 22 مايو 1939 دخل موسوليني فيما يسمى بميثاق "الصلب" أو "الحلف الفولاذي" مع هتلر والذي يربط البلدين في حالة الحرب، التي كانت قادمة بالفعل، وكانت إيطاليا في حاجة إلى أربعة أعوام حتى تستعد للدخول في الحرب، ولكن الحرب نشبت بعد ذلك بعامين ولم يكن موسوليني كثير القلق بخصوصها لأنه ظن أنها ستنتهي في عدة أشهر بانتصار ألمانيا.

وبفشل القوى الغربية في التحالف مع الاتحاد السوفييتي استغل هتلر الخلاف وأبرم معاهدة "عدم اعتداء" بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي مع ستالين في 23 أغسطس 1939، ثم غزا بولندا في 1 سبتمبر 1939 فلم يجد الإنجليز والفرنسيون بُدًّا من إعلان الحرب على ألمانيا.

في 10 يونيو 1940 بعد أن شهدت ألمانيا انتصارات حاسمة في بولندا وفرنسا في وقت لاحق، أصدر موسوليني إعلان الحرب على فرنسا وبريطانيا، وكان واضحًا منذ البداية، أنه لم يكن شريكًا مع هتلر، وهذا لم يرضِ موسوليني، وسرعان ما أصبح موسوليني محبطًا من كل النجاحات التي حققها هتلر ومن أنه أبقى معظم خطط الحرب

سرًا حتى على موسوليني، حتى بدأ موسوليني البحث عن وسيلة لمحاكاة إنجازات هتلر دون السماح لهتلر معرفة خططه، فأمر موسوليني بهجوم ضد البريطانيين في مصر في سبتمبر **1940** وبعد النجاحات الأولية، توقف الهجوم وأرسلت القوات الألمانية لتعزيز المواقف الإيطالية المتدهور، شعر موسوليني بالحرج من فشل جيوشه في مصر، فقام وضد نصيحة هتلر بمهاجمة اليونان في **28** أكتوبر **1940** وبعد ستة أسابيع، توقف هذا الهجوم أيضًا وهُزِم واضطر أن يطلب من الديكتاتور الألماني المساعدة، فما كان من ألمانيا إلا أن غزت يوغوسلافيا واليونان في **6** أبريل **1941** وهزم هتلر البلدين وأنقذ موسوليني من الهزيمة.

كانت الحرب عارًا على إيطاليا بعد انضمام موسوليني مع هتلر حيث فشل الإيطاليون في احتلال اليونان ثلاث مرات حتى جاء هتلر لنجدتهم، وفي ليبيا لم يكونوا بأحسن حال، حيث انهزموا أمام البريطانيين، وفي آخر الأمر وضع موسوليني جيشه تحت إمرة الألمان، وكانت حروب هتلر سيئة بالنسبة لإيطاليا، لكن موسوليني كان يتبع خُطاه في كل شيء، حتى عندما احتل هتلر روسيا أرسل موسوليني جنود إيطاليا إلى هناك. وبعدها بقليل كانت إيطاليا في حرب مع أمريكا.

إيطاليا تنقلب على موسوليني:

حين أعلن موسوليني الحرب على إنجلترا وفرنسا عام 1940 تأييدًا لحليفه هتلر لم يكن قد استشار المجلس الأعلى للحكومة الإيطالية والمكون من 28 عضوًا كعادته في حمل المجلس على الإذعان، لكن بحلول عام 1942 كانت إيطاليا على الهاوية، جيشها مهزوم وجائع ولديهم نقص في العتاد والسلاح، وكان هناك نقص في المؤن داخل إيطاليا نفسها، وغضب الشعب وتوجَّه ضد الحرب، ورأى أن موسوليني قد كذب عليهم حتى وصل الأمر أن بلادهم قد احتُلت من قبل الجيوش البريطانية والأميركية وأصبح موسوليني عدوَّ الشعب الأول.

فعلى الرغم من انتصارات ألمانيا النازية المذهلة في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، تحولت الظروف في نهاية المطاف ضد ألمانيا وإيطاليا وها هو عام 1943 وقد تعثرت ألمانيا في حربها مع روسيا، وبدأت قوات الحلفاء بقصف روما، وعليه فقد انقلب أعضاء المجلس الفاشي الإيطالي ضد موسوليني، واجتمعوا في قصر "فيتريا" مقر الحكومة الإيطالية، كان "دينو جراندي" أحد أعضاء المجلس قد قام بتوزيع جدول أعمال للجلسة، إذا تم إقرار ما فيه فإنه سيتم تجريد بينيتو موسوليني من جميع سلطاته.

كان أغلب من حول موسوليني قد حذروه في الشهور الماضية أن أعضاء المجلس سيدبرون مكيدة للتخلص منه، وقبل يوم واحد قدم له قائد الشرطة السرية ملفًا كاملًا حول اجتماعات سرية لهذا الغرض، وضعه جانبًا قائلًا:

"هؤلاء الرجال موجودون لأني أنا موجود، وهم يعيشون في ظل مجدي، يكفي أن ألقي خطابًا واحدًا فأحملهم على الخضوع".

كان هذا صحيحًا في الماضي. لكن الآن! ضاعت الأمجاد الأولى في فوضى الحرب العالمية الثانية، ومُنّي جيشه بهزيمة في شمال أفريقيا، وهَلَكَ القِسم الأكبر من قواته الجوية والبحرية، وقبل أسبوعين أنزل الحلفاء جنودهم بصقلية.

في الاجتماع الذي دام ثلاث ساعات اتهم جراندي موسوليني بخيانة الشعب الإيطالي حينما بدأ (جرمنة) إيطاليا. وأنه جرّ إيطاليا لحرب تتحدى كرامة الشعب اللإيطالي ومصالحه، وأن إيطاليا ضاعت عندما وضع شارة المارشال على قبعته.

كانت جرأة الرجل غير مسبوقة، ولكن الوضع كان أخطر من أن يُعجزه الخوف من الدوتشي.

بنهاية الجلسة كان جراندي قد حصل على توقيع تسعة عشر صوتـــــًا من مؤيدي مشروعه، وسبعة ضده وامتناع صوت واحد.

كان الملك الذي طالما سعى لإنقاذ سلالة "سافوي" التي دام ملكها لألف عام في صف موسوليني بأغلب الأوقات متذرعًا بنجاح موسوليني وحظه الدائمين، وهذا ما كان موسوليني مراهنًا عليه، لكن بعد قصف روما كان لا بد من اتخاذ قرار مختلف، وعليه فقد قرَّر الملك أن يقوم باستئناف سلطات موسوليني الدستورية.

أمر الملك باعتقاله، وتم هذا في قصر الملك، حيث اعترض النقيب "فينيري" طريق الدوتشي وأخبره أن الملك أمره بحماية شخصه، وهذا كان يعني إرساله إلى فندق مهجور بجبل "مونتي كورنو" أحد جبال "جران ساسو" حيث يقع منتجع للتزلج في أعلى الجبال بالقرب من قرية "اسيرجي" الإيطالية. وأُعْلِن في الإذاعة استقالة موسوليني وقبول الملك لها. خرج الإيطاليون للشوارع يعانقون بعضهم بعضًا. وتحولت مياه نهر التيبر الصفراء إلى سوداء، بعد أن علتها مئات القمصان السوداء التي تخلص منها الإيطاليون بعد عشرين عامًا من حكم موسوليني، فَجْرَ الإعلان عن استقالة موسوليني، أرسل هتلر ثلاث فرق ألمانية ارتدى أفرادها خوذات مكتوبًا عليها يحيا موسوليني، عبرت جبال الألب لإنقاذ الدوتشي.

كان هتلر يخشى من انسحاب إيطاليا من المحور واعتبر أن ملك إيطاليا قد انقلب على موسوليني وكان عليه التخطيط لانقلاب مضاد، وبالفعل تم إنقاذ موسوليني من السجن في 12 سبتمبر 1943

بمساعدة ألمانية، ونُقِل موسوليني إلى ميونيخ، والتقى مع هتلر بعد ذلك بوقت قصير وفي 16 سبتمبر وبأمر من هتلر تم تثبيت موسوليني رئيسًا للجمهورية الإيطالية الاشتراكية في شمال إيطاليا التي ظلت تحت السيطرة الألماني أو جمهورية "سالو" والتي قضى فيها موسوليني ما يقرب من 594 يومًا. يقال أن هتلر قال لأعوانه إن:

"الدوتشي ليس له مستقبل سياسي عظيم"

وفي اختبار لمدى قدرة موسوليني على المضي في الطريق كما يريد أمره بدم بارد بضرورة إعدام الكونت"جيلياتسو شيانو" زوج أيدا كبرى بناته، لأنه تنكر لموسوليني ولم يساعده بصفته عضوًا في المجلس الأعلى. وأذعن موسوليني لأمر هتلر، تم سجن شيانو وخمسة من أعضاء المجلس في سجن فيرونا ومحاكمتهم في يناير عام 1944، وقضت المحكمة بإعدام خمسة منهم أحدهم "شيانو"، وحبس الباقين بعد استئنافهم الحكم ثلاثين سنة.

يروى في هذا الأمر أن الدوتشي الذي التقى الأب "جوسيبي شيوت" كاهن سجن "فيرونا" والذي أمضى مع السجناء ليلة إعدامهم، أبلغ موسوليني بأنهم عفوا عنه، وسامحوه وأن "شيانو" أبلغ الكاهن: أن يخبر عائلته أنه سيموت دونما حقد على أحد.

بكى موسوليني وشهق عندما استمع لتلك العبارة، وأمسك بيد الكاهن قائلًا:

لقد غفروا لي، أليس كذلك! ثم طلب منه ألا يخبر أحدًا بما حدث بينهما.

لقد قال الكاهن لنفسه:

"إنه يبتسم كطفل، تمامًا كما فعل سجناء فيرونا في ساعاتهم الأخيرة".

موسوليني وكلارا بيتاتشي:

كلارا بيتاتشي، أو كلاريتا هي ابنة طبيب مرموق في حاضرة الفاتيكان، أحبت الدوتشي طوال حياتها حب العبادة، كانت تضع صوره تحت وسادتها، وحفظت خطاباته عن ظهر قلب، وأرسلت إليه القصائد، ودعته إلى عيد ميلادها الرابع عشر، وتم لقاؤهما الأول عام 1933 وهي بعمر الحادية والعشرين، تزوجت ملازمًا شابًّا عام 34، وانفصلت عنه بعد سنتين، غدت زياراتها لقصر فينيزيا حديث الألسن، ارتضت أن تكون واحدة من كثيرات ارتبط بهنّ ديكتاتور إيطاليا العتيد، بينيتو! لكنها ظلت تقترب منه، حتى تلاشت المسافات بينهما.

ربما هي امرأة حاول موسوليني،من خلالها، تعويضَ مشاعر الدونية والذُل الذي لاقاهما في صِغره. فها هي فاتنة ابنة رجل مرموق تُعجب به وهو ابن الحدّاد القروي الفقير، حسناء، خفيفة الظل والروح، وحلوة الحديث، الفتاة المناسبة التي عادت به إلى سنوات خلَت لم

يشعر بها من قبل. وأجادت كلارا في ضبط علاقتها به، كانت تظهر عند الحاجة وتختفي عند اللزوم حتى أصبح صدرها ذاك المسند الذي يحتاج إليه موسوليني، وقلبُها ذلك القلب الذي تجاوبت دقاته مع دقات قلب الزعيم العاشق.

إن رسائل كلارا وموسوليني تشي بأنه كان يستمدُّ منها وبوجودها الدعم المعنوي، وهذا ما حرق قلب زوجته "رايتشيل" التي لم تعلم بوجود كلارا إلا بعد اعتقال زوجها، وبعد لقاء عاصف بينهما في فيلا كلاريتا أخبرتها رايتشيل بنهايته:

"سيأخذونكِ أنتِ إلى سجن لوريتو".

كانت كلماتها بمنزلة النبوءة.

إن كلارا امرأة وضعت حُبَّها ووفاءها لحبيبها فوق كل اعتبار، كانت قد أعدت خطة لهروبهما والاختفاء في فالتيلينا حيث توجد غابة صنوبر يحيا بها رجل وزوجته في كوخ صغير كان الرجل قد أخبرها: "هذا المكان ممكن أن يقضي فيه المرء حياته دون أن يدري به أحد".

ولما تعثّر الهروب لأن المنطقة كانت تعج بالقوات الشيوعية وقتها، طلبت بزة عسكرية نسائية لتصاحب موسوليني إذا قرر خوض المعركة. وطلبت من المنشقين الذين خطفوهما في النهاية أن يقتلوها معه، وسبقته إلى حتفه حينما سيقت معه إلى مسرح الإعدام، مطوّقة بذراعيها عنق موسوليني، ممسكة بيدها نبتة خضراء لتخترق احدى الرصاصات الأربع قلبها لتسقط معه على الأرض، كما عاشت معه!

إعدام موسوليني:

في يوم 18 أبريل 1945، بينما الحلفاء على وشك دخول بولندا والروس يزحفون نحو برلين، غادر موسوليني مقر إقامته في "سالو" بعد أن دعته كلارا لمغادرة المقر رغم اعتراضات حُراسه الألمان والهروب في اتجاه مدينة "ميلانو" للقاء أساقفة المدينة وإقناعهم بالتوسط بينه وبين قوات الفدائيين وضمان رقبته. إلا أن قيادة الفدائيين التي كان يسيطر أصدرت أمرًا بإعدامه، بعدما سيطر عليهم أعضاء الحزب الشيوعي الإيطالي.

في أثناء هذا وردت أنباء سقوط ميلانو وقرر الدوتشي أن يخوض ما أسماه"معركة الشرف الكبرى والأخيرة"!

تغيرت وجهات موسوليني أكثر من مرة نظرًا لمجريات الأمور، في البداية هرب موسوليني وكلارا في مجموعة تضم موكبًا من السيارات تحتوي على الجنود الألمان من فرقة السلاح المضاد للطائرات إضافة إلى معاوني موسوليني الإيطاليين، كانت وجهته مدينة"مورانو" الإيطالية ليتمكن من دخول السفارة الألمانية هناك وكان يقود سيارته بنفسه من طراز ألفا روميو، ثم انتقل إلى إحدى السيارات المصفحة، وفي مدينة "ميناجيو" ثقبت العجلة الخلفية للسيارة بمسمار مثلث الرأس غرسه الفدائيون في الطريق.

في صباح 25 أبريل وصل موسوليني ومعه كلارا إلى مدينة "كومو" مسقط رأسها ليكتب فيها رسالته الأخيرة إلى زوجته يطلب منها الهرب إلى سويسرا، تبين له أنه كان واهمًا وأن أنصاره المخلصين لا يزيدون على عشرات الأشخاص انفضوا من حوله بسرعة عندما شاهدوه يهذي كالمجنون.

ووصل الخبر إلى قيادة الحزب الشيوعي الذين سارعوا بالتوجه إلى مدينة كومو للقبض عليه، ليتمكن مجدّدا من الفرار باختبائه في مؤخرة سيارة نقل متجها إلى الحدود مع سويسرا، ولكن السائق أوقف السيارة وأمرهم بالنزول تحت تهديد السلاح ببندقيته الخاصة، منتظرًا وصول أعضاء الحزب الشيوعي والقيادة الإيطالية التي قبضت عليه برفقة كلارا يوم 26 أبريل في"دونجو" في منطقة بحيرة كومو شمال البلاد فيما كانا يحاولان الفرار إلى سويسرا ليُساق إلى منزل ريفي بقرية صغيرة اسمها "جيولينو دي ميتسيجرا" ليمضيا هو وكلارا ليلتهما هناك.

في اليوم التالي 27 أبريل صدرت الأوامر من مجلس جبهة التحرير الشعبيه بإعدام موسوليني.

وفي نهار 28 أبريل 1945 وصل العقيد "فاليريو" إلى القرية، كان فاليريو الذي انضم سرًّا للجبهة واسمه الحقيقي "ولتر أديسـيو" شيوعيًّا في السادسة والثلاثين، وأحد ضحايا الفاشية، عَهِدَ إليه الفدائيون بإعدام موسوليني.

ذهب إلى المنزل الريفي الذي به موسوليني وأخبره بأنه جاء لينقذه وطلب منه مرافقته إلى المركبة التي كانت في الانتظار، وذهب به إلى فيلا "بيلمونتي" المجاورة حيث كان في انتظارهم فرقه من الجنود. كانت جبهة التحرير قد قبضت على أغلب معاونيه وحددت 15 شخصًا منهم لإعدامهم ومعهم موسوليني وكلارا.

"بأمر القيادة العليا للمتطوعين من أجل التحرير، أُوكِلَ إليّ إحقاق حق الشعب الإيطالي"

تلك كلمات أوديسيو

فك موسوليني أزرار سترته الخضراء القاتمة وقال لقاتله الشيوعي:

"أطلق الرصاص هنا على صدري".

وتقدمت كلارا محاولة التدخل فعاجلهما أوديسيو مطلقًا خمس رصاصات على موسوليني وأربعًا على كلارا. ولم يمت موسوليني إلا عندما تقدم أوديسيو نحوه مصوبًا رصاصة الرحمة إليه.

وتحت جنح الظلام وأمام ساحة سجن"لوريتو" مُدِّدت سبع جثث منها جثتا موسوليني وكلارا. في صباح اليوم التالي 29 أبريل 1945 جاءت الجماهير تسّبهما وتشتمهما وتبصق عليهما وترميهما بما في أيديهم، وفقدت الجماهير السيطرة على نفسها فأخذت بإطلاق النار على الجثتين وركلهما بالأرجل. دقت أجراس ميلانو من "سان بيبيل" إلى "سان أمبرجيو" معلنة موت الدوتشي واسترداد الحرية.

وفي القرى والمدن قُتل كثير من الفاشيست حيث وضُعت جثثهم في سيارات نقل الأثاث وتجوَّلت بهم في شوارع ميلانو. في وقت لاحق عُرِضت الجثث في ساحة عامة في ميلانو معلقة من الأرجل أمام محطة وقود. ودُفن موسوليني في البداية كمجهول في مقبرة موسوكو في ميلانو، وبعد ذلك سمحت الحكومة الإيطالية بإعادة دفن بقايا موسوليني في مقابر الأسرة بالقرب من "فيرانو دي كوستا" في 31 اغسطس 1957.

هل ما زال موسوليني بالنسبة لي هو نفس الشخص، ذو الملامح الإجرامية تبعًا لنظرية لومبروزو؟

أعتقد لا! ما رأيكم أنتم؟

***



أدولف هتلر

20 أبريل 1889 - 30 أبريل 1945



واعتراف آخر، مصاحب لسيرة هتلر، ولكنه لا يشبه اعترافي الأول كثيرًا، وإن تلاقى معه في نقطة، يتساوى حجمها مع النقطة التي أختتم بها الجملة:

"لا أستطيع أن أقول إنني أكره هتلر! ولا أستطيع أن أخفي إعجابي بنجاحه" -إعجاب مشوب بحذر وحيرة- طالما حيرتني شخصية هتلر للحدِّ الذي يجعلني أتوقف لأتساءل: كيف أحكمُ على هذا الرجل؟

لا جدال أنه كان طاغية، وأنه تسبَّب في إزهاق أرواح الملايين ممن يحملون لقب إنسان! لكن!

عند مقارنة هتلر بغيره من الطُّغاة تحديدًا ماو، ستالين نجد أن هتلر كان في الحقيقة أقل منهما نصيبًا في عدد الضحايا، بالطبع لا أقيس الأمر بعدد الضحايا، فالقتل قتل بأي حال من الأحوال. إنما أحاول معكم النظر للوجه المظلم من القمر.

لماذا نال هتلر ذاك القدر من الشهرة عند الحديث عن الطُّغاة؟

البعض يقول إن جرائم هتلر ارتُكِبت ضد الغرب، كون الضحايا من إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، وكون الحلفاء هم الذين انتصروا، ولأن التاريخ يكتبه المنتصرون، فليكن هتلر إذًا هو ذاك الطاغية السفاح المجنون الذي أزهق الأرواح، وليُضْرَب به المثل دائمًا! في حين أن ماوّ تسبب في قتل ما يقرب من 79 مليونًا من البشر وستالين قتل ما يقرب من 40 مليونًا بين تصفيات عرقية وعمليات عسكرية واغتيالات وغيرها.

وهتلر كما هو ثابت فيما رُوِيّ عنه وما ذكره بنفسه في كتابه الشهير "كفاحي" فإن وطنيته، واعتزازه بقوميته اللتين – تحولتا ولا شك لشوفينية بغيضة– هما أهم الأسباب التي جعلته يغير من أيديولوجياته، خاصة مع هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى التي عُدَّت الصدمة الموجعة والمفجعة لهتلر، فلم يكن ليظنّ قط أن ينهزم جيش ألمانيا، بالإضافة إلى عوامل أخرى كالاضطهاد العنصري الذي نال منه، وكانت ردة فعله بالتحول هو نفسه إلى عنصري سادي ينتقم من الجميع.

وبتتبع سيرة حياته سنجد:

استبداد الأب، وتدليل الأم والفقر والاضطهاد، وكذلك فشله في تحقيق أيٍّ من أحلامه سواء بتعلم الهندسة أو باحتراف الرسم.

فضلًا عن افتقاده للهوية، بين نمساوي وألماني. مجموعة من العوامل أدت بدورها إلى تراكمات نفسية متوالية ومتتالية انتهت به إلى ما آل إليه من حال.

شخصية محيرة ملأى بالتناقضات. سأبقى دائمًا حائرة تجاه أدولف هتلر، ستبقى نظرتي المجردة إليه أكثر حيرة، فهو عاشق الرسم ومحب الموسيقا، متعلق بالفنون، نال دروسًا في الموسيقا والغناء بكورال الكنيسة.

عاش أغلب حياته كشخص نباتيّ، وكانت أوامره صارمة للطهاة بعدم إضافة أي نوع من منتجات اللحوم في وجباته، فيما يؤكد بعض المؤرخين أنّ النظام الغذائي النباتي لأدولف هتلر يعود لخوفه من مرض السرطان الذي أودى بحياة والدته في وقت سابق، إلاّ أنّ البعض الآخر يعزو ذلك إلى حبّه للحيوانات، وكان هتلر بالفعل مُحبًّا للقطط والكلاب.

من المعروف عنه أنه أيضًا كان مُقلًّا في تناول الخمور، إلا النبيذ الأحمر الذي كان يضيف عليه السكر.

أزيدكم من الشعر بيتًا! بل أبياتًا!

لقد كان عاشقًا للشيكولاتة والحلويات بصورة مفرطة يستهلك كميات كبيرة منها يوميًّا ويحرص على تناول الشيكولاتة الساخنة مع القشدة على وجهها ويتناول الكثير من الكيك والحلوى.

يؤمن بالخرافات، ويعتقد أن رقم 7 ذو تأثير وقوة خاصة، كان حريصًا على أخذ النصائح من العرافين والمنجمين يظن أن شعار "النازية" الذي اتخذه كان به قوى سحرية. يعاني الأرق طوال الليل، يخشى من النوم في الظلام، يخشى من شفرات الحلاقة، يطلب من خادمه أن يتفحص السرير الخاص به قبل أن ينام عليه.

كان يعطي نصيبه في الإعانة التي تمنحها الحكومة للأيتام لشقيقته باولا، وفي عام 1909 عاش بمأوى للمشردين قبل أن يستقر في منزل يقطن فيه فقراء العمّال.

الرجل أمر بتوزيع دُمًى على هيئة فتيات لجنوده تعويضًا لغيابهم عن زوجاتهم لفترات طويلة، خاصة بعد أن أصيب الكثير منهم بمرض "الزُهري" بسبب ممارسة البغاء مع الفرنسيات. وتبنّى مشروعًا يقضي بمنح سيارة خاصة لكل مواطن ألماني، صمّم شبكة الطرق السريعة في ألمانيا والتي ما زال بعضها في الخدمة حتى الآن.

فلنحاول النظر إلى هتلر نظرة أخرى. من خلال تتبعنا لسيرة حياته منذ طفولته، وحتى أصبح الفوهرر هتلر بقراءة كتابه "كفاحي" "Mein Kampf"

مما كان لافتًا لانتباهي دائمًا هو اسم الكتاب!

ما الذي كان يراه هتلر في نفسه ليكتب كتابًا يسميه هكذا؟ ما الذي اعتبره هتلر من قُبَيّل الكفاح ليكتب عنه؟!

خاصة أنه في تلك الفترة لم يصبح بعد الزعيم هتلر بل كان مجرد عضو شابٍ بالحزب النازي شارك بمحاولة انقلاب ضد الحكومة في ميونيخ في مظاهرة صاخبة حطم مع أتباعه الحوانيت والواجهات فاعتقل وحُكم عليه بالسجن خمس سنوات قضى منها تسعة أشهر في السجن الذي وضع كتابه وهو بين جدرانه الصخرية الباردة.

فهل تلك النعرة من الاعتداد بالنفس حد الغرور والإحساس بالأفضلية فوق الجميع شعور راسخ داخل نفس ذاك الشاب الذي لم يكن قد صنع بعد شيئًا في الحياة نستطيع أن نصفه بأنه: يُعَدّ ضربًا من ضروب الكفاح التي يُقْتدَى بها، أو دربًا من دروب الإرشاد التي يُهْتدَى بها!

اللهم إلا كفاحه المرير للبقاء حيًّا. ربما!

من خلال كتابه نستطيع قراءة شخصية هذا المستبد الطاغية، إذ كان في طفولته نموذجًا لليُتم بعد وفاة والديه، وعاش كالحالم هاربًا من واقعه إلى دنيا الخيال متناسيًا الفقر والجوع والتسول والضياع، بيد أن الظروف شاءت أن تضعه على رأس حزب العمال الألماني، ليسحر الجماهير بخطبه الرنانة، وأفكاره ومناداته بالحفاظ على السلالة الألمانية الأصيلة، وتخليص الوطن من قيود معاهدة "فرساي" المُذّلة.

إن الأفكار السياسية التي طرحها لم تكن أفكاره المبتكرة، بل نشأت في قومه على عهده وقبل عهده بجيل أو جيلين، وشاعت بين

الشعوب الجرمانية وكان لها شأن في توجيه هذه الشعوب وجهتها الأخيرة ولم ترجع صيغة واحدة من الصيغ التي دارت على الألسنة وكان لها شأن في إذكاء النخوة القومية وإقناع السواد لهتلر نفسه، لكن!

هتلر كان بارعًا في الخطابة واستثارة مشاعر الجماهير. كان يدرس جيدًا كيف سيلقي كلماته؟ ومتى يرفع من صوته أو يخفضه؟ كيف سيحرك يديه؟ كان ببساطة يحسن ممارسة تقنية الكلام بطريقة صحيحة، إلى جانب اعتماده على إشارات يديه لتدعمه في التعبير والإلقاء، وكثيرًا ما كان يراقب انعكاس صورته على المرآة. لم يكن هتلر ليصل إلى هدفه لو أنه تكلم من خلال قلبه البائس، وهنا تكمن عبقريته وقدرته بالتنسيق مع المزاج والطبع الألماني والظروف الألمانية.

إن الكتاب الذي وصفه البعض بأنه كان مكتوبًا باللغة الألمانية الركيكة وأن أفكاره كانت مبعثرة وغير مرتبة فيها تناقض في بعض الأحيان يحوي فصولًا متعددة وكل فصل يتحدث عن موضوع معين هو خلاصة الفكر النازي.

كتابه صار كتابًا مقدسًا لدى النازيين، فمنه كانت تُقتبس عبارات وشعارات تُعلق في الأماكن العامة والخاصة مثل المدارس والبيوت يرددها الشعب، وكان يُدَرّس في حركات الشبيبة النازية خاصة فرق الصاعقة.

ودعا فيه إلى تقديس الحرب، القوة، فصل العائلة عن المجتمع، وتحدث كذلك عن التربية الألمانية الصحيحة وقيمها، وعن نظرية الدم الألماني النقي ووجّه انتقادات إلى الأنظمة الديمقراطية والشيوعية، وتحدث عن التعليم والثقافة، ودعا إلى توجيه التعليم من قِبل الدولة حسب عقيدتها ومفاهيمها.

بالكتاب يصف هتلر طفولته وحياته الأسرية الباكرة ثُم معاناته الفقرَ المدقع فِي فيينا، ويقصُّ هتلر حكاية صراعه في سبيل الوصول للفلسفة التي يؤمن بها أولًا ثم الكفاح في سبيل تحقيق ما يعتبره طموحات الشعب الألماني وصولًا إلى آرائه التي لم يغيرها قط بشأن القضية اليهودية.

في البداية علينا العودة إلى أمر مهمٍّ، مسألة نسب شخص مسألة مهمة بالنسبة للكثيرين وبالنسبة له فإن شجرة نسبه الخاصة خُلطت تمامًا وبقيت مصدرًا دائمًا للإحراج والقلق.

فأبوه "الويس" وُلدَ فِي **1837** وكان ابنًا غير شرعي لماريّا آنا شَيكلجروبير وصاحبها المجهول، لربما كان على الأرجح واحدًا من الأخوين "يوهان جورج هيدلر" أو "يوهان نيبوموك هيدلر" هو جدّ أدولف هتلر أو الذي من المُمكن أن يكون يهوديًّا، حيث إن ماريّا شَيكلجروبير كانت تعمل طباخة في عائلة يهودية غنية، وهناك تخمين أن ابنهم هو من تسبب في حملها لأنه كان يرسل لها مالًا بانتظام بعد ولادة الويس. أصدر هتلر في وقت لاحق يمنع عمل الألمانيات في بيوت اليهود.

عندما كان أبوه بعمر خمسة أعوام تقريبًا تزوجت ماريًا شَيكلجروبير بـ(يوهان جورج هيدلر)، دام الزواج خمس سنوات حتى توفيت ماريًا وذهب الويس للعيش في مزرعة صغيرة مع عمه وبعُمر ثلاثة عشر عامًا ذهب إلى فيينا وعاش هناك ليعمل صانع أحذية ثم سُجل لاحقًا بالخدمة المدنية النمساوية وعمل موظفًا حكوميًّا بالجمارك وأصبح مشرفًا برتبة المفتش المساعد الكبير.

وبعد سنوات من استعمال الويس لاسم أمه شيكلجروبير، استخدم أخيرًا اسم هيدلر وعندما تم تسجيل الاسم تمت تهجئته خطأ فكُتِبَ هتلر كان هذا في عام 1876 وكان الويس بعمر 39.

تخيلوا لو كان الألمان يحيونه "هيل شَيكلجروبير" بدلًا من "هيل هتلر"!

كانت قوات الحلفاء تتعمد إسقاط منشورات من الطائرات في أثناء الحرب لتذكّر الألمان بنسل عائلة هتلر الأصلي.

عام 1885 تزوج الويس "كلارا" والدة هتلر، وكان لديه طفلان من زيجتين سابقتين "الويس الابن وأنجيلا"، واستلزم زواجهما الحصول على تصريح خاص من البابا في الكنيسة، حيث خُشِي أن تربطهما علاقة نسب تمنع الزواج، كون الويس مجهول النسب نوعًا. أنجبت كلارا ولدين وفتاة ومات ثلاثتهم، وُلِد الطفل الرابع في 20 أبريل 1889 وهذا هو أدولف، كان بصحة جيدة، وكان والده وقتها بعمر 52 سنة.

أغدقت والدته عليه الكثير من الحدّب والحماية حيث كانت تخشى عليه أما أباه، فكان مشغولًا أغلب الوقت بعمله وبمزرعته، ثم وُلِدَ أخ لأدولف اسمه "إدموند" عام 1893 وأخت"بولا" عام 1896 وعاشت عائلة هتلر فِي مزرعة صغيرة خارج "ليتر"، وذهب أدولف هتلر للمدرسة العامة فِي قرية "فيستشلهام" قرب "ليتر" بالنمسا عام 1895 في هذا الوقت تقاعد والده من عمله، وهذا عنى بالنسبة لهتلر الكثير من الإشراف والانضباط الصارم.

كان والده قد اعتاد إعطاء الأوامر والطاعة بحكم عمله، وتعامَلَ مع أولاده من هذا المنطلق ولم يتحمل أخاهم الأكبر الويس الابن وهرب من المنزل بعمر 14 مما جعل أدولف موضع أخاه الذي تعامل معه الوالد بنفس الطريقة ثم غادرت العائلة للحياة في مزرعة في بلدة "لامباتش" بالنمسا وتقع في منتصف الطريق بين"ليتر" و"سالزبورج"، وكان أدولف يذهب لدير "بنيديكيتي كاثوليكي" القديم فِي البلدة مُزيّن بالأحجار المقطوعة والأعمال الخشبية، التحق هتلر بمدرسة الدير واشترك أيضا فِي جوقة "كورال" الأولاد حيث قيل إنه يمتلك صوتًا غنائيًا رفيعًا.

بدأ في إعداد نفسه ليكون قسيسًا ولعب دور الكاهن في منزله أحيانًا، وكان يقوم بإلقاء خطب طويلة، أما خارج المنزل فكانت لعبته المُفضّلة مستوحاة مَن حكايات الغرب الأمريكي بسبب قصص

الأطفال التي كتبها "كارل مايس" الذي اخترع بطلًا سُمّي "شاتيراند" أبيض يفوز بمعاركه مع الأمريكيين الأصليين، ويهزم أعداءه بقوة الإرادة والشجاعة المطلقة.

أدولف قرأ أكثر مِن 70 رواية من تلك الروايات، ويقال إنه في أثناء الهجوم الألماني على الاتحاد السوفييتي أشار إلى الروس أحيانًا كهنودٍ حمر، وأمر ضباطه بقراءة ما كتب مايس حول قتال الهنود. قال هتلر واصفا نفسه:

"إنه كان كرئيس عصابة صغير يهوى البقاء خارج المنزل، ومصاحبة الأولاد ذوي الصوت الأجش".

أما أخوه غير الشقيق الويس وصفه لاحقًا "بسريع الغضب المدلل من قِبل أمه المتساهلة".

في 1898 نزحت عائلة هتلر لمكان جديد قرية "ليوندنج"القريبة من"ليتز" استقروا في بيت صغير بحديقة حددت مكان بجانب مقبرة، وهذا ما جعل أدولف يذهب لمدرسة جديدة نجح في تحصيل الدرجات فيها بأقل مجهود.

اكتشف أيضًا موهبته بالرسم، فكان يُخطِّط البنايات خصوصًا حيث امتلك القدرة للنظر إلى بناية ليستظهر التفاصيل المعماري ويعيد إنتاجه بدقة على الورقة كليًّا من الذاكرة.

وَجَدَ في مجموعة كتب أبيه عدة كتب ذات طبيعة عسكرية ومنها كتاب يحتوي على صورة من الحرب بين الألمان والفرنسيين بين عامي 1870- 1871 أصبح هذا الكتاب هوسًا لديه وقرأه أكثر من مرة، قال عنه:

"هُو ما كان قبل فترة طويلة من الكفاح التاريخي العظيم كان قد أصبح خبرتِيَ الروحية الأعظم منذُ ذلِك الحين أصبحت أكثر تحمسًا حَول كُل شَيء ارتبط بالحرب".

بعد أن اندلعت الحرب البويرية فِي أفريقيا أخذ أدولف جانب البويريين ضد الإنجليز في لعبته التي كان يمارسها مع كل الأولاد الذين يتعرف إليهم.

تُوفي أخوه الصغير أدموند نتيجة الإصابة بالحصبة ودُفن بالمقبرة بجانب بيتهم كان يمكنه رؤيتها من نافذة غرفة نومه بعد سنوات ذكر جيران أدولف أنه كان يُرى أحيانًا فِي الليل مستندًا على حائط المقبرة محدقًا بالنجوم.

قاربت سنواته في المدرسة الابتدائية على الانتهاء وحان وقت دخول المدرسة الثانوية وكان عليه الاختيار ما بين مدرسة كلاسيكية أو تقنية، وهو كان يحلم بأن يصبح فنانًا؛ لذلك أراد الذهاب إلى المدرسة الكلاسيكية، لكن أباه أراده أن يصبح موظفًا حكوميًّا، لذلك أرسله إلى المدرسة العليا التقنية بمدينة "ليتز" في سبتمبر 1900.

حاول أدولف تحقيق النجاح وإرضاء أبيه المستبد، لكن أباه سَخِرَ تمامًا من فكرة أن يصبح رسامًا. ولأن هتلر كان الأكبر بين أقرانه مارس عليهم دور الزعامة كما اعتاد أن يفعل.

في تلك الفترة بدأت فكرة القومية تترسَّخ بذهنه كغيره من النمساويين بطول الحدود الذين اعتبروا أنفسهم نمساويين ألمان لقُرب النمسا من الحدود الألمانية بالرغم من كونها مملكة واقعة تحت الحكم الملكي وإمبراطوريته المتعددة الثقافات، والكثيرون منهم أبدوا الولاء إلى البيت الإمبراطوري الألماني وقيصره وتحديًا للحكم الملكي النمساوي، كان أدولف هتلر وأصدقاؤه الصغار يفضلون استعمال التحية الألمانية: "هيل"! ويغنون النشيد الوطني الألماني "ديوتش لاند ويبراليس" بدلًا من النشيد الإمبراطوري النمساوي.

مات أبوه وهو بعد في الثانية عشرة من عمره، وحاولت أمه في تلك الفترة أن تحثّه على الانتظام بالدراسة آملة أن يحقق ما تمناه والده له، ولكنه مع كثرة التجوال والبقاء خارج المترل أصابه مرض صدري، ألزمه الفراش لذلك أوصى الطبيب بعدم ذهابه للمدرسة وبعد سنوات قلائل وهو يقارب الثامنة عشرة من عمره تقريبًا تُوفيت أمه بدأت المرحلة الجديدة في حياته الانتقال إلى فيينا والتي كان زارها من قبل وللمرة الأولى وعمره 16 عامًا.

هنا لي وقفة وقبل الانتقال لشباب هتلر ورحيله إلى فيينا.

تربية هتلر من مولده إلى شبابه تربية صالحة لتفسير حياة رجل جامِع النزعات، متناقض الأحوال، لأنها لم تجرِ على استواء واحد بين تدليل الأم وصرامة الأب، وهي صرامة كانت تشتد وتعنف كلما لح من ابنه رغبة في احتراف الرسم والعيش معيشة يراها الأب فاسدة، وهو يعده لوظائف حكومية ويرشحه لمستقبل مستقر، كذلك فإن الفارق العمري بين أمه وأبيه كان كبيرًا، ولكنها على صغر سنها كانت متوعكة شاكية كما قال هتلر في كتابه، ولم تكن قوية العزيمة لأنها كانت تضعف عن تأديب ولدها والاشتداد عليه، كما قال أخوه الأكبر.

والذين عاشروه مجمعون على نزقه وسرعة بكائه وكثرة هياجه وتقلب أطواره وبقي هكذا حتى وفاته، فيقول روشننج رئيس مجلس الشيوخ: "إنه كان يتخبط ويتشنج ويستيقظ من نومه يصيح مذعورًا كأنما يهرب من أعداء".

بالإضافة إلى أن التنقلات العديدة، أثرّت بشكل سلبي على مستواه الدراسي، فرسب للمرة الأولى وهو بالصف السادس الابتدائي، يقول هتلر إنه كان يتعمد الفشل كنوع من التمرد حيال أبيه.

كما أن عدم الاستقرار في مكان في أثناء طفولته جعل من الصعب عليه تكوين صداقات مستقرة راسخة، فلم تعنِ له الروابط شيئًا، وبدا هتلر فقيرًا بالعلاقات الشخصية الإنسانية كعلاقات الصداقة والحب.

حتى الانتماء نفسه لم يكن لديه شيء منه لهذا لم أستغرب أن هتلر اهتم بالقومية على حساب الوطنية رغم أنه كان يحب النمسا لكن كجزء من الوطن الأم والأمة الألمانية وليس وطنًا مستقلًا.

يقول هتلر في احدى فقرات كتابه:

"فمنذ طفولتي لم يعنِ شَعور"الوطنية" أي شيء لي بينما عنت المشاعر"القومية" كُل شيء، وقد كانت دراسة التاريخ دَافعًا قويًا لخلق الحس القومي نظرًا لعدم وجود تاريخ نمساوي مستقل، بل إن مصير هَذه الدولة مرتبط بألمانيا لدرجة أن ظهور تاريخ نمساوي خاص يبدو مستحيلًا فتقسيم ألمانيا لموقعين في حد ذاته جُزء من التاريخ الألماني.

إن ضرورة توحيد الألمان والنمساويين كانت نتيجة حلم بقي في قلوب الجماهير بسبب تذكرها للتاريخ الذي كان بئرًا لا تنضب وخاصة في أوقات النسيان، سما التاريخ فوق الثراء المرحلي وهمس الماضي للشعب بأحلام المستقبل".

ويكتب عن دراسة التاريخ الذي أحبه هو والجغرافيا، والذي رآهما سببًا مباشرًا في تكون نزعته القومية فيقول:

"إن تعليم التاريخ فيما يُسمى المدارس الثانوية لا يزال حتى اليوم في حال يُرثَى لها والقلة من الأساتذة تفهم أن الهدف من دراسته ليس حفظ أرقام أو تواريخ كيوم معركة أو ساعة ميلاد زعيم أو حتى حين وصول ملك للسلطة، فمعرفة التاريخ تعني

معرفة القوى التي تسبب النتائج المُسماة أحداثًا تاريخية والمعرفة هي القدرة على تذكر الأساسي ونسيان كل ما هو غير ضروري".

حين انتقل إلى فيينا،تنقل بين أعمال مختلفة مثل دهّان، بائع جرائد، ولجأ أحيانًا إلى حمل الحجارة في العمارات وحمل أمتعة المسافرين في محطة القطار، واجتهد في جمع قُوت يومه بنسخ الصور ونقش تذاكر البريد فلم يظفر من كل هذا بطائل، فكان ينام في ملجأ البلدية في غرفة مفروشة، يأكل الخبز والحليب فقط، إلى جانب ما كان يحصل عليه أحيانًا من مطعم الفقراء في الكنيسة، مما أدى به إلى تدهور صحته وهزاله.

لقد كان بعالمٍ يأكل فيه القوي الضعيف، وببساطة فاستمراريتك تعني كفاحًا مريرًا.

ولما عجز عن كسب قوته أوى إلى بيوت الصدقة، ومَدَّ يده بالسؤال، وعاش في مأوى للمشردين عندما انقطع عن هتلر راتب الإعانة الضئيل عام 1911 ولم يلتزم بوظيفة أو عمل قط نزع إلى حياة الحرية دون قيد أو شرط كالفنان الحر الطليق، فكان يبيع رسومات للإعلانات والملصقات ويقوم بنسخ اللوحات المائية للأبنية وتقليدها ثم يبيعها كبطاقات بريدية، وعندما ساءت الأحوال اضطر للعمل عاملًا لجرف الثلوج، وكان ملاذه الأخير حين تدفعه الحاجة المادية عمته التي لم تتزوج وتقيم في "ليتز".

قيل إنه بشبابه عاشر مجموعة من شباب العالم السفلي وعرف المخدرات، وأُصيب بمرض جنسي مما جعله يرفض الزواج طيلة حياته عُرِف عنه عزوفه عن العلاقات النسائية إلا في آخر أيامه حيث تزوج "إيفا براون".

وكان قد حاول أن يلتحق بمدرسة الفنون في عاصمة النمسا فلم يقبله الأساتذة لأنهم ربما لم يلمحوا في صوره مسحة من ملكة الفنان المبدع، وقد كرر هذا مرتين، ورسب في كليهما مما أشعره بالصدمة، أخبروه هناك أنه غير مناسب للرسم، ونصحه أحد الأساتذة بالاتجاه للرسم المعماري، وهذا الأخير كان يستلزم إجادة المواد الدراسية التي لم يُجِدها قط كالرياضيات.

يرى البعض أن استسلام هتلر واستغراقه في السياسة، هو خير دلالة على أنه لم يكن مخلصًا لموهبته التي كان معتقدًا بها، فها هو يتجه للسياسة وهذا أمر لم يحدث قط في تاريخ فنان عظيم مفطور على الخلق والإبداع في عالم الفنون، وأنه لّما ردته مدرسة فيينا قنع بتقليد الرسومات والتخطيط، ولكن بدا له في هواجسه أنه على مثال "ميكال أنجلو" بنّاء ومثّال وليس بمقلد لوحات، فساوره من المرارة والضغينة ما يلحق بالغرير المصدوم، فامتلأت جوانحه بالسخط والإنكار.

وصف هتلر في كتابه زيارته للمتحف الفني Court Museum فقال:

"كان الهدف من رحلتي هو دراسة اللوحات الموجودة في صالة العرض في المتحف ولكنني نادرًا ما كنت التفت إلى أي شيء آخر سوى المتحف نفسه. فمنذ الصباح وحتى وقت متأخر من الليل، كنت أتنقل بين المعروضات التي تجذب انتباهي، ولكن كانت المباني دائمًا هي التي تستولي على كامل انتباهي".

وقال عن فشله في تحقيق حلمه بالالتحاق بأكاديمية الفنون أو دراسة الهندسة:

"في غضون أيام قلائل، أدركتُ في أعماقي أنني يجب أن أصبح يومًا مهندسًا معماريًّا، والحقيقة هي أن سلوكي هذا الطريق كان مسألة شاقة للغاية حيث إن إهمالي لإتمام دراستي في المدرسة الثانوية قد ألحق الضرر بي لأنه كان ضروريًّا إلى حد بعيد، وكان لا يمكن أن التحق بالمدرسة المعمارية التابعة للأكاديمية دون أن أكون قد التحقت قبلها بمدرسة البناء الخاصة بالدراسة الفنية والتي كان الالتحاق بها يستلزم الحصول على شهادة المدرسة الثانوية ولم أكن قد قمت بأي خطوة من تلك الخطوات، فبدا لي أن تحقيق حلمي في دنيا الفن مستحيل بالفعل".

وهكذا في فيينا فقد أدولف حلمي الفن والهندسة.

وفي فيينا تلقف الأفكار العنصرية واللاسامية والمعادية لليهود حيث كانت المدينة مركزًا للاسامية في أوروبا ومرتعًا لانتشار روح التحيز الديني التقليدية، وكذلك للعنصرية التي ظهرت في القرن التاسع عشر والحركات التي كانت تهدف إلى توحيد الشعوب التي تتحدث الألمانية في أوروبا.

صرح هتلر أن اعتقاده في وجوب معاداة السامية ظهر لأول مرة في فيينا التي كان تعيش فيها جالية يهودية كبيرة تشتمل على اليهود الأرثوذكس الذين فروا من المذابح المنظمة التي تعرضوا لها في روسيا وشكلوا جماعة راقية وكانت لهم مكانة عالية من الناحية الاقتصادية في مجتمع مدينة فيينا.

من الممكن أن يكون هتلر قد تأثر بكتابات "لانز فون ليبنفيلس"، واضع النظريات المعادي للسامية، وفريدريك نيتشة الفيلسوف الألماني الشهير وفلسفته عن الإنسان الأعلى، وأفكاره عن النقاء العرقي، أو رجال السياسة ك "كارل لويجر" مؤسس الحزب الاشتراكي المسيحي وعمدة فيينا والمؤلف الموسيقي "فاجنر" والذي كان كارهًا لليهود.

إن حركة معاداة السامية هي الحركة التي ظهرت في أوروبا في القرن التاسع عشر ويزعم هتلر في كتابه كفاحي أن تحوله عن فكرة معارضة معاداة السامية من منطلق ديني إلى تأييدها من منطلق عنصري جاء نتيجة احتكاكه باليهود الأرثوذكس رغم أنه كان غالبًا ما ينزل ضيفًا على العشاء في منزل أحد النبلاء اليهود بالإضافة إلى أن

بائع تحف فنية يهودي آمن بموهبته في الرسم، وتمكّن من بيع بعض لوحاته لزبائن يهود أغنياء عام 1911.

الحـرب العالميـة الأولـى

نزح هتلر أخيرًا إلى ميونيخ،وبهذا هرب من أداء الخدمة العسكرية في بلاده، وبعد قبض الشرطة الألمانية عليه وإعادته لبلاده رُفِض عند توقيع الكشف الطبي، لهزاله الشديد وضعفه.

عاد إلى ميونيخ ثم تطوَّع في الجيش البافاري وعمل ساعي بريد عسكري رغم خطورة المهنة، كان جنديًّا جيدًا حاول أعداؤه السياسيون إثبات جبنه وعدم أهليته لذلك المنصب، إلا أن السجلات كانت عكس ذلك كانت تدل على شجاعته وإخلاصه لأنه رجل يمتلك القضية والعقيدة بوقت واحد، ولن يعلو أحد على رجل يثق ويؤمن بقضيته في القتال، فمنذ صغره كان مولعًا بلعبة الجندي وأصبح حلمه حقيقة.

نظرًا لكونه من الطبقة الدُّنيا، بلهجة جنوب النمسا التي كانت واضحة على لسانه، مما انعكس على ثقافته وجعل من الصعب بالنسبة له الارتقاء إلى مستوى الجيش الألماني الأرستقراطي، ففي السنوات الأربع من الحرب العالمية الأولى نال رتبة عريف فقط، وقد نال هذا الترفيع نظرًا لشجاعته وتفانيه في سبيل الواجب،وقُلِّد الصليب المعدني مرتين، كما وصفه أحد الضباط بأنه لم يترك العناصر ترتاح قط وأضاف:

"إن هذا الشاب النمساوي كان حاضرًا دائمًا لخوض غمار أشد الأعمال قسوة".

وقُلد فيما بعد ستة أوسمة، وأصيب مرتين، إصابة بالفخذ، وإصابة بالعمى المؤقت بسبب غاز الخردل.

كـــوّن هتلر إحساسًا وطنيًّا تجاه ألمانيا رغم أصوله النمساوية، وصُعِقْ عندما استلم الجيش الألماني في الحـــرب لاعتقاده باستحالة هزيمته،وألقى باللائمة على الساسة المدنيين الماركسيين "مجرمي نوفمبر" في تكبد الهزيمة.

قبل أن أحدثكم عن انضمام هتلر للحزب النازي وما تلا ذلك من أحداث أعادت تشكيل الحياة في ألمانيا والعالم، وأبدلت موازين القوى العالمية، وظلّ من تأثيرها على الأمة الألمانية رغم انتحار هتلر ونهاية الحرب العالمية الثانية.

أرغب في عرض فقرات اخترتُها من كتابه كفاحي، ربما تتعرفون إلى الرجل أكثر.

يصف حياته في فيينا فيقول:

"ما جلبته من مال ما كفى حتى لإشباع الجوع اليومي، كان الجوع صديقًا لي آنذاك، وما تركني لحظة، بل شاركني في كل شيء كل كتاب اقتنيته وكل مسرحية شاهدتها جعلته أقرب إليّ، ومع ذلك درستُ خلال تلك الأيام أكثر من أي فترة أخرى

باستثناء زياراتي النادرة للأوبرا التي دفعت ثمنها جوعًا ما كان لديّ أي لذة سوى القراءة هكذا خلال تلك الفترة قرأت كثيرًا، وبعمق كل وقت الفراغ المتاح لي بعد العمل قضيته في القراءة، وبهذه الطريقة جمعت خلال بضعة أعوام المعارف التي تغنيني حتى الساعة.

خلال تلك الأعوام تكونت في ذهني صورة للعالم تُبقي القاعدة التي أستخدمها في كل قرار أتخذه وكل تصرف أقوم به وأنا اليوم مقتنع بأن كل سلوكياتنا تنبع من آراء تنتج في أثناء شبابنا، فحكمة النضوج تحوي الآراء الخلاقة التي ينتجها الفكر الشاب والتي لا يمكن تطويرها آنذاك مضافًا لها الحذر الذي يتعلمه الإنسان بالتجربة، وهذه العبقرية الشبابية ستكون الأداة الأساسية لخطط المستقبل التي سيمكن تحقيقها فقط لو لم تدمرها تمامًا حكمة النضج".

ويقول في فقرة أخرى:

"إن الجوع يقضي على أي ارادة تسعي للتنظيم الاقتصادي حين يتوافر المال، لأنه يضع أمام ضحيته المعذبة سراب الحياة السعيدة لدرجة أن الرغبات المريضة ستدمر أي قدرة على التحكم ساعة الوصول لأي موارد، وهكذا حين يصل الرجل للمال ينسى كل أفكار تتعلق بالنظام والترتيب ويعيش حياة البذخ ويسعى وراء اللذّات الآنية.

وقد شاهدتُ هذه الأوضاع مئات المرات وتقززت منها ثم فهمتُ حقيقة المأساة التي يعيشها هؤلاء الناس الذين باتوا ضحايا لظروف اجتماعية سيئة، وما كان أكثر بؤسًا هو أوضاع السكن السيئة.

أشعرُ بالغضب حتى هذه الساعة حين أتذكر الغرف الصغيرة والأكواخ الخشبية المحاطة بالقاذورات والأوساخ من كل جانب، وقد خشيتُ ذلك اليوم المرعب حين سيخرج هؤلاء العبيد من أقفاصهم للانتقام من قسوة البشرية عليهم".

وفي موضعٍ آخر:

"تجاربي المختلفة في فيينا علمتني أن المشاريع الخيرية غير مفيدة والمطلوب تدمير الفوضى الاقتصادية التي تؤدي إلى انحطاط الأفراد الخُلقي، بل إن عدم قدرتنا على استخدام الوحشية في الحرب ضد المجرمين الذين يهددون المجتمع سببها هو عدم تيقُّننا من براءتنا التامة من الأسباب النفسية والاجتماعية لهذه الظواهر، فشعورنا الجمعي بالذنب تجاه مآسي الانحطاط الأخلاقي يشّل قدرتنا على اتخاذ أقل الخطوات قسوة في الدفاع عن مجتمعاتنا.

فقط حين نتحرر من سُلطة عقدة الذنب هذه، سنقدر على الوصول للقوة والوحشية الضروريين لتدمير الأعشاب الضارّة والأفكار المارّقة. لا أعرف حتى الساعة ما أرعبني أكثر:

هل كان سوء الأوضاع الاقتصادية لمن عرفت؟ أم انحطاطه الخلقي؟ أم الضعف الفكري؟

لا بد من تحسين الأوضاع المعيشية ومِن أن يركز التعليم على قيم أساسية تتفشى في أذهان الناس عبر التكرار".

نعم! ما قرأتموه في السطور السابقة هي كلمات أدولف هتلر وأفكاره. أما بالنسبة لأفعاله فهذا شأن آخر.

انضمام هتلر إلى الحزب النازي

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، استمر هتلر في الجيش والذي اقتصر عمله على قمع الثورات الاشتراكية في ألمانيا، ولمقدرة هتلر الكلامية، فقد تم اختياره للقيام بعملية الخطابة بين الجنود ومحاولة استمالتهم لرأيه الداعي لبغض اليهود بعد الحرب، كان من معارضي معاهدة فرساي، ومال إلى الأفكار الاشتراكية والاجتماعية. عام 1919 أرسلته المخابرات الألمانية سرًّا لحضور اجتماع حركة صغيرة تُدعى "حزب العمل الألماني"وعند حضوره الاجتماع أُعجب بأفكارها القومية المتطرفة وفي مذكرة كتبها لرئيسه في الحزب قال: "يجب أن نقضي على الحقوق المتاحة لليهود بصورة قانونية مما سيؤدّي إلى إزالتهم من حولنا بلا رجعة".

وفي عام 1920 سُرِّح هتلر من الجيش وتفـرغ إلى الحـزب الذي تزعمه وغيّر اسمه إلى حزب: "العمال الألمان الاشتراكي الوطني" "Nazional Socialist Party" للجمع بين الوطنية والاشتراكية فطمس كلمة الاشتراكية وأظهر الوطنية باختيار أول أربعة أحرف منها كاسم للحزب ليصبح الحزب النازي NAZI وشعاره الصليب المعقوف وتبنّى التحية الرومانية بمّد الذراع إلى الأمام.

كان أسلوب هتلر في بناء خطة عمل الحزب جديدًا وأصيلًا بخلاف غيره من المتكلمين من الأبراج العاجية الذين كانوا يتحدثون عادة عن الوضع السياسي، فقد كان هتلر يضع نفسه واحدًا من الناس العاديين، ويتكلم بلسانهم ضد الأعداء بلسان ساخر لاذع وأسلوب حماسي ماكر، ثم يقوم بخلق جو سوداوي مملوء بالمرارة والإحساس بالإجحاف، مما يؤدي بالناس للشعور بالأسف، بالفخر، وأحيانًا بالذّل.

استطاع هتلر أن يؤكد في خطاباته على الإهانات واليأس وإضعاف المعنويات لدى الشعب وتلك هي تجربته الأولى في مجال العواطف، حيث امتلك القدرة للسيطرة على إحباطه الذاتي.

تجدر بي الإشارة إلى أن الوضع في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى قسم المجتمع إلى قسمين رئيسين:

– اليمين وشمل العسكريين والإقطاعين والقوميين النازيين وأصحاب رأس المال.

– اليسار وشمل الشيوعيين والقسم الأكبر من الطبقة العاملة.

الرايخ الثاني – جمهورية فايمر من **1919** إلى **1933**:

سُميت بذلك نسبة إلى دستورها الذي أُقِّر في مدينة فايمر الألمانية وكان نظامها ديمقراطيًا محضًا وأول رئيس لها هو المارشال "هانديينورج"، عانت هذه الجمهورية منذ نشأها مصاعب اقتصادية وسياسية كبيرة.

اليسار في دعايته قال إن الحل الصحيح لإخراج ألمانيا من أزمتها الاقتصادية هو توزيع الثروة توزيعًا عادلًا في البلاد أي تطبيق النظام الاشتراكي الماركسي وضرب الطبقة الرأسمالية، الحزب الشيوعي الألماني أصبح ثاني حزب في البلاد من حيث قوته في البرلمان الألماني "الرايخستاج".

أما اليمين وعلى رأسه أدولف هتلر فقد ركّز دعايته على أن النظام الاشتراكي الديموقراطي هو نظام ضعيف، فهو الذي وقع على استسلام ألمانيا واتفاقية فرساي المذلة ووافق على التنازل عن أراضي ألمانية ودفع تعويضات ضخمة لفرنسا وبلجيكا وخسارة كل المستعمرات الألمانية ونزعها من السلاح وإذلالها عند التوقيع بما أدّى

إلى رفع معدّل التضخم وشلّ الاقتصاد وجعل الدولة تصل إلى حافة الإفلاس.

انقلاب بير هول Hitlerputsch

عام 1923 حاولت قوات الحزب النازي الانقلاب على الحكومة.

كانت محاولة انقلابية فاشلة نفذها هتلر مع الحزب للاستيلاء على السلطة في بافاريا وألمانيا بدأت مساء 8 نوفمبر حتى ظهيرة يوم 9 نوفمبر.

كان أدولف هتلر قد قرر استخدام اسم الجنرال "إريش لودندورف" كواجهة في محاولة الانقلاب التي المحاولة باءت بالفشل الذريع وانتهت بسجن أدولف هتلر قائد الحزب آنذاك.

بعد خروج هتلر من السجن تم حصاره والتضييق على حزبه، خاصة مع تحسن الأوضاع الاقتصادية بما لم يمنحه الفرصة لتأليب الرأي العام، إلى أن عاد للساحة السياسية من جديد عام 1925. انشقت مجموعة من الحزب بقيادة "جريجور شتراسر" والذي كان عضوًا في الرايخستاج وأخيه "أوتو" و"جوزيف جوبلز"، لكن سرعان ما انهزمت تلك المجموعة المنشقة وانضم جوبلز لهتلر وبَقِيَ معه حتى النهاية.

مع تصاعُد الأزمة الاقتصادية الأمريكية عام 1929 وانهيار بورصة نيويورك الأمر الذي أثّر في التجارة بين ألمانيا والولايات المتحدة. هذه الأزمة أدت إلى زيادة عدد العاطلين عن العمل إلى 6 ملايين عامل قبيل صعود هتلر إلى الحكم بما منحه الفرصة لسلك القنوات الشرعية للمعارضة وخوض الانتخابات ضد هاندينرج.

الدعاية النازية ركزت على عدة نقاط وقالت:

"إنه إذا صَعَدَ النازيون إلى السلطة سوف يلغون معاهدة فرساي وسيعيدون بناء الجيش الألماني وتقوية الصناعة العسكرية وعمل مشاريع مهمة تستوعب أعدادًا هائلة من العاطلين عن العمل. والتخلص من اليهود البلاشفة، كما وعدوا باسترجاع كل الأراضي الألمانية المغتصبة ومستعمراتها ما وراء البحار".

في هذه الانتخابات حصل هتلر على نحو 130 مليون صوت، "ثلث الأصوات"، وهذا دليل على ارتفاع مكانته الشعبية، هو لم يفز بالرئاسة، ولم يستطع تشكيل حكومة نازية، لكنه أصبح أكبر زعيم له قاعدة شعبية في البلاد، وذلك بسبب الأزمة الاقتصادية الكبيرة، وفي هذا العهد ازدادت الصدامات بين النازيين والشيوعيين وشكل النازيون ميلشيات شبه عسكرية مُدرَّبة تدريبا شبه عسكري ترتدي قمصانـــًا غامقة اسمها فرق "S.A" أي "كتيبة العاصفة" بالألمانية وظيفتها الأساسية مواجهة الشيوعيين في الشوارع.

صعود هتلر إلى السلطة والعهد النازي من 1933 إلى 1945:

خشي اليمين من تعاظم قوة الشيوعيين الذين أخذوا يخططون لإجراء إضراب عمالي شامل في البلاد عام **1933** ضغطت الأوساط اليمينية على الرئيس هاندينبرج لتعيين هتلر مستشارًا لألمانيا لأنه الزعيم القادر على وقف عملية تحول ألمانيا إلى دولة شيوعية وهكذا تم تعين هتلر مستشارًا لألمانيا بتاريخ **30** يناير **1933**. وهذا التاريخ هو بداية الرايخ الثالث.

"أطلق هذا الاسم على أساس أن الحكم النازي بزعامة هتلر تجديد لعهد الإمبراطورية الألمانية الرايخ الأول– ألمانيا القيصرية **1871 -1918**".

هتلر قال إن العقيدة النازية تقوم على نظرية "الفولكية" من كلمة **Folk** بمعنى شعب، وأن الرايخ الثالث سيستمر في الحكم **1000** عام.

ملخص العقيدة أن الناس في العالم مقسمون إلى أعراق وغير متجانسين من حيث الصفات الخارجية والداخلية،مثل الوجه، الذكاء، التقدم العلمي والحضاري، وقد درجت النازية الناس إلى سلم أعراق ووضعت على رأس السلم الجنس الألماني الآري وفي أسفله الجنس السامي، وأنه في كل عصر يسيطر شعب على بقية الشعوب في العالم، فالرومان سيطروا في العصر القديم والآن جاء دور العنصر الآري،

هذا العنصر الذي يتفوق على سائر شعوب العالم من حيث الذكاء، القوة، الجمال، التقدم التكنولوجي، الصناعي، القوة العسكرية.

الرايخ الثالث في ظلّ النازية نظام شمولي يقوم على حكم حزب واحد وزعيم واحد وهو الفوهرر هتلر، ونادى النازيون بحكم مركزي اقتصادي حيث سيطرت الدولة على المشاريع الكبرى، ونظام مركزي سياسي، وانعدام الحريات لا في الصحافة ولا في التعبير، وأن تتدخل الدولة في برامج التعليم وتضع منهاجًا يقدس المفاهيم النازية ويؤلّهها.

اعتمد نظامًا يؤمن بمبدأ القوة في التعامل بين الشعوب وعلى أن السيطرة للأقوى، وأن القوي يحكم الضعيف، ويؤمن بالوحدة الألمانية، وبأن القوي يتوسع على حساب الضعيف، ويؤمن بالعداء للعناصر الضعيفة وخاصة اليهود ووضع معهم الزنوج والسلافيين والغجر.

العقيدة النازية أعلى من الدين، فهي محاولة خلق إنسان جديد بمفاهيم وصفات جديدة، ويبدو في صياغتها تأثر هتلر بفلسفة نيتشة تأثرًا عميقًا بما أرسى قواعد العقيد النازية وأطّرها.

وحسب هذه العقيدة يجب خلق عنصر ألماني يؤمن بالشجاعة لا يخاف ذكي، قوي وضخم.

"خلق جنس بشري جديد يحمل صفات جديدة كما فعل أجدادنا في خلق الخيول الهانوفيرية القوية الصلبة الضخمة".

النازية لا تؤمن بالمفاهيم المسيحية القائمة على التسامح والمحبة ومسامحة الغير والشفقة عليهم؛ لذلك اتخذوا الصليب المعقوف رمزًا لهم. العقيدة النازية تؤمن بحكم الزعيم المطلق غير محدود الصلاحيات غير مسئول عن أعماله أمام برلمان، ولا يعتمدُ حُكمه على الأكثرية، وقسَّمت الشعب إلى طبقات:

- الطبقة العليا وهم أصحاب رؤوس الأموال وهم الذين يحكمون البلاد.

- طبقة الأسياد هم الأذكياء في ألمانيا.

- طبقة الجيش وهم الطبقة الوسطى.

- طبقة الجماهير العاملة، الطبقة العامة، وهذه الطبقة لا تملك حتى حق إبداء الراي.

إنشاء الجامعة الألمانية، ويجب أن يكون كل الألمان تحت حكم ألماني موحدين تحت سلطة الزعيم، وجعل كل ألمان أوروبا تحت الحكم النازي؛ وذلك لخلق أمة ألمانية كبيرة صلبة كالفولاذ تعيش على أرض واحدة، تحت السيادة الألمانية، وأن هذه الأمة ستصبح سيدة أوروبا أولًا، ومن ثَمّ سيدة العالم كله فيما بعد، معنى هذا أنها يجب أن تستعيد كل ما فقدته من أراضٍ ومستعمرات سواء في أوروبا أو فيما وراء البحار.

النازية لا تؤمن بالشيوعية، بل تنبذها نبذًا تامًّا لأن الشيوعية عكس النازية تـؤمن بالسلام والمساواة، بأخوة الشعوب وبأن الصراع في العالم طبقي وليس قوميًّا.

لم يتبوّأ هتلر أعلى المراتب السياسية في ألمانيا بدعم شعبي عارم، لذلك عمل على كسب ودّ الشعبي الألماني من خلال وسائل الإعلام التي كانت تحت السيطرة المباشرة للحزب النازي الحاكم، فقد روّجت الأجهزة الإعلامية لهتلر أنه المنقذ لألمانيا من الكساد الاقتصادي والحركات الشيوعية إضافةً إلى الخطر اليهودي.

"هنا نرى تأثير البروباجندا الإعلامية بقيادة جوبلز في توجيه الشعب الألماني للقبول بسياسات هتلر وأفكاره".

وبتنامي الأصوات المعارضة لأفكار هتلر السياسية، عمد هتلر إلى التصفيات السياسية للأصوات التي تخالفه الرأي، وبموت رئيس الدولة "هايدينبيرج" في عـام 1934 دمج هتلر مهامّه السياسية مستشارًا لألمانيا ورئيسًا للدولة وتمت المصادقة عليه من برلمان الجمهورية.

نـدم اليهود أشد الندم لعدم مغادرتهم ألمانيا قبل 1935 عندما صدر قانون يحرم أي يهودي ألماني حق المواطنة الألمانية عوضًا عن فصلهم من أعمالهم الحكومية ومحالّهم التجارية، تحتم على كل يهودي ارتداء نجمة صفراء على ملابسه، غادر 180 ألف يهودي ألمانيا جرّاء هذه الإجراءات.

وشهدت فترة حكم الحزب النازي لألمانيا انتعاشًا اقتصاديًّا منقطع النظير، وانتعشت الصناعة الألمانية انتعاشًا لم يترك مواطنًا ألمانيا بلا عمل مما جعل شعبية هتلر ترتفع.

في مارس عام 1935 نقض هتلر معاهدة "فرساي" التـــي أنهت الحرب العالمية الأولى وعمل على إحياء التجنيد الإلزامي وأعاد احتلال المنطقة المنزوعة السلاح "أرض الراين" ولم تتحرك أي دولـــة تجاه انتهاكات هتلر، ولعل الحرب الأهلية الإسبانية كانت المحك للآلة الألمانية عندما قام هتلر بإرسال قوات ألمانية لإسبانيا لمناصرة فرانسيسكو فرانكو الثائر على الحكومة الإسبانية. وفي أكتوبر من عام 1936، تحالف هتلر مع الفاشي موسوليني الزعيم الإيطالي.

وفي 5 نوفمبر من عام 1937 عقد هتلر اجتماعا سريًّا مع مستشاريه بالرايخ وأفصح عن خطّته السرية لتوسيع رقعة الأمة الألمانية الجغرافية، عمل هتلر على تصعيد الأمور بصدد مقاطعة "ساديتلاند" التشيكية والتي كان أهلها ينطقون بالألمانية، وأذعن الإنجليز والفرنسيون لمطالبه لتجنب افتعال حرب، واستطاع هتلر أن يصل إلى العاصمة التشيكية "براج" 10 مارس 1939، وبعدها غزا بولندا، فأعلن الإنجليز والفرنسيون الحرب على ألمانيا.

في السنوات الأربع اللاحقة للغزو البولندي،كانت الآلة العسكرية الألمانية لا تُقهر، ففي أبريل 1940، غزت ألمانيا، الدنمارك والنرويج، وفي مايو من العام نفسه، هاجَمَ الألمان كل من هولندا، بلجيكا، لوكسمبورج، وفرنسا وانهارت الأخيرة في غضون 6 أسابيع. وفي أبريل 1941، غزا الألمان يوغسلافيا واليونان وفي الوقت نفسه، كانت القوات الألمانية في طريقها إلى شمال أفريقيا وتحديدًا مصر وفي تحوّل مفاجئ، اتجهت القوات الألمانية صوب الغرب وغزت روسيا واحتلت ثلث الأراضي الروسية، وبدأت تشكّل تهديدًا قويًا للعاصمة الروسية "موسكو"، وبتدني درجات الحرارة في فصل الشتاء توقفت القوات الألمانية من القيام بعمليات عسكرية في الأراضي الروسية ومعاودة العمليات العسكرية في فصل الصيف بموقعة "ستالينجراد"، وكانت أول هزيمة يتكبدّها الألمان. ويُعدُّ الغزو أكبر مقامرة قام بها هتلر فارقه الحظ فيها.

وقد قاتلت القوات المسلحة الألمانية حتى وصلت إلى مشارف موسكو، وكان النصر لا يزال ممكنًا أمام الألمان قبل حلول الشتاء البارد القارس في تاريخ روسيا، هذا الشتاء الذي بدأ يكشف التصدعات الخطيرة في الإستراتيجية الألمانية، كان رجال هتلر غير مستعدين لمواجهة البرد، تمامًا كما كان رجال نابليون، ولم تكن

التأمينات لجنوده متوفرة كما أن محركات الطائرات والدبابات والعربات قد تصدعت من شدة البرودة وحتى البنادق تجمدت وأصبحت بحاجة إلى شحوم خاصة للوقاية من البرد؛ لذلك توقف الألمان عن التقدم.

أمر القائد السوفييتي باتباع سياسة الأرض المحروقة، متوقعًا أن يصطدم الألمان بمثل هذا الوضع وتعني هذه السياسة "ألا تترك شيئًا يمكن للعدو الاستفادة منه".

سقط أكثر من مليون روسي في الأسابيع العشر الأولى من المعركة ونصف هذا العدد من الألمان وظهرت بوادر لنجاح هتلر في الحب أواخر عام 1941.

حكاية هتلر وإيفا براون

هي إيفا آنا براون حسناء شقراء ألمانية، صغيرة السِّنِّ مُشرقة الابتسامة، ولولا حرص هتلر على إبقاء علاقتهما سرية لتوجت رسميًا سيدةً أولى لألمانيا النازية. لم يعرفها الشعب الألماني ولم يعرفها العالم إلا بسقوط الرايخ الثالث زوجةً لهتلر، ولدت في 6 فبراير 1912، لأسرة متوسطة الحال بمدينة ميونيخ، والدها "فريدريش" كان يعمل مدرسًا وشارك في الحرب العالمية الأولى، أما والدتها "فرانشيسكا" فعملت خياطة لها شقيقتان "إليسا" أختها الكُبرى و"مارجريت" الأخت

الصُغرى. حظيت بفترة طفولة ومراهقة طبيعية فلم تُلقِ بالًا للأوضاع الاجتماعية أوالسياسية العاصفة بل اندفعت للمغريات التي سيطرت على أذهان المراهقات ما بين اللهو والتسوق ومشاهدة الأفلام وتكوين الصداقات لتوصف دائمًا بتلك المُتمردة المُندفعة، خاصة بعد تخلفها عن الدراسة في أحد المعاهد التابعة لدير كاثوليكي جنوب ألمانيا بعد أن أرسلها والداها لإكمال مشوارها التعليمي عام 1928 غير أن نمط حياة الأديرة لم يكن ملائمًا لشخصيتها.

بحلول عام 1929 بحثًا عن فرصة عمل وصلت براون والتي لم تكن تتخطى السابعة عشرة من العمر، لمتجر المُصور النازي الشهير "هاينريش هوفمان" لتعمل لديه فترة قبل أن يطرق بابه في أحد الأيام أهم زبائنه وأكثرهم نفوذًا، زعيم الحزب النازي الذي لم تتعرف إلى ملامحه المراهقة الشقراء ليتندر منها هوفمان ويعرفها بالسيد "وولف" أو أدولف هتلر، وهذا معنى اسمه بالألمانية أدولف "ذئب نبيل" كان عمره وقتها 40 عامًا استمرت علاقة هوفمان بـــ هتلر طويلًا بصفته مصوره الرسمي وأحد النازيين المُخلصين، غير أن صفة مُحددة لم تصبغ علاقة الزعيم النازي بالفاتنة الصغيرة التي أصبحت رفيقة لوجبات العشاء ومُستمعة جيدة لأحاديثه، في ذلك الوقت كان هتلر يعيش مع "جيلي روابال" وهي ابنة أخيه غير الشقيق، وإن ذكر البعض أنها رفيقته بالمسكن.

في أعقاب انتحار الفتاة **1931** زاد ارتباط هتلر بإيفا رغم أنه كان يطلق عليها لفظًا نمساويًا **Tschapperl** يصفها بالفتاة الصغيرة غير ذات الأهمية.

لاقت علاقتها به معارضة من الأسرة كلها بداية من الأب الذي رأى فيه متطرفًا، والأخت الكبرى التي رفضت خطاب الكراهية ضد اليهود بحلول عام **1932** بين انشغال هتلر عنها ومعارضة العائلة لعلاقتها به تعرضت إيفا لأزمة نفسية فحاولت الانتحار بمسدس والدها وربما للفت انتباه حبيبها وأكسبها ذلك ساعات أطول من وقته فحاولت الانتحار مرة أخرى بعدد من الحبوب المُنومة للتخلص من الحيرة والحزن والانتظار عام **1935** هذه المرة غيرت مجرى حياتها إلى الأبد، لتصبح سيدة القصر، وتعود مرة أخرى لجنوب ألمانيا جنبًا إلى جنب مع زعيم ألمانيا في أحد مقراته الرسمية، قصر برجهوف **Berghof** بالقرب من منطقة جبال أوبرسالزبيرج **Obersalzberg** في عام **1936** وبعد فترة من تخصيصه شقة خاصة بها في ميونيخ قرَّر حجبها عن الأنظار تمامًا في قصر خاص، تحت مُسمى "سكرتيرة خاصة" ليبعدها عن الشائعات ومحيط السياسة.

وبين السباحة ومشاهدة الأفلام الأمريكية، وانتظار زياراته أمضت أوقاتها في القصر، بصفته سرية غير مُحددة تربطها برجل يوشك على قلب العالم رأس على عقب، بأحداث دامية لم تغير ما حملت الشابة

التي لم تكن تبلغ من العمر آنذاك 24 عامًا الكثير من عاطفة تجاهه، فوالدها صار عضوًا في الحزب النازي أما الأخت الصغرى فأصبحت ضيفة شبه دائمة في مقر معيشة شقيقتها، ويبدو أن إيفا التي لم تهتم بالسياسة لم تهتم بأفعال حبيبها والتي اعتبر معها البعض أن موافقتها الضمنية على قوارته وسياساته أمرًا لا يقبل الشك. اختارت إيفا الموت جواره كما اختارت سابقًا العيش، وتجرعت سيانيد البوتاسيوم ولفظت أنفاسها الأخيرة معه في سردابه السري وهي زوجته حيث تزوجا ليلة الانتحار، وبعد ستة عشر عامًا من لقائهما الأول حيث وقعت على وثيقة الزواج إيفا هتلر، بعد أن كادت تنسى وتوقع براون ثم شطبت حرف الــ ب.

وبخبرة اكتسبتها بالعمل مع هوفمان، وكاميرا لتصوير الفيديو لتسجيل اللحظات السعيدة وثقّت إيفا دون أن تدري أحد أكثر الجوانب خصوصية في شخصية الزعيم الألماني الغامضة في أثناء تناوله الطعام، مطالعته للأوراق، جلوسه في الاجتماعات لعبه مع الأطفال من أبناء الأصدقاء، دون أن تعلم أن اللحظات التي سجلتها بالكاميرا ستتحول حين اكتشفها صانع الأفلام الألماني **Lutz Becker** في قبو تابع لإدارة الأرشيف والوثائق الوطنية الأمريكية في ولاية "ميريلاند" عام **1972** بحسب جريدة "الجارديان" البريطانية إلى المُستند الوحيد الذي يوثق للحياة الخاصة والشخصية لــ هتلر وزعماء ألمانيا النازية.

بـدايـة النهـايـة

إن الانتصارات الخاطفة التي حصدها هتلر في بداية الحرب العالمية الثانية وبالتحديد، الفترة الممتدة من **1939** إلـــى **1942** جعلت منه رجل الاستراتيجية الأوحد في ألمانيا وأصابته بداء الغرور وعدم تقبّل الأخبار السّيئة وان كانت صحيحة، فخسارة ألمانيا في معركتي ستالينجراد والعلمين وتردّي الأوضاع الاقتصادية الألمانية وإعلانه الحرب على الولايات المتحدة في **11** ديسمبر **1941** وضعت النقاط على الحروف، ولم تترك مجالًا للشك من بداية النهاية لألمانيا هتلر، فمجابهة أعظم إمبراطورية "الإمبراطورية البريطانية" وأكبر أمّة "الاتحاد السوفييتي" وأضخم آلة صناعية واقتصادية "الولايات المتحدة" لا شك تأتي من قرار فردي لا يعبأ بلغة العقل والخرائط السياسية.

فـــي عام **1943** تمت الإطاحة بحليف هتلر موسوليني واشتدت شراسة الروس في تحرير أراضيهم المغتصبة وراهن هتلر على بقاء أوروبا الغربية في قبضته، ولم يعبأ بالتقدم الروسي الشرقي وتمكّن الحلفاء من الوصول للشواطئ الشمالية الفرنسية وبحلـــول ديسمبر تمكنوا من الوصول لنهر الراين وإخلاء الأراضي الروسية من آخر جندي ألماني.

بعد قيام الحلفاء بشن غزو على فرنسا في يونيومن عام 1944 قرر كثيرون من الجنرالات المعارضين لهتلر أن الوقت قد حان للتخلص من هذا الزعيم، فزرعوا قنبلة موقوتة في قاعة المؤتمرات في مركز قيادة هتلر، فقتلت العديد من الحاضرين، ولكنها لم تحقق الهدف الذي زُرعت من أجله، وهو اغتيال هتلر، فخرج هتلر من تحت الأنقاض وقميصه ممزق وقلبه يحترق للأخذ بالثأر، وتم إعدام كل من اشترك بتلك المؤامرة، ومن بعد تلك الحادثة أصبح يحيا في ملجأ مُحصَّن ضدّ القنابل.

عناد هتلر أطال من أمد الحرب لرغبته في خوضها لأخر جندي ألماني، في نزاعه الأخير رفض هتلر لغة العقل وإصرار معاونيه على الفرار إلى بافاريا أو النمسا وأصرَّ على الموت بالعاصمة برلين.

في 19 مارس 1945 أمر هتلر أن تُدمَّر المصانع والمنشآت العسكرية وخطوط المواصلات، الاتصالات وتم تعيين "هينريك هيملــــر" مستشارًا لألمانيا في وصيته، كما قام بإغراق أنفاق مدينة برلين حيث كان يختبأ المدنيون لاعتبارهم خونة لعدم وقوفهم في وجه العدو الروسي على أبواب برلين.

انتحار أدولف هتلر

بقدوم القوات الروسية على بوابة برلين، أقدم هتلر على الانتحار وانتحرت معه عشيقته التي تزوجها بالليلة التي تسبق انتحارهما.

في حديث أجرى معه عام 2005 كان عامل الاتصالات الهاتفية السابق "روشوس ميش" ما زال يذكر تلك اللحظة قبل ما يقرب من ستين عامًا تحديدًا 30 أبريل 1945 حين فُتِح باب الغرفة حيث كان أدولف هتلر انتحر للتو مع زوجته إيفا "ميش" الذي توفي عام 2013 عن عمر يناهز 96 عامًا كان ضمن المجموعة التي بقيت مع هتلر وشاهده أفرادها ميتًا في الموقع المحصن تحت الأرض وسط برلين المهدمة قبيل سقوطها أمام الجيش الأحمر.

يقول ميش الذي كان في الثامنة والعشرين آنذاك:

"كان هتلر جالسًا في مقعد وقد انهار على الطاولة فيما كانت إيفا براون ممددة إلى جانبه. رأيته بأم عيني"

" كنا نتوقع ذلك، الأمر لم يحصل من باب المصادفة، كنا نستعد للنهاية".

"الغرفة حيث كنت أعمل كانت في الطرف المقابل للمدخل المؤدي الى جناح هتلر. ومع اقتراب القوات الروسية على مسافة بضع مئات الأمتار من الموقع المحصن ودّع هتلر في الممر الموظفين

العاملين في خدمته وطلب ألا يدخل عليه أحد، وأعطى تعليمات إلى سكرتيره وذراعه اليمنى مارتن بورمان الذي وقف في اليوم السابق شاهدًا على زواجه بإحراق جثته حتى لا تلقى مصير حليفه بينيتو موسوليني الذي أُعْدِم وبقيت جثته معروضة على الحشود في ساحة عامة".

ذكر ميش أن هتلر وإيفا دخلا بعد ذلك لى شقتهما وأغلقا الباب، ومضى الوقت ربما ساعة أو ساعتان.

"لم أسمع الطلقة النارية بنفسي لأنني كنت أعمل على أجهزة الهاتف، لكنني سمعت أحدًا ما يصيح مناديا هاينز لينجي خادم هتلر الشخصي: لينجي، لينجي، أظنُّ أن الأمر وقع.

انتظروا بعد ذلك عشرين دقيقة، ثم دفعوا الباب وألقيت نظرة، كان الرجل الذي أغرق أوروبا في أعنف نزاع في تاريخها، منهارًا فوق طاولة وفي رأسه رصاصة، فيما إيفا براون ممددة أرضًا جثة هامدة".

وبحسب المؤرخين، فإن هتلر أعطى سُمًا لزوجته قبل أن يطلق رصاصة في رأسه، ثم أحرقت الجثتان في فناء الموقع المحصن فيما أدى المقرَّبون التحية النازية، ويذكر عامل الهاتف أن القادة أرادوا جميعا إجلاء هتلر جوًا، لكنه رفض مؤكدًا عزمه على البقاء في برلين، موضحًا أن هتلر ظلّ يتوقع حتى النهاية أن يخرج البريطانيون عن تحالفهم مع روسيا الشيوعية.

ربما كان هتلر- بلا شك- أكثر من ذلك الجنون الذي تصوره الصحف! ويتحدث عنه أعداؤه، لقد كان حتى الخامسة والعشرين من عمره خاملًا، لا يتمتع بأى إحساس بالنجاح أو الطموح، راضيًا بالعيش وسط القاذورات والأوحال، ولم يكن يعمل إلا عندما يكون مضطرًّا إلى ذلك، وإن عمل فيكون ذلك بشكل عفويّ متقطع حيث كان يقضى معظم وقته في أحلامه الرومانسية بأن يصير فنانًا عظيمًا وبرغم كل ذلك فإنه وإن بدا عديم الأهمية والكفاءة في الظاهر استطاع في بضع سنوات أن يشق طريقة إلى أعلى المناصب السياسية، وأن يزيح من طريقه زعماء القوى السياسية الكبرى المخضرمين.

لقد حاولت في عرضي لسيرة حياة هتلر اقتحام عالمه والاقتراب من شخصيته للوقوف على الأسباب الخفية الحقيقية التى اعتملت في داخله وبدّت واضحة في سلوكه، تصرفاته، قراراته، وشكلّت الجانب المستتر من شخصية هذا الرجل الذي حيّر العالم. اقتربت من عالم هتلر المبدع.

ربما بحسٍّ الإنسان أستطيع أن أقول من خلال اطّلاعي على رسوماته أنه كان يبحث عن شيء مفقود! شيء مثالي حالم ومنمق لدرجة الكمال، فرسوماته التي لم تعجب الأساتذة في أكاديمية الفنون تنطق بهذا.

ستجدون نماذج من لوحات هتلر رسمها في مطلع شبابه والتي بيع منها الكثير بمبالغ طائلة في مزادات كبرى وكلها تحمل توقيعه، منها مزاد فني أقيم بمدينة لوس أنجلوس أشرفت عليه مؤسسة "نايت د. ساندرس" وكانت بداية العروض على إحدى لوحاته 30 ألف دولار، ومزاد آخر بدار "مولوكس" للمزادات العلنية في "شروبشير" غرب إنجلترا كانت أسعار اللوحات في الغالب تتجاوز توقعات دور المزادات لها فمثلًا بيعت له 21 لوحة من قبل بمبلغ 118 ألف جنيه إسترليني، وبيعت لوحة ذاتية له مُوقّعة بأحرف اسمه الأولى بمبلغ 11260 يورو.

أما اللوحات فأغلبها نموذج مثالي لمدينة منمقة نظيفة مبانيها ذات طرز معمارية مميزة، تكتنفها مساحات من اللون الأخضر تمنحها إحساسًا بالحياة.

أتدرون شيئًا!

هتلر كان مخلصًا لعقيدته بالفعل، حتى وإن كانت خاطئة!

لكنه كان موقنًا بما يؤمن به، رغم تناقضاته في التطبيق وتناقضاته من خلال تعاملاته مع اليهود تحديدًا، والتي اتضحت من خلال علاقته ببائع التحف الذي كان يبيع له لوحاته، لفت انتباهي ما ذَكَرَه هتلر في كتابه عن القراءة والأفكار التي تكوَّنت بمرحلة الشباب، ربما قراءاته تلك مع صراعه الباطني كوّن والده مجهول النسب احتمالية يهوديته قائمة، وربما رغبته في الانتماء للأمة الألمانية العريقة، كلها عوامل تضافرت لتصنع هذا الطاغية الذي ما زال يحيّرني.



نماذج من أعمال

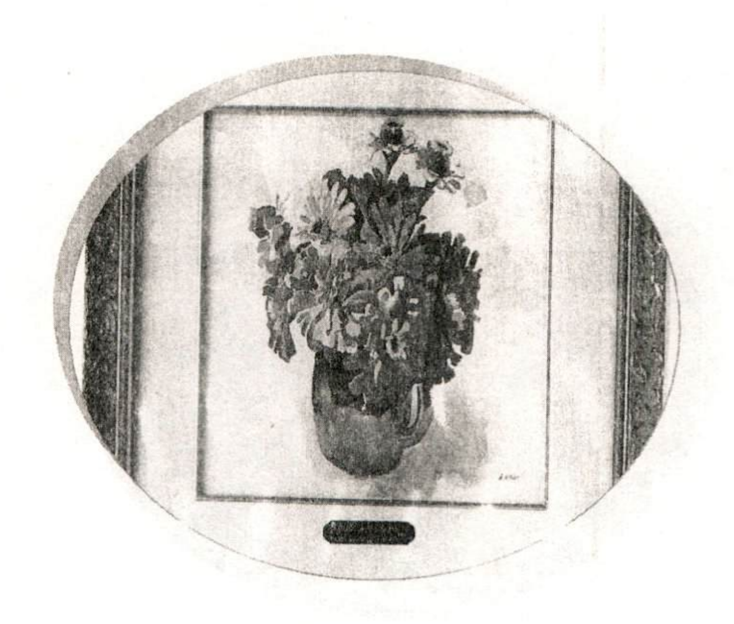
هتلر الفنية

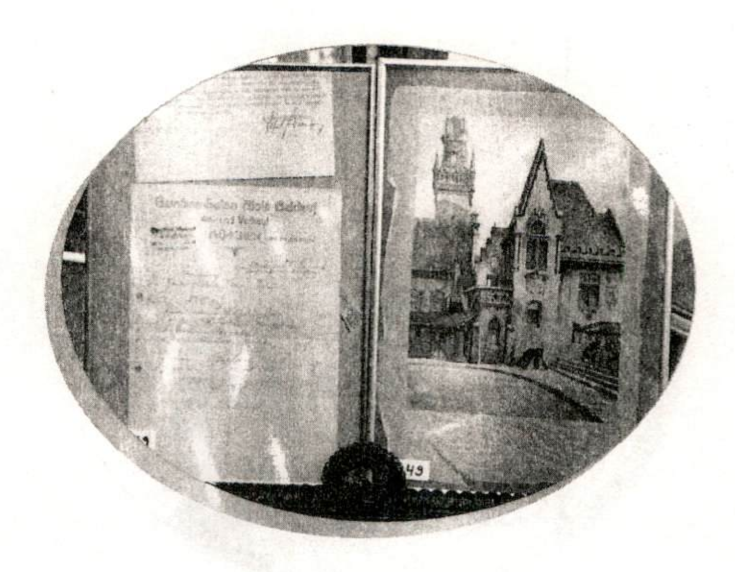


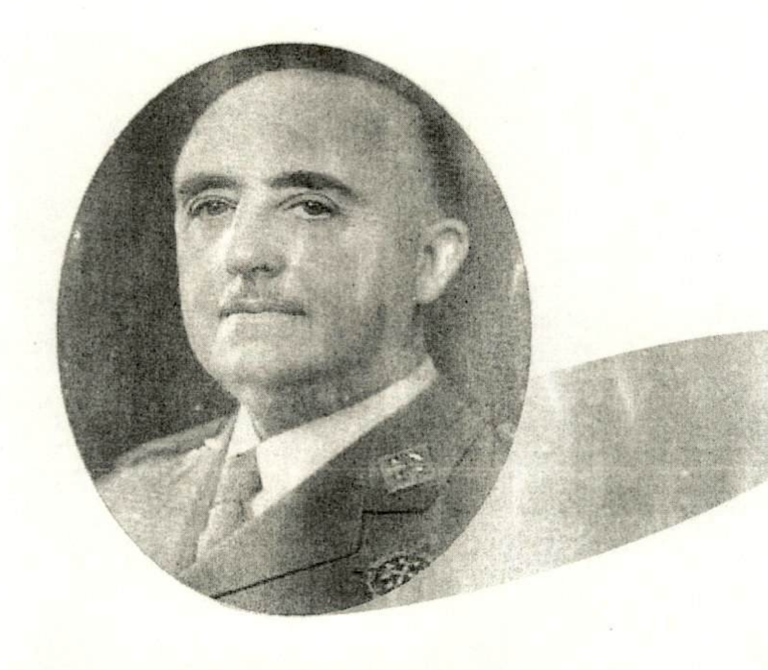






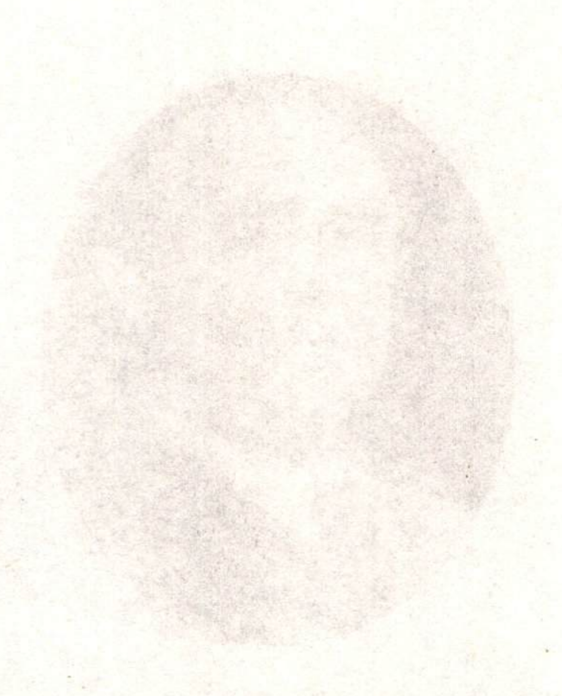






فرانسيسكو فرانكو

26 ديسمبر 1893 - 20 نوفمبر 1975



الجنرال فرانكو حاكم إسبانيا الطاغية، عاشق البحر والذي لم تمخر سفينتي يومًا عباب بحور المعرفة كي ألتقيه، بل عرفته كما يُعْرَف الليل بالنهار، والأسود بالأبيض.

مقال عن "خوان كارلوس" ملك إسبانيا والذي حكم البلاد بعد أن قضى فرانكو نحبه في عام 75 جعلني أتعرف قليلًا إلى فرانسيسكو فرانكو.

المقال نُشرَ عام 79 بواحد من إصدارات الريدرز دايجست، التي كانت أحد كنوزي المعرفية الثمينة وما زالت. أوضح المقال كيف نجح الملك الشاب في غضون أربع سنوات في التحول ببلاده إلى ديمقراطية لم تعرفها طوال ست وثلاثين عامًا هي فترة حكم فرانكو.

ونزوعًا إلى معرفة الضّد بالضّد، سأشارككم أولا بعضًا مما قام به كارلوس.

كان السخط العام قد ارتفع باطّراد في البلاد التي عاشت ترزخ تحت وطأة حكم فرانكو المستبد، يخشون من قيام العناصر المتطرفة بين العسكريين بانقلاب لمنع أي مسيرة نحو الديمقراطية، لم يحدث في تاريخ إسبانيا حتى ذلك الحين ما يبعث على تشجيع من يترعون للإصلاح. شهدت البلاد خلال السنوات المئة قبل حقبة فرانكو 109 حكومات متعاقبة و26 ثورة وثلاثة حروب أهلية.

فكرة إعادة النظام الملكي نفسها كانت مغامرة كبرى فالملك الجديد لم يبعث في النفوس أي قدر من الثقة وليس معروفًا اتجاهاته نحو الديمقراطية، فهو المولود في المنفى بروما عام 38، حيث كان والداه يعيشان هناك خلال معظم أيام الحرب الأهلية العنيفة.

فقد تمردت قوات فرانكو اليمنية على الحكومة الجمهورية التي أرغمت جد خوان كارلوس على التنازل عن العرش، وقُتِلَ آنذاك ما يزيد على نصف مليون عسكري ومدني، وبعد انتهاء الحرب حرص فرانكو المنتقم على عدم قيام أي مصالحة وطنية، بل عمل على إبقاء إسبانيا منقسمة إلى فئتين: الغالبين والمغلوبين.

كان "ألفونسو الثالث عشر" قد عيَّن أحد أبنائه "دون خوان" والد خوان كارلوس وريثًا على عرشه، وكان فرانكو مقتنعًا بتحرّر الرجل بالقدر الذي يجعل البلاد ديمقراطية، وهو كان يقول دائمًا: "إن إسبانيا ليست مستعدة للديمقراطية".

لذلك قرر استحضار خوان كارلوس الذي شعر أنه سيكون أسهل قيادًا من والده، وجاء الفتى إلى بلاده وهو بالعاشرة من عمره للمرة الأولى.

أجاد الأمير المتمكن من أربع لغات إنهاء دراسته في الأكاديمية العسكرية، وحصل على المركز الثالث بها، وقضى عامًا في الأكاديميتين البحرية والجوية، وتخرج برتبة ضابط، ليتزوج بالأميرة اليونانية "صوفيا" ملكته المقبلة.

في خضم السنوات التالية، تصرف فرانكو حيال الملك ببرود، حيث أبقاه مقيد الحركة لحد الإهانة، كانا يظهرا معًا في العروض العسكرية، وكان على خوان أن يقف للوراء قليلًا ولم تكن له مهمات محددة، كما عليه أن يحجم عن إبداء الانتقاد. في تلك السنوات شهدت البلاد طفرة سياحية وثورة اقتصادية هائلة.

كان هناك نوع من الاستقرار السياسي الذي فرضه فرانكو على البلاد بينما على الجانب الآخر احتفظ فرانكو بسجون إسبانيا مكتظة بالمعتقلين السياسيين، وكانت الصحافة مكبوتة وحرية التجمع محظورة والأحزاب السياسية محرمة.

لم يكن في إسبانيا سوى حركة وطنية تديرها الحكومة، ولا توجد نقابات عمالية حقيقية، ومحتمًا على جميع العمال وأصحاب العمل الانتماء إلى هيئات تديرها الحكومة، أما "الكورتيز" فلم يكن سوى مجلس نواب صوريًا.

الجميع كان يرغب بالديمقراطية، ما بين خصوم فرانكو من الجمهوريين، وأفراد من الطبقة المتوسطة، وعدد من المؤسسات والكنيسة الكاثوليكية نفسها، وكان رد فرانكو الدائم"التجاهل التام" لكنه كان على قناعة أن كارلوس سيحكم البلاد بصورة مختلفة، وإن لم يدرك تمامًا كيفية إدارته لها.

هذا ما كان فالملك الجديد فاجأ الجميع، بإصلاحات عميقة إنما مدروسة وعلى هدوء، لم يتحرك سريعًا حتى لا يثير أتباع فرانكو فيسعون للاستيلاء على السلطة، فبدأ في تجريدهم من أسلحتهم وتفكيك مؤسسات فرانكو تدريجيًا من الداخل.

شرع الكورتيز بإيعاز من الملك بإصدار سلسلة من الإصلاحات الديمقراطية، قيل للإسبان إن بإمكانهم عقد الاجتماعات السياسية دون خوف من الاعتقال، وسُمِح للأحزاب ما عدا الحزب الشيوعي بالعمل على نحو مشروع بعد شهور ثمانية، قام كارلوس بتغيير رئيس الحكومة برئيس جديد هو "أدولفو سواريز".

سواريز كان مسئولًا عن الحركة الوطنية أيام فرانكو، ولكنه بسنوات عمره الثلاث والأربعين شكّل حكومة من معتدلين سياسيين معظمهم بالعقد الرابع من العمر ليصبح هناك جيل جديد يتقلد زمام الأمور في إسبانيا.

وتحررت الصحافة من القيود، وأُعْلِن عن عفو عام عن المعتقلين السياسيين، وحُلّت الشرطة السياسية، ورُخِصّت النقابات العمالية، وسُنّ قانون جديد لضرائب الدخل.

وكان التغيير القوي هو تصويت الكورتيز على حل نفسه، وعمل استفتاء للشعب هل يرغبون بكورتيز جديد، وكانت النتيجة **95%** نعم.

لقد كانت النتيجة بمنزلة تنديد شديد ضد نظام فرانكو.

ودخل الجميع الانتخابات حتى الشيوعيون منحهم كارلوس الفرصة للظهور علانية على الساحة للتنافس مع الأحزاب الأخرى، ذاك التنافس أظهرهم كحزب هامشي لم يحقق الكثير من الأصوات.

"كانت إسبانيا مستعدة دائمًا للديمقراطية"

أما أتباع فرانكو من العسكريين فقد نجح كارلوس في إبقائهم ضمن حدود ثكناتهم فنتيجة لدراسته العسكرية كان يعرف الكثيرين من الضباط الشباب، لم يطرد أيًّا من كبار الضباط المتعصبين، لكنه بهدوء عكف على ترفيع ضباط شبان يؤيدون الديمقراطية.

حتى إقليم الباسك الذين جردهم فرانكو من تمتعهم بالحكم الذاتي عقابًا على وقوفهم لجانب الجمهوريين في الحرب الأهلية ومنع تدريس لغتهم في المدارس أو النطق بها في وسائل الإعلام، أعاد لهم الكورتيز بدعم من الملك الحكم الذاتي وأتاح لهم حرية استعمال لغتهم.

واستمر كارلوس في سعيه لتخليص إسبانيا من جراح عميقة خلّفها حكم فرانكو.

لا أنكر دهشة تملكتني عندما فكرت في الأمر برُمته، لقد قام خوان كارلوس بتحقيق كل ما كان يمنعه فرانكو! هل علم فرانكو في قرارة نفسه، أن هذا ربما سيحدث، عندما قال لكارلوس:

أنت لن تدير البلاد كما أدرتها أنا.

ربما! وربما بقي على قناعته أن كارلوس سهل الانقياد.

وإن كنتُ أظنُّ أن لا! لقد أدرك هذا بلحظة ما، أدرك أن كل ما رسخ له وعمل على تقوية دعائمه سيتغير يومًا.

لقد بَقِيَ فرانكو في الحكم حتى وافته المنية بعمر الثانية والثمانين، أظنُّ أن هذا العمر تبلغ حكمة الإنسان فيه حدًّا يفوق أوهامه وغروره وطغيانه، وقتها حتى وإن شعر برياح التغيير القادمة التي ترتعش لها أوصاله فإنه لن يُكلّف نفسه عبء إغلاق الأبواب والنوافذ أمامها، بل سيستسلم لها!

بعضهم يفعل، وربما كان فرانكو أحدهم.

الطاغية الديكتاتور!أم الصياد! أم الرسام عاشق البحر! أم جميعها؟

تعالوا نبحر معًا عبر سيرة حياة هذا الرجل، ولأن جانبًا كبيرًا من سيرة فرانكو يرتبط ارتباطا قويًّا بالمغرب بحكم العلاقات الجغرافية

والتاريخية التي طالما ربطت بين هذين البلدين، وكذلك العلاقات الإنسانية أو علاقات تبادل المصلحة أو العداء في أسوأ الحالات، لذلك لن يكون هناك ربّان أفضل من الصديق الكاتب يوسف أزروال ليقود سفينتنا في تلك الرحلة التي سأشارككم إياها، مسافرة، وبعدها سأعود ثانية بتحليل أخير عن فرانكو بين الطغيان والإبداع.

"مع ملاحظة أن المكتوب بالنمط المغربي من أسماء الشهور والأفعال موضح بين قوسين بالعربية".

***

سيرة حياة فرانكو
بين الطغيان والإبداع

بقلم يوسف أزروال

قاد فرانسيسكو فرانكو انقلابًا ناجحًا على الجمهورية الديمقراطية الإسبانية في الحرب الأهلية 1936–1939 لينشئ نظامًا ديكتاتوريًّا دمويًّا والذي دام عقودًا.

بدأ حياته عسكريًّا ليرتقي في المراتب حتى منتصف 1930 عندما بدأت البنية الاقتصادية والاجتماعية في التهاوي، انضمَّ فرانكو للمد اليميني المتنامي ذي النيات الانقلابية، لاحقًا قاد انقلابًا ضد الحكومة اليسارية الجمهورية واستولى على حكم إسبانيا، لتشتعل الحرب الأهلية الإسبانية (1936–1939) ليحكم بعد ذلك إسبانيا بالحديد والنار، ما نتج عنه حبس عشرات الآلاف وإعدامهم خلال الأعوام الأولى لنظامه.توفي فرانكو في 20 نونبر (نوفمبر) 1975 لتعود إسبانيا بعده لسكة الديمقراطية.

الإرث العسكري

ولد فرانسيسكو فرانكو في الرابع من شهر دجنبر (ديسمبر)سنة 1892 في بلدة "الفيرول" بإسبانيا،بقطاع "جليقة" وهي مدينة ساحلية معروفة بتاريخها الطويل في بناء السفن.

رجال عائلة فرانكو كانوا دائمًا ما يخدمون في البحرية لأجيال عديدة، كان يتوقع من فرانكو الشاب أن يتتبع خطواقم، لكن العواقب الاقتصادية والسياسية للحرب الإسبانية الأمريكية دفعت البلاد لتخفيض قواها البحرية، فبعد أن أتم فرانكو دراسته الابتدائية في المدرسة الكاثوليكية، كان فرانكو مرغمًا على التجنيد في أكاديمية سلاح المشاة بطليطلة، تخرج بعد ثلاث سنوات بمعدل نقاط تحت المتوسط.

صعود عنيف

بعد تعيينه في بلدة "الفيرول"،تطوع فرانكو في المستعمرة الإسبانية الجديدة بالمغرب، حيث كان السكان المحليون يقاومون لطرد المحتل من ديارهم.

تمركز هناك من سنة 1912 إلى سنة 1926 تميَّز فرانكو عن غيره بالجسارة والاحترافية وانعدام الرحمة، حيث كان يتم ترقيته بشكل مستمر. بحلول عام 1920 تم تعينه كنائب للقائد الإسباني للفيلق الأجنبي، وبعد ثلاث سنوات تولى قيادة الفيلق.

خلال هذه الفترة تزوج "كارمن بولواي مارتينيز فالديز"، ليرزق الزوجان بابنة أسمياها "ماريّا كارمن".

في عام 1925 مكّن دور فرانكو في قمع الثوار المغاربة من أن يكسب منصب جنرال، في سن الثالثة والثلاثين، والذي جعله أصغر رجل في أوروبا يتولى ذلك المنصب، بعد عامين تم تعيينه كذلك مدير للأكاديمية العسكرية العامة في سرقسطة المنصب الذي سيستمر فيه لثلاث سنوات فقط بسبب التغيرات السياسية التي وضعت لصعود فرانكو المستمر حدًّا.

الاضطراب الضخم وتغير القوى

في أبريل 1931، أجريت انتخابات عامة أدت بالإطاحة بالملك ألفونسو الثالث عشر، الذي أقام ديكتاتورية عسكرية منذ أواخر 1920، الحكومة المعتدلة للجمهورية الثانية بادرت بالتخفيف من قوة الجيش، مما أدى إلى إقفال أكاديمية فرانكو العسكرية. لكن البلد في هذه الفترة ضربته أزمة اجتماعية وسياسية عنيفة هزت استقراره، وعندما تم إجراء الانتخابات الجديدة سنة 1933 تم استبدال الجمهورية الثانية بحكومة يمينية متطرفة، ليعود فرانكو لمركز القوة، ليستثمرها في العام الموالي لتدمير ثورة اليساريين في شمال غرب إسبانيا.

وكما الجمهورية الثانية من قبلها، الحكومة الجديدة لم تستطع أن تقرب وجهات النظر بين اليمينيين واليساريين، عندما تمت الانتخابات في فبراير 1936 تحولت موازين القوى إلى اليسار، لتنقسم إسبانيا على نفسها في فوضى عارمة.

في هذه الفترة كان فرانكو من جديد على الهامش، حيث كان منفيًّا "بجزر الكناري"، لكن رغم ذلك لم يتخلَّ عن احترافيته، ليتوصل بعد ذلك برسائل من أعضاء الجيش فحواها نقاش حول خطة للانقلاب.

الحرب الأهلية الإسبانية

رغم أنه ظل فترةً طويلة بعيدًا عن المشهد السياسي، في 18 يوليوز (يوليو)، 1936 أعلن فرانكو عن عصيان قومي في الإذاعة من جزر الكناري تزامنًا مع الاضطرابات التي بدأت في شمال غرب إسبانيا، في اليوم التالي ارتحل إلى المغرب ليتحكم في القبائل هناك، وبعد ذلك بزمن قليل كسب تأييد ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية، التي ساندت فرانكو وقواته للترحال نحو إسبانيا بطائراتها وبعد أن ثبت قاعدة عملياته في "إشبيلية" في الشهر الموالي، بدأ فرانكو حملته العسكرية متجهًا شمالًا نحو "مدريد" حيث مقر الحكومة الجمهورية.

بفوز سهل مرتقب، وفي الفاتح من أكتوبر 1936، أعلنت القوات القومية تعيين فرانكو قائدًا للحكومة ورئيس لأركان القوات

المسلحة، لكن عندما فشل هجومهم الأول على مدريد بمقاومة الجمهوريين، دخل الانقلاب العسكري في الصراع الطويل المسمى بالحرب الأهلية الإسبانية.

خلال الثلاث سنوات اللاحقة، القوات القومية (تحت قيادة فرانكو المدعومة بمليشيات اليمين المتطرف، الكنيسة الكاثوليكية وإيطاليا وألمانيا) قاتلت اليسار الجمهوري، الذي كان مدعومًا من الاتحاد السوفييتي وألوية أجنبية متطوعة. رغم أن الجمهوريين استطاعوا أن يقاوموا المد القومي فترةً، لكن تفوق قوات فرانكو العسكرية استطاعت أن تهزمهم بشكل منهجي متخلصين من مقاومتهم جهة بعد أخرى، ومع نهاية سنة 1937 احتل فرانكو كل من بلاد "الباسك" و"أشتورياس" وقام بتجميع الأحزاب الفاشية والملكية لتشكيل حزبه "الفلانخا" التقليدي الإسباني مع حلّ بقية الأحزاب.

في يناير 1939 سقطت "برشلونة" حصن الجمهوريين، في يد القوميين بعد مدريد بشهرين، في الفاتح من أبريل 1939 بعد حصوله على استسلام غير مشروط من الجمهوريين أعلن فرانسيسكو فرانكو نهاية الحرب الأهلية الإسبانية.

تبايَنت التقارير بخصوص المصابين في الحرب لتصل إلى حَدٍّ أقصاه نصف مليون مصاب، مع احتمال سقوط مائتي ألف قتيل نتيجة الإعدامات التي قام بها فرانكو وقواته.

الزعيم El Caudillo

لما يقارب الأربعة عقود بعد الحرب فرانكو– الذي أصبح معروفًا بلقب القائد– سيقود إسبانيا بدكتاتورية قمعية، بعد الحرب مباشرة أقيمت الكثير من المحاكم العسكرية التي أدت إلى المزيد من الإعدامات وسَجْنِ الكثيرين.

كما قام فرانكو بمنع أي ديانة بخلاف "الكاثوليكية"، ومنع اللغتين "الكتلانية" و"الباسكية" ولكي يحكم قبضته على إسبانيا قام بنشر شبكة من الشرطة السرية في ربوع البلاد.

بعد قيام الحرب العالمية الثانية، بخمسة أشهر بعد تولي فرانكو الحكم، تعقّد وضع إسبانيا في المنظومة الدولية، رغم إعلان إسبانيا الحياد، إلا أن فرانكو كان متعاطفًا مع دول المحور وظهر ذلك من خلال لقائه بأدولف هتلر للتشاور بخصوص انضمام إسبانيا لهم رغم أن هتلر رفض شروط فرانكو–التي وجدها مغالية جدًا.

إلا أن فرانكو كان سيساهم في حرب دول المحور ب **50000** متطوعًا في حرب ألمانيا ضد الاتحاد السوفييتي على الجهة الشرقية كما فتح موانئ إسبانيا للسفن والغواصات الألمانية.

عندما تغيرت مجريات الحرب ضد دول المحور في سنة **1943** أعلن فرانكو مجددًا حياد إسبانيا.لكن من عواقب صراعه السابق أنه لم تُنسَ

تحالفاته السابقة، وبذلك، تمت معاقبة إسبانيا من طرف الأمم المتحدة، واضعة عقوبات اقتصادية مختلفة على البلد، وتغيرت الظروف باندلاع الحرب الباردة، فرفض فرانكو القوي للشيوعية أدّى إلى تقديم مساعدات اقتصادية وعسكرية من طرف الولايات المتحدة في مقابل إنشاء قاعدة عسكرية في إسبانيا.

السنوات الأخيرة والوفاة

مع مرور الوقت، بدأت قبضة فرانكو على إسبانيا بالاسترخاء، ملغيًا بعض القوانين الرقابة، مطبقًا لإصلاحات اقتصادية ومروجًا للسياحة العالمية مع الاحتفاظ بمركزه قائدًا للدولة.

في عام **1969** وسط مرحلة من التدهور الصحي، قام بتسمية خليفته الأمير خوان كارلوس، الذي كان يعتقد أنه سيحتفظ بالبنيان السياسي الذي تركه ليحكم ملكًا لكن، بعد يومين من وفاة فرانكو في **20** من نونبر **1975** قام خوان كارلوس الأول بتفكيك كل الأجهزة القمعية ثم أعاد الأحزاب السياسية في عام**1977** تم القيام بأول انتخابات حرة منذ **1936** لتبقى إسبانيا ديموقراطية منذ ذلك الحين.

وادي السقوط

تم دفن فرانسيسكو فرانكو في ضريح كبير بوادي السقوط والذي بُني من طرف الديكتاتور نفسه –باستخدام عمال السخرة – كمَعْلَمٍ لوفاة الحرب الأهلية الإسبانية.

بعد سنوات حكم فرانكو، أصبح هذا الضريح موضوعًا لجدل مستمر، مع اقتراح الكثيرين التخلص منه، لكن وسط البيئة السياسة المنقسمة لإسبانيا ما بعد فرانكو، يضّل (يظّل) وضع الضريح غير متغير. برغم أن الكثير من الإسبان اختار عدم النظر لفترة حكم فرانكو، فإن آخرين اختاروا أن ينبشوا في تلك الفترة ويدفعوا لاستخراج الجثث للقبور الجماعية، مع دعوات الأمم المتحدة للقيام بتحقيق بخصوص مكان المفقودين في الحرب كذلك.

كما حاول علماء الآثار لبعض الوقت تحديد مكان أشلاء الشاعر والمسرحي الشهير"فريديريك جارسيا لوركا" الذي تم إعدامه من طرف قوات المتطرفين اليمنين الغرناطيين عام 1936.

فرانكو والفن التشكيلي

إحدى هوايات الديكتاتور فرانكو السرية وبعض اللوحات التي رسمها خرجت للنور بصدور كتاب من تأليف حفيده من بينها 15 بورتريه شخصي، حيث رسم نفسه وهو يرتدي لباسه العسكري

ممسكًا بمنظار بعض اللوحات لابنته كارمن وأخرى تصور مشاهد للصيد والإبحار النشاطين المفضلين لفرانكو اللوحة الزيتية الأخيرة المنسوبة للرجل الذي حكم إسبانيا منذ الحرب الأهلية عام 1939 إلى وفاته بعد 36 سنة هي عبارة عن قارب ملاحة يغرق في موجات عاصفة بحرية.

"كان دائمًا ما يقفل عليه مكتبه بعد وجبة العشاء لينهمك في الرسم".

يقول حفيده الأكبر الذي اسمه أيضًا فرانسيسكو فرانكو.

كما يقول: "كان رسامًا عظيمًا لوحاته لم تكن تحفًا فنية، لكنها أظهرت جودة وواقعية في الرسم التي تتعذّر على معظم الهواة". أوضح فرانكو الحفيد أن جده حُفِّزَ على الرسم من طرف طبيبه الشخصي وصديقه فينسينت جيل كوسيلة للاسترخاء من ضغط الحكم.

الكتاب يظهر جانبًا رقيقًا للديكتاتور الذي أحدث الفتنة في إسبانيا بانقلابه العسكري وأشعل نار الحرب الأهلية لثلاث سنوات، والذي حكم إسبانيا بقبضة من حديد لما يقارب الأربعة عقود.

بعنوان "رقة فرانكو: عندما كان جدي إنساناً" فرانكو الحفيد يشرح بأنه أراد أن:

"يتحدى الصورة النمطية" التي تحيط بالكوديو (الزعيم)

"أريد أن أمنح صورة دقيقة عنه عندما كان غائبًا عن عين العامة، عندما كان يستمتع بهواياته أو عندما كان يقضي وقته مع عائلته، لقد كان جدًّا مراعيًا ومحبًّا، كان رفيقي في الصيد والقنص، معلمي وصديقي" ..يقول فرانكو الحفيد!

يصف الحفيد الأوقات التي كان يقضيها مع جده في الصيد أو القنص، فيحكي له جده قصة عن أيام شبابه مستهلا دائمًا بجملة: "عندما كنت إنسانًا..."

فرانكو لم يكن الديكتاتور الوحيد من القرن العشرين الذي أظهر جانبًا فنيًّا، أدولف هتلر كان يرسم وكما أنه حاول مرتين الانضمام لأكاديمية الفنون الجميلة بفيينا لكنه رُفض في كليهما.

***

بعد أن شاركتكم قراءة سيرة حياة فرانكو كما أعدها وكتبها يوسف، أشارككم انطباعاتيّ عن فرانكو. أتفقُ مع حفيده في رؤيته له، نعم! هي كلمات الحفيد، وهي رؤيته الخاصة للجد، ولكن!

ثقوا أن انطباعات الأطفال تحمل بعض الرؤى الأعمق من أن تلاحظها العين العادية هم يرون بقلوبهم يلمحون بقعة النور الضئيلة التي تختفي وسط مساحات شاسعة مروعة من الظلام.

في متابعتي لسيرة حياة فرانكو توقفت أمام شيئين، أولهما علاقاته الإنسانية وطبيعته العسكرية المترادفتان. فهو في النهاية ربّ أسرة وزوج مخلص وأب وجدّ حنون، ربطت بينه وبين المارشال "محمد أمزيان" المغربي، صداقة غير عادية لسنوات، كان أمزيان قائدًا لقوة قوامها 50 ألفًا من الجنود المغاربة من سكان الريف اعتمد عليها فرانكو في جيشه في أثناء الحرب الأهلية.

من اللافت للانتباه إلى أن الطبيعة العسكرية هي أكثر ما يميز فرانكو كما قالت ابنته ماريّا كارمن في حديثها لجريدة "الشرق الأوسط" عام 2008:

أنه كان محبًّا للعسكرية يراها مثالًا للانضباط والطاعة، وكان عسكريًّا أولًا وأخيرًا في أسلوب عيشه وطريقة تفكيره، مثلما كان شديد الارتباط بزملائه في خدمة العَلَم الإسباني.

كشفت ابنته عن أن شخصية والدها نضجت واكتملت في المغرب، حيث عمل ضمن قوات "ريجولاريس" التي كان قوامها في ذلك الوقت عددًا من الأهالي من شباب المغرب، وتؤكد أن والدها أحبَّ المغاربة كثيرًا، وخالَطَهم وعاشرَهم واندمَجَ في أسلوب حياهم رغم علمه أن من بينهم مناهضين للاستعمار الإسباني لبلادهم، بينما كانت أعداد أخرى مقتنعة بجدوى الدفاع عن علم إسبانيا، وقالت إن والدها عندما كان ذاهبًا للقاء هتلر لم يكن مطمئنًا، بل كان يخشى أن يختطفه هتلر، الأمر الذي جعله يترك وصيته بمن يحكم إسبانيا في حال عدم رجوعه! لم يكن الطاغية نفسه وهو بلقاء مع هتلر، فبالنسبة له اللقاء معه هو اللقاء مع طاغية مجنون ومتهور قد يتصرف حياله بشكل غير متوقع.

قد تكون تلك محاولات من ابنته، كما هي من حفيده لتحسين صورة الرجل، فهو بالنسبة لشعبه طاغية، فما ارتكبه من جرائم حيال الإسبان طوال فترة حكمه يُدلِّل على هذا، وقائمة ضحاياه توثيق على جرائمه.

فهناك أكثر من 130000 مفقود في إسبانيا خلال الحرب الأهلية، وأكثر من 2500 قبر جماعي تحوي عشرات الألوف من جثامين ضحايا القمع.

"إسبانيا تحتل المرتبة الثانية عالميًا في عدد القبور الجماعية بعد كمبوديا"

حوالي 30000 طفل مسروق أُخذ عنوةً من عائلات ذات توجهات مُعارضة إما عند اعتقال الأمهات أو لحظة الولادة في المستشفيات، ومُنحوا لعائلات مرضيٍّ عنها كي "يكبروا ضمن التربية القومية-الكاثوليكية الصحيحة"، عشرات الآلاف من المعتقلين الذين قضوا سنوات طويلة في مُعتقلات فرانكو، والمئات من المعتقلين الذين ماتوا في أثناء فرض الأشغال الشاقة عليهم لبناء "وادي الشهداء أو السقوط"، حيث يقبع ضريح فرانكو اليوم، إن أهم ما يميز فرانكو وربما يفسّر طغيانه هو تزمتّه الديني والانضباط الصارم واتباعه حياةً طهرانية في السلوك، واقتناعه الشديد بالفكر المحافظ القومي-الكاثوليكي، كان مصابًا بالارتياب من الشيوعية والماسونية على حد سواء.

ولكن! هل يُعَد هذا مبررًا كافيًا لجرائمه؟

هنا يأتي دور ثاني الأمور التي لفتت انتباهي رسوماته ولوحاته، التي كان يخفف بها ضغوط الحكم كنصيحة طبيبه وربما ليعالج إحساسه بالذنب والذي تفهمته إلى حد ما بجملته التي قالها للأمير خوان كارلوس:

"أنت لن تدير البلاد على طريقتي"!

الإبداع في حياة فرانكو ينطق بعكس طبيعته، فهو لم يقم بتوظيف إبداعه لأجل طغيانه، ولم يستغله للتأثير به في الجماهير! لقد كان عملًا خاصًّا به وله، كما هي ممارسته للإبحار أو الصيّد!

الإبداع في حياة فرانكو كان دواءً للإنسان، الذي كان يفتقده بقرارة نفسه، ويفتتح حديثه لحفيده بعبارته:

"عندما كنت إنسانًا"!

كما أن السنوات الأخيرة من حياة فرانكو تشي بمحاولاته للتغيير وتخفيف قيوده القمعية على إسبانيا، ولكن!

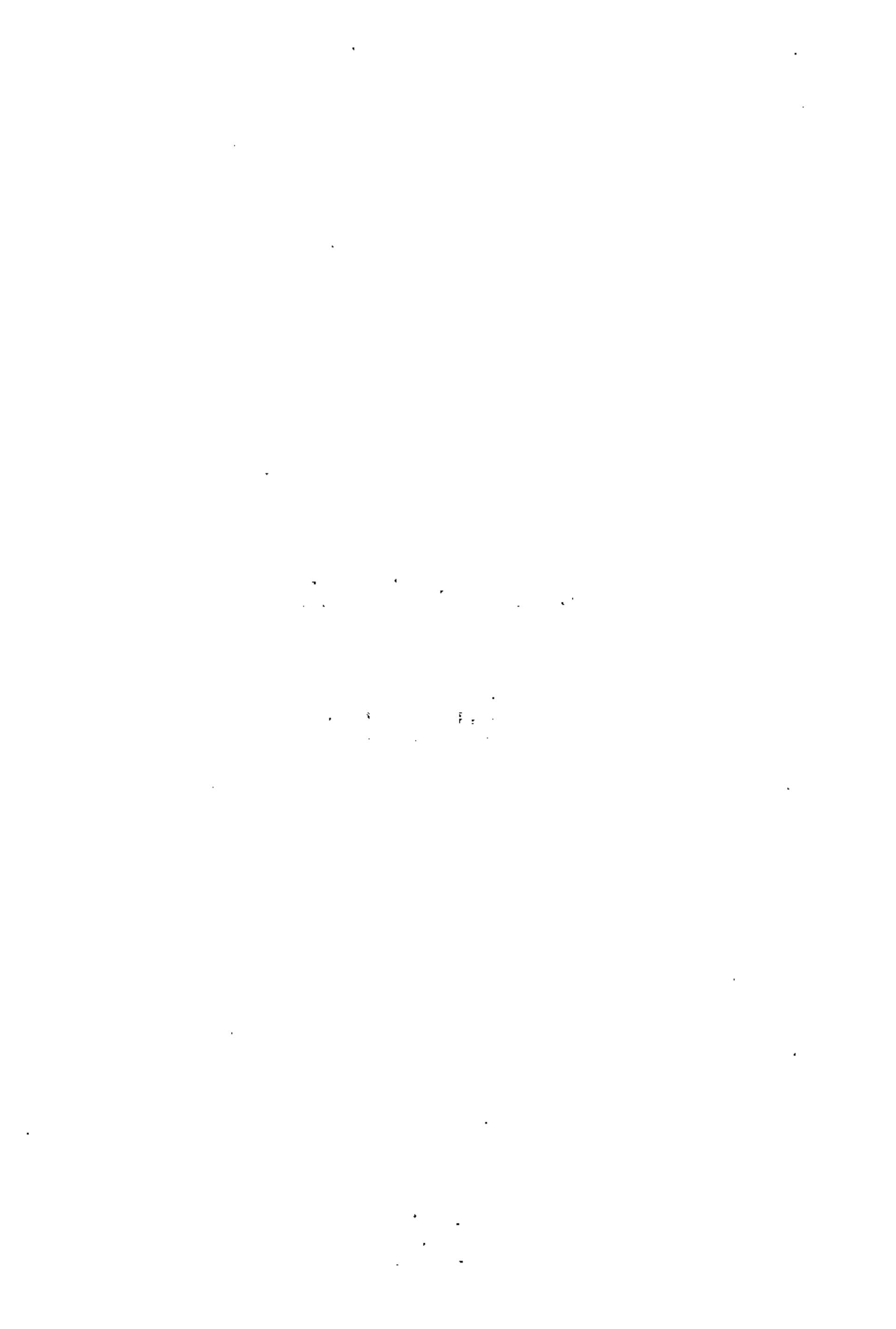
في النهاية، ربما كان الصراع داخل فرانكو أعمق من أن ندركه بمجرد استنكارنا لطغيانه، فلنحاول إذًا النظر إليه من خلال لوحاته.

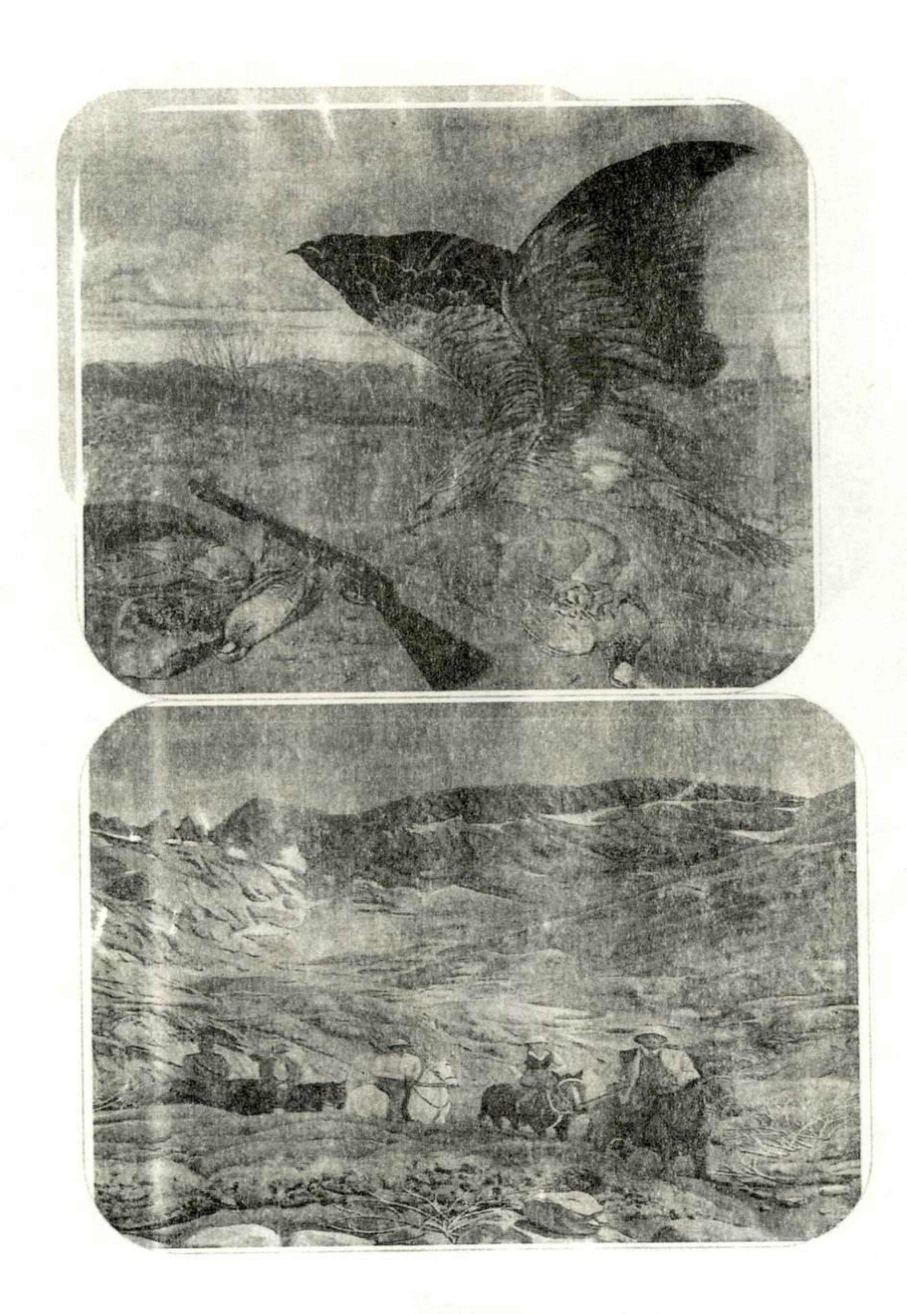
***



نماذج من أعمال

فرانكو الفنية









ماوّ تسي تونج

26 ديسمبر 1893 - 25 سبتمبر 1976



هناك، من قلب الإمبراطورية الصينية، بالشرق الأقصى حيث الحكمة وكونفشيوس والأساطير والتنانين وأبراج الحظ الصينية التي يتكرر كل برج منها كل اثني عشر عامًا، والتي تعتمد على الحيوانات التي رأت حكمة الشرق أنها تمنح بعضًا من صفاتها للبشر.

هناك حيث الجبال وهضبة التبت والبوذية و"الدلاي لاما" ومزارع الشاي وتحف أسرة مينج الإمبراطورية، وفن "البونساي" الذي انتقل لليابان وأصبح معروفًا للغرب في السنوات الأخيرة، وهو فن زراعي يعني اقتطاع أفرع من أشجار كبيرة وإعادة زراعتها بآنية منزلية توضع بالمنازل لتنمو على هيئة شجيرات تشبه الأصلية الأم.

هناك من الصين "رجل آسيا المريض" وُلِدَ أحد أبناء الفلاحين الصينيين، والذي استحق كرجل أن يحمل وفق الاحصاءات ترتيب القاتل الأول لا في الطُّغاة فقط، إنما بين كل البشر الذين وُجِدُوا أو سوف يُوْجَدُون على الأرض.

لقد تسبب في إزهاق أرواح تسعة وسبعين مليونًا من بني البشر ليتصدر قائمة الطُّغاة في العالم، يبدو ستالين وهتلر وليوبولد وبول بوت وغيرهم من الطُّغاة تلاميذًا بالنسبة له.

فرع من شجرة الإمبراطورية الصينية العظيمة صنع لنفسه إمبراطوريته الخاصة.

إذا جاز لي التعبير شجرة "بونساي" ولكنها لا تمنح إلا ثمار الشر ولا تُروى إلا بالدماء.

الفلاح الصيني الذي أرسى قواعد جديدة في الثورات ليبتعد بها عن اقتصارها على أبناء الطبقة العاملة وليضم إليها جموعًا من الفلاحين الثائرين يغير بهم ومعهم مفاهيم الثورة والشيوعية ويضع مبادئه التي عُرِفَتْ بالماوّية، نسبة إلى اسمه ماو.

وُلِد في 26 ديسمبر 1893م بقرية "شوشان" بإقليم "هونان" بالصين من أب فلاح صارم الطباع عصامي بنى نفسه حتى أصبح تاجرًا للحبوب ميسور الحال وأم بوذية وديعة الطباع هادئة على حد قوله، الابن الثالث الذي عاش بعد أن مات شقيقاه عقب ولادتهما.

أُضيف إلى اسمه لقب تسي تونج أي:

"الذي يتألق على الشروق"

ينتمي لبرج الثعبان والذي يحمل الترتيب السادس بين الأبراج الصينية.

وشهد شاهد من أهلها، تصف الأبراج المنتمي لهذا البرج، كمساعدة في تحليل الشخصية بعدة صفات الطريف أن سيرة حياة ماو تحمل الكثير من الأدلة على امتلاكه تلك الصفات بالفعل.

"الثعبان الواعي والغامض. مُحبٌّ للاستقلالية، يُقدّس الخصوصية ويتبع أفكاره بغض النظر عما يفكر الآخرون، يقضي أغلب أوقاته في المنزل برفقة الكتب، ينجذب إلى الأمور الفلسفية محلل للأمور ويغلب عليه القلق والتوتر، متسلط ومتطلب أحيانًا يضع الكثير من المعايير لنفسه وللشركاء ويشُكُّ كثيرًا فيمن يحب وفي الناس عامة، ولكنه لا يظهر لهم هذا الشك، يخبئ الأسرار ويأخذ حذره من أي كلمة ينطق بها. عندما يتعلق بشيء، لا يتخلى عنه بسهولة، يقوم بالانتقام إذا تطلب الأمر من خلال التخطيط والتدقيق والانتظار للفرصة المناسبة وهذا قد يَطَال في أغلب الأحيان من يخلف وعوده معه، مبتكر، ومبدع وإن كان ليس موضعًا للثقة، غيور، عبثي، خبيث أحيانًا، مشاكس وغير صريح".

تميز منذ طفولته بالعناد والتمرد والفوضوية، وظل هكذا طوال حياته أحب أمه كثيرًا وقال إنها لم ترفع صوتها في وجهه قط، وظَلّ يتحدث عنها بحنان، وعاش طفولته يدرس، ويعمل قليلًا في الزراعة،

ترك البيت في سن 13 ليذهب الى مدرسة أولية في منطقة مجاورة، وبسبب عناده طُرِد ثلاث مرات من المدرسة، كان والده يضربه ففي حين أراده فلاحًا رغب هو بمزيد من التعليم. يُروى عنه أن والده أنـّبه يومًا أمام ضيوفه، يقول "ماوّ":

"فوصفني بأني كسول وبلا فائدة. فتعصبتُ كثيرًا ولعنته وتركتُ المنزل، فلعنني هو أيضًا ولحق بي، فوقفت على حافة جسر وهدَّدتُ بالقفز إذا اقترب أكثر، فتراجع. إن العجائز أمثاله لا يريدون أن يفقدوا أبناءهم، تلك نقطة ضعفهم، وقد استغللتها ".

كان يكره والده،حتى أنه كان يقول للجلادين الذين يتولون تعذيب خصومه السياسيين

" لقد كان أبي سيئًا، ولو كان حيًّا الآن لوجب قتله".

ربما قرأت عن ماو النزر اليسير قبلًا منذ زمن بعيد، وإن كنت تعرفت إليه أكثر من خلال قراءتي لكتاب روكسان ويتكي أستاذة التاريخ الأمريكية والاختصاصية في الدراسات الصينية عن"جيانج تشينج" زوجة ماو وشريكته في الثورة الثقافية وواحدة من عصابة الأربع.

بدا الكتاب على حد قول ويتكي نفسها "محاولة لتحسين صورة تشينج وماوّ" خاصة أن سلسلة المقابلات التي أجرتها جيانج تشينج مع ويتكي، كانت عام 72 ونشرت المقالات بمجلة تايم الأمريكية

على حلقات قبل أن تُنشر في كتاب اسمه"من ممثلة إلى إمبراطورة" قبل سقوطها عام 76 بعد اتهامها من قِبل الحكومة الصينية الجديدة وثورتها المضادة بصفتها واحدة من عصابة الأربع.

إن تشينج هي إمبراطورة الصين في العهد الجديث وهي امرأة ظلت طوال عشرة أعوام إحدى أقوى نساء العالم، وصاحبة السلطة الفعلية على ثقافة 850 مليونًا من البشر.

في الواقع إن الباحث في سيرة ماو لا يستطيع إغفال دور تشينج التي لم تكن بأي حال من الأحوال كإيفا براون أو كلارا بيتاتشي يقتصر دورهما على دعم معنوي وعاطفي في حياة شريكيهما هتلر وموسوليني، بل إن جيانج كانت شريكًا أساسيًا في صنع القرار السياسي بالصين في ظل الثورة الثقافية. لقد كانت الديكتاتورة الثقافية، التي تبدي النقد بشأن ما يقدم على المسارح من مسرحيات برجوزاية تناقض مبادئ البوليتارية التي طبقها ماوَ.

ولأن للحقيقة دائمًا وجه آخر، فإن امرأة ماو التي فرضت الزي التقليدي الخشن على الصينيات، لم تمنع نفسها من ارتداء "التنانير" العصرية والأثواب التي تباع للغربيات المقيمات في الصين من متجر شهير في ذلك الوقت. كما كانت تشاهد أفلام "جريتا جاربو" التي تـــــُجْـــلَب خصيصًا من أمريكا لتعرض في المساء بمقر إقامتها من خلال شاشات العرض المنزلي، في تناقض واضح وصريح مع الثورة

الثقافية التي أطلقها زوجها وفرضها بالقوة على الشعب الصيني الذي حُرِّمَتْ عليه القراءة والموسيقا والسينما، وكل مظاهر الحضارة الغربية الاستعمارية بتعاليم ماوّ.

تقول ويتكي في فقرة من الكتاب:

"الحقيقة إن جيانج لم تكن حارسة متجولة لزوجها أو تابعة مخلصة، بل إن وجودها يعكس أكثر اتجاهات ماو تطرفًا، خصوصًا استعداده لأن يعمد على نحو دوري إلى هزّ الجهاز البيروقراطي في حملات تصحيح، بل لأن يُغرق الصين كلها في فوضى شبه شاملة من أجل النقاء الأيديولوجي".

ومن واقع قراءتي السابقة لحياة جيانج، وقراءاتي الحالية لحياة ماو وجدت أنه من المهم الحديث عنهما بطريقة متوازية نوعًا بين حياة ماو قبل وبعد جيانج وانعكاس هذا على الماوّية، وعلى الصين نفسها، لأن جيانج كانت أحد أعضاء الحزب الشيوعي الثوري، وقد حَرَصَ زوجها على إبعادها عن السياسة في البداية، وتغير الأمر بعد ذلك تمامًا بعد الثورة الثقافية، مع ملاحظة أن هناك جانبين لحياة ماو وفق الطرف الذي يحكي عنه، فهناك العديد من الحقائق التي يغفلها أعدائه، أو المعارضين لأفكاره والذين يتناسون قراءة الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والذي شكل حياة الشعوب في ذلك الوقت، أما أتباعه المخلصون وأتباع الماوّية نفسها وتعاليمها فيظهرون كل الجوانب المضيئة في حياة ماو وأفكاره، ويتناسون العدد المهول لضحاياه تحقيقًا لتلك الأفكار التي فرضها على بلاده.

سأحاول أن أعرض الصورة بمختلف تفاصيلها.

بالنسبة لماو علينا ألا نتغافل عن أن نشأته بوقت كانت بلاده مُقسَّمة بين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وروسيا وألمانيا واليابان حيث سيطرت هذه القوى الاستعمارية على اقتصاد الصين وسياستها واستغلت الشعب الصيني كعمالة في المزارع والمناجم في جميع أنحاء العالم.

كانت القوى الأجنبية موجودة في كل مدينة كبيرة، وكانت القوارب المسلحة البريطانية والأمريكية تقوم بدوريات في المياه الإقليمية الصينية والبلدان الأجنبية مُسيطرة على الموانئ والنظام البريدي والشحن والسكك الحديدية.

كانت الصين مُضطهَدَة إلى درجة أنه أُطلق عليها وصف "رجل آسيا المريض" وكان غالبية سكانها إما من الفلاحين الفقراء الذين يعانون النظام الإقطاعي واستبداد الإقطاعيين أو من عامة الشعب من سكان المدن الذين يعانون الفقر وإدمان الأفيون.

زمن انتفاضات الفلاحين التي تعلّم ماو شيئًا عنها حينما درس تمرّد "تيبينج" وقت أن حمل الفلاحون السلاح من 1850– 1864 شكلّوا حكومة ثورية لترسل الحكومة الصينية مع الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا قوات لقمع التمرّد قضت تقريبًا على 20 مليونًا من الأشخاص. أما هو نفسه فقد عاصر مئات الانتفاضات العفوية ما بين

عامي 1901 إلى 1910 والتي شارك فيها عشرات ملايين الناس. في 1906 كان بالثانية عشرة من عمره، عندما ضربت الحرب والمجاعة والفيضان الصين وحدثت "انتفاضة هونان" التي وصفها بأنها أثرّت على حياته كلّها حيث زحف الآلاف من عمال المناجم والفلاحين على العاصمة الإقليمية وهاجموا مخازن حبوب الإقطاعيين وقمع الجنود التمرّد وعُلِقَت رؤوس الثوّار المذبوحين على باب المدينة تحذيرًا للناس. قال ماوّ:

"نوقشت هذه الحادثة في مدرستي لعدّة أيام. وولدّت انطباعًا عميقًا لديّ حيث تعاطف الطلبة الآخرين مع "المتمردين" ولكن من وجهة نظر المتفرّج، لم يفهموا علاقة ذلك بحياتهم الخاصة، اهتموا بها مجرّد اهتمام بحادثة مثيرة. أما أنا فلم أنسها، شعرت بأن الثوار كانوا أناسًا عاديين مثل عائلتي الخاصة وشعرت بعميق الاستياء من معاملتهم بظلم".

رغم الانتفاضات العديدة إلا أنها أثبتت عجزها حقًّا عن حلّ المشكلة وتغيير المجتمع جوهريًّا.

شأنه شأن الكثيرين من جيله، كان راغبًا في إحداث التغيير وفي 1909 وعمره 16 عامًا ترك ماو المنزل العائلي ثانية وصل عاصمة الإقليم "تشانجشا" للالتحاق بمدرسة عليا ليصبح معلّمًا.

"للمرّة الأولى رأيت ودرست باهتمام كبير خريطة العالم".

درس ماو تاريخ فلاسفة الأمم الأخرى من مختلف البلدان، واطلّع على الصحف الصادرة في جميع أنحاء الصين، وقرأ "بيان الحزب الشيوعي" لماركس وإنجلز. عام **1911** في تلك الفترة كانت مملكة "تشينج" سقطت وثورة"صن يات سن" في أوجها، التحق ماو بوحدة للجيش الثوري فترةً قصيرة مدتها ستة أشهر، ثم عاد إلى تشانجشا تأرجح بين دراسة القانون والتاريخ إلى أن استقر على التدريس ليتخرج من مدرسة للمعلمين **1918** حيث كان قد أسَّس في **1917** "رابطة دراسة الشعب الجديد" وعارضت هذه المجموعة من النشطاء والشبان تدخين الأفيون والقمار وشرب الخمر والدعارة والفساد وعارضت اضطهاد النساء.

"النساء يجب أن يكنَ (مستقلات) فلا يمكن أن يكون الرجال أحرارًا طالما لم يتمَ تحرير النساء".

نظمت المجموعة دروسًا مسائية للعمال حيث درّس ماو التاريخ وناقش الشئون العامة الراهنة وقرأ الصحف للعمال. وَرَدَ في ملصق يعلن دروسه:

"تعال واستمع إلى خطاب صريح وبإمكانك ارتداء أي ملابس تريد".

في **1917** وبعد نجاح الثورة البلشفية في الاستيلاء على السلطة وإرساء قواعد دولتهم الاشتراكية الجديدة. انتشرت الشيوعية في بلدان أخرى منها الصين التي قاومت جماهيرها دون أن تملك لا نظرية

ولا قيادة ولا خطّة لبلوغ التحرير لكن وكما قال ماو: "جلبت طلقات مدافع أكتوبر الماركسية- اللينينية إلى الصين".

وعقب الحرب العالمية الأولى، ومع تحويل الامتيازات الاستعمارية في الصين إلى اليابان 1919، وفي الرابع من مايو تظاهر 3 آلاف طالب في العاصمة بكين ضد القرار وأُعْلِنت الأحكام العرفية وحالة الطوارئ،ودعا الطلبة لإضراب عام في المعاهد، وتركّز هذا الإضراب في شنغاي بمشاركة 90 ألف عامل أُغلِقَ أكثر من مائة شركة ومصنع، وشكّل ماو وأصدقاؤه اتحاد طلبة في هونان، ودعوا إلى إضراب، وتلقت حركتهم تلك دعمًا واسعًا عبر الصين.

ذهب إلى بكين للدراسة في الجامعة، ولم يكن لديه ما يكفي من المال فدرس منتسبًا وعمل في مكتبة الجامعة 6 أشهر في 1921 انضمّ ماو إلى مجموعة صغيرة من الماركسيين، وتعرّف إلى عميد الكلية "تشن توهسيو" وأمين المكتبة " لاي تا تشاو" مؤسسي الحزب الشيوعي الصيني، في العام نفسه، تزوج للمرة الثانية بـــ"يانج كاي هوي" ابنة معلمه التي التحقت بالحزب الشيوعي ما بين عامي 1920 و1921 كان ينظم الطلبة والتجار والعمال لمعارضة سيطرة اليابان على الامتياز الألماني في إقليم "شاندونج"، كأحد شروط معاهدة "فرساي" بعد الحرب العالمية الأولى، والذي اعتبر إهانة للسيادة الصينية وولّد مشاعر معاداة الأمبريالية لدى الناشطين الصينيين.

في عام **1921** كان ماوتسي تونج موفد إقليم هونان للاجتماع التأسيسي للحزب الشيوعي الصيني في شنغهاي. في عام **1923** طلبت الشيوعية الدولية "الكومنترن" من الشيوعيين الصينيين التحالف مع الحزب القومي "الكومنتانج" بزعامة "صن يات سن" الذي كان يسعى للتخلص من ملاك الأراضي الكبار وتوحيد البلاد ويكافح من أجل استقلال الصين. في **1924** انتقل ماو إلى شنغهاي مسئولًا للكومنتانج، وبعد عام عاد إلى "هونان" لينظم احتجاجات الفلاحين، ثم هرب إلى كانتون، مقر قيادة "صن يات سن" الذي توفي فجأة في مارس **1925** وتولّى "تشنج كاي شيك" قيادة الكومنتانج.

كان أول ما فعله "تشنج" بعد تعزيز موقعه هو طرد الشيوعيين من القيادة وانفرط التحالف بين القوميين والشيوعيين في **1927** ليعود الشيوعيون إلى الريف حيث قاعدة واسعة من الفلاحين الثائرين. تحوّل الكومنتانج إلى أداة بيد الإقطاعيين وفي **1927** أطلق العديد من الحملات التي استهدفت تحطيم الحزب الشيوعي والحركة الثورية وضيّق على الاجتماعات السياسية والصحافة والمنظمات العمالية وحقوق الإضراب،وقتل آلاف العمال،وجُمِّع الشيوعيون والمتعاطفون معهم وأعْدِموا علنًا ومنهم زوجة ماو التي ظلت ثورية ورفضت ترك زوجها ماو، أو التخلّي عن أفكارها السياسية الثورية.

في **1961** كتب ماو قصيدة إحياء ذكراها وهي من قصائده الأشهر وعنوانها "قصيدة لزهرة الإجاص" إن ماو في تلك الفترة

الثورية اتضحت لديه موهبتي الكتابة الأدبية والشعرية والمقالات السياسية، بالإضافة إلى قدرته الخطابية وأسلوبه الذي تطور فيما بعد ليكون مؤثرًا في الرأي العام. كان من اللافت للانتباه اهتمامه بالنساء وحديثه عنهن وعن اضطهادهن اعتمادًا على التقاليد الاقطاعية، ونشر سلسلة من المقالات نحّى فيها باللوم على الظروف الاجتماعية القائمة على مأساة التعامل مع النساء، قال:

"إن النساء قوّة كامنة كبيرة لأن النساء تتعرّض لاضطهاد أكبر من اضطهاد الرجال، إذ بينما يوجد على ظهر الرجال جبال ثلاثة، على ظهر المرأة أربع لأن الرجل هو الآخر يستغلّها".

كما بدأت أفكار ماو، التي عرفت في الأدبيات الشيوعية فيما بعد بالماويّة والتي ترى أن الثورة لا يمكن قصر القيام بها على الطبقة العاملة بل يمكن ذلك بالفلاحين - وهو ما حققه عمليًّا بالفعل- كذلك بدأت بذور عداوته للقوميين وشكوكه حول الاتحاد السوفييتي، التي بلورت فيما بعد توجُّهه الشيوعي المختلف. فلم يكن ماوتسي تونج زعيم الثورة الصينية ومؤسس جمهورية الصين الشعبية فحسب، بل أصبح في وقت ما أحد أقطاب الشيوعية في العالم بممارسة مختلفة عن الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي السابق.

في عام **1927** قاد ماو مجموعة صغيرة من الفلاحين من إقليم "هونان" إلى إقليم "جيانجزي" الجبلي حيث كوّن هو وأعضاء آخرون من الحزب الشيوعي حكومة على النمط السوفييتي وبدؤوا في تكوين

جيش فدائيين، كان نواة الجيش الأحمر الذي هزم القوميين بعد 22 عامًا، ودحرهم إلى جزيرة "تايوان". في تلك الفترة وفي عام 1928 تعرف ماو على فتاة صغيرة تدعى "هوتسوتشن" وتزوجها يقال إنه أنجب منها خمسة أطفال حتى طلقها عام 1937.

"في الحقيقة، وكما ذكرت ويتكي في كتابها بناء على حواراتها مع جيانج تشينج أنه لم ينجب من زوجته الثالثة تلك إلا ولدين وفتاة، وكان لديه صبي من زواجه الأول، وأن هوتسوتشن قامت بتربية ابن أخيه كما لو كان ابنها، أما جيانج نفسها فلم ينجب منها إلا ابنة واحدة اسمها لي نا وتعمل باحثة تاريخية".

مع بداية الثلاثينيات كان الكومنتانج هزموا ملاك الأراضي ووحدوا البلاد وتحولوا للقضاء على الشيوعيين.وفي عام 1934 هاجم "تشنج كاي شيك" معقل الشيوعيين في "جيانجزي" فاضطروا للفرار لتبدأ المسيرة الكبرى الشهيرة. وعلى مدى ستة آلاف ميل من التراجع من "جيانجزي إلى بلدة "ينان" في إقليم شانزي بأقصى الشمال، لم ينجُ سوى عُشْر جيش الفدائيين الذي بدأ بثمانين ألفًا وعلى مدى عشر سنوات تالية كانت "يانان" معقل الشيوعيين، وأصبح ماو تسي تونج الزعيم الشيوعي بلا منازع. وفي تلك الفترة مارس ماو ورفاقه عمليًّا ما تم بناء الصين الشعبية على أساسه فيما بعد، إذ احتضنهم الفلاحون بعد توزيعهم الأراضي وكتب ماو في ذلك الوقت عن تكييف الماركسية اللينينية لتناسب الوضع الصيني وعن ثورة الفلاحين.

في عام 1937 غزت اليابان الصين وجدَّد القوميون والشيوعيون تحالفهم بتشجيع من القوى الجمهورية في البلاد ومن الكومنترن. وفي تلك الفترة زادت قوات الجيش الأحمر لتصل إلى مليون، وبَسَطَ ماو سيطرة الشيوعيين لتصل إلى نحو 100 مليون صيني في 1939 التقى ماو بزوجته الأخيرة الممثلة جيانج تشينج، وتزوجها حتى وفاته عام 1976.

بعد عام واحد من انسحاب اليابان، دخل الصينيون في حرب أهلية مُجدَّدًا حُسمت في عام 1949 بهزيمة القوميين، وأصبح ماو تسي تونج رئيس الحزب الشيوعي الصيني ورئيس جمهورية الصين الشعبية الوليدة ورئيس اللجنة العسكرية التي تقود جيش التحرير الشعبي وبدأ ماو ورفاقه في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني جهدًا لإعادة بناء الصين عبر خطط تنمية وثورات بعد ثورات وعبر مبادرات وخطوات أنجز ماو الإصلاح الزراعي والتعاونيات الزراعية وبسط مظلة الخدمات الصحية وغيرها.

القفزة الكبرى:

مبادرة القفزة للأمام عام 1958 كان عنصرها الأساسي إطلاق العنان في عموم البلاد لحركة تشكيل كمونات الفلاحين بما يعني تعاونيات كبيرة لسكان الريف تجمع بين النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمقاومة الشعبية والتسيير الإداري، بهدف تطوير الصناعة في الصين بالتوازي مع الزراعة لتجاوز إنجاز الغرب، لم

تؤتِ ثمارها وفشلت في أواسط الستينيات حينئذ انسحب ماو من المواقع التنفيذية وإن ظَلَّ رئيسًا للحزب حتى وفاته.

مما لا شك فيه أن للرجل مفاهيمه الخاصة وغير المفهومة، ومما يُروى أنه قاد حملة للقضاء على ما أسماهم الآفات الأربع: العصافير، الناموس، الذُباب، الفئران.

وبدأت الحكومة في اصطياد الحشرات والفئران وقتل الطيور وانتشر بسبب ذلك الجراد في الصين. كانت الحملة على العصافير لأنها تأكل الحبوب الزراعية.

لا أدري لِمَ لَمْ يخبره أحدٌ أنِ العصافير تأكل الحبوب والحشرات كذلك؟!

ومؤكد أن ما تأكله العصافير لن يحرم الصينيين من الغذاء.

بالنهاية اضطرت الحكومة لوقف الحملة على العصافير!

وبعيدًا عن حكايته مع العصافير، ماذا بشأن المجاعة، وقفزة ماو الكبرى؟

في حين اتَّهمه البعض بأنه من تسبَّب في المجاعة التي راح ضحيتها 20 مليون صيني بقفزته الكبرى، فهناك من الكتاب الغربيين الذين تحدثوا عنه وعن وثورته الثقافية بشكل حيادي.

حاولت أن أكون منصفة فبحثت في أكثر من مصدر ولم أعتمد فقط على موقع مكتبة ماو للعرب أو على كتبه المترجمة وبين هنا وهناك اكتشفت بعض الأمور.

بالنسبة لأمر المجاعة التي اهمت سياسات ماو بالتسبب فيها، عليّ أن أشير إلى عوامل أخرى يتغافل عنها أعداء الرجل ففي 1959 شهدت الصين ظروفًا مناخية قاسية جدًّا من الجفاف والفيضان من أسوأ ما عرفته في القرن العشرين، وكان لهذا تأثير هائل على إنتاج الغذاء كما أن الاتحاد السوفييتي والذي أعاد تركيز الرأسمالية في منتصف الخمسينيات، سحب المستشارين الفنين وسحب مساعدته للصين. كما ارتُكِبت أخطاء من القيادات فصُرِفَ وقت أكثر من اللازم في المناطق الريفية في مشاريع غير زراعية بما أضرّ بإنتاج الأغذية، وبالغ المسئولون المحليون في التقارير عن الإنتاج جاعلين من العسير معرفة كمية الحبوب المتوفرة فعلًا والتخطيط بدقة.

مؤيدو ماو وأتباعه يقولون إن: رؤى ماو للاشتراكية تخطّت مجرد توفير الغذاء واللباس والحقوق الأساسية، وأن هدفه كان ثورة يتخلّص بموجبها من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الاضطهادية القديمة، ثورة تتحدّى الأفكار والقيم البالية ثورة في طريقة تفكير الناس وممارساهم.

ولقد اتهمها البعض بأنها تجربة طوباوية لا عقلانية، ولكن مؤيديها يقولون إنها مثّلت تقدُّما فعليًّا فيما يتصل بتطوير علاقات اقتصادية واجتماعية تحرّرية أكثر، وأنه في خِضم هذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية الكبرى، جرى تحدّي العادات والقيم القديمة والأفكار المسبّقة والتقاليد الإقطاعية، وقُلّصت الفجوات بين المدن والريف وبين العمال والفلاحين.

يقول "ريتشارد كيرت كراوس" الباحث بجامعة أوكسفورد في كتابه "الثورة الثقافية الصينية":

"كما يثبت التاريخ أن التغييرات التحويلية الجذرية حقٌّ للمجتمع يمكن أن تسبّب في البداية تفكّكًا وصعوبات لكن على المدى البعيد يتجلّى أنه اختراق حقيقي، وينطوي مثل هذا التغيير على القطع مع الطرق القديمة وتجريب أخرى جديدة وتحدّي العادات والمتعارف عليه. كان هذا هو حال القفزة الكبرى إلى الأمام والحقيقة الفعلية هي أنه بحلول 1970 للمرّة الأولى في تاريخها استطاعت الصين أن توفّر لسكانها 600 مليون حميّة دُنيا وأمنًا غذائيًّا وهو أمر وثيق الارتباط بالمكاسب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المُحقّقة خلال القفزة الكبرى إلى الأمام".

الثورة الثقافية:

في **16** مايو **1966** انطلقت رسميًّا "الثورة الكبرى الثقافية البروليتارية"، وتواصلت عقدًا من الزمن قلب المشهد السياسي الصيني رأسًا على عقب! حيث بدا أن معاوني ماو أمثال "ليوشاوكي" و"دنج زياوبنج" يتجاهلون حديديته في مسألة الصراع الطبقي وهم ينفذون خطط التنمية، فأطلق ثورته تلك مُستهدِفًا معارضيه ومُستغلًّا غضب قطاعات من الطلاب سموا وقتها بالحرس الأحمر لاجتثاث الطبقة البرجوازية في الحزب الشيوعي، التي كانت تمثل شريحة الرجعيين من وجهة نظره، وتقف عائقًا أمام بناء فكره الاشتراكي.

إلا أن الثورة الثقافية أدت إلى اضطرابات اضطرته إلى الاستعانة بالجيش للقضاء عليها عام **1967** وكان حليفه وقتها قائد الجيش وزير الدفاع "لين بياو" الذي قرَّر ماو ترشيحه خلفًا له عام **1969**، لكن صعود "شويان لاي" واتفاقه مع ماو على أن البعد عن الاتحاد السوفييتي يقتضي انفتاحًا على أمريكا لم يكن مقبولًا لدى لين.

وفي عام **1971** قتل لين بياو في تحطم طائرة كان في طريقه للهرب بها بعد اتهامه بمحاولة اغتيال ماو.

وبعد الثورة الثقافية بدا أن البراجماتيين بقيادة "دنج زياوبنج" قد كسبوا الجولة، إلا أن المتشددين تفوقوا عليهم إثر وفاة "شويان لاي" في يناير **1976**. واختار ماو شخصية وسطية لقيادة البلاد من بُعده "هوا كوفنج".

وبعد وفاة ماو بشهر قام هوا باعتقال المتشددين وفي مقدمتهم من عرفوا بعصابة الأربع:

زانج شون كياو، وانج هونج وين، ياوون يوان، جيانج تشينج زوجة ماوّ.

حتى يومنا هذا لا تزال الثورة الثقافية في نظر كثير من الصينيين فترة مظلمة من تاريخ بلادهم الحديث.

فما خلفته الثورة الثقافية من رماد لا يزال متقدًا بالذاكرة الوطنية وإن لم يجرؤ أحد خلال العقود الخمسة الماضية، على إجراء مراجعة نقدية لتلك الحقبة،حتى بعد أن اعترفت السلطات الصينية عام 1981 بالأخطاء التي ارتُكبت خلال الثورة، فوصفت الثورة الثقافية رسميًّا بالخطأ "الخطير" لماو الذي اتُّهِم بأنه من:

"زرع الفوضى في البلاد وأنزل كارثة بالحزب والدولة وبكل الشعب".

واكتفت السلطات بهذا القدر ومنعت النقاش حول تلك الفترة.

"ينبغي ألا نعرف أكثر مما يتاح لنا أن نعرف عن تاريخ بلادنا، لأن القائمين على الدولة هم الأجدر بتقييم أي مرحلة تاريخية، ومن ثم هم المخولون إبداء رأيهم في هذا الشأن".

ربما تبدو تلك الجملة أنموذجًا لعشرات الجمل التي تتردد على ألسنة الكثيرين من الصينيين إذا ما جرى حوار أمامهم بشأن الثورة الثقافية، فالمواد التاريخية والسياسية في المقررات الدراسية تخلو تمامًا من أي إشارة إلى الأحداث التي شهدها الصين عام 1966.

إن الثورة الثقافية أدخلت الصين فوضى عارمة استمرت عشرة أعوام، راح ضحيتها مئات الآلاف من الصينيين، جلهم من المتعلمين والمثقفين. كما شهدت البلاد في تلك الحقبة فصولًا طويلة من عمليات التخريب والتدمير طالت معالم ورموزًا دينية وثقافية، وأعمالًا تاريخية، وكتبًا قيّمة تم إتلافها وإحراقها باعتبارها رمزًا للإقطاع والرجعية.

ولا تزال تطرح التساؤلات بشأن تأثيرات تلك الثورة على حياة الصينيين، وانعكاساتها الإيجابية والسلبية.

يقول أحدهم:

"إن الأوامر صدرت لهم بمهاجمة كل مَن يقف في وجه الثورة، وحين تمكنًّا من السيطرة على مجموعة من المعارضين، لم أكن أرغب إلا في ضربهم وإهانتهم. لكن أحدهم فارق الحياة تحت ضرباتنا المكثفة. يعترف أنه لم ينسَ تلك الصورة، وما زال شاعرًا بالندم، وأنه قاتل "كان عمره وقتها ستة عشر عامًا.

ويقول الباحث والمؤرخ الصيني "جان لي فان":

"كان للثورة الثقافية تأثيراتها السلبية الواسعة على الصين من الناحية الثقافية والأخلاقية وحتى السياسية، فقد شهدت البلاد خلالها تراجُعًا كبيرًا، ولحق الأذى بأكثر من مئة مليون شخص، كانت حقبة من التاريخ ضد الإنسانية".

وفي وقت يعتبر كثيرون أن فترة الثورة الثقافية أكثر الفترات فوضى في تاريخ الصين الحديث، فهناك محللون يقولون إنه ما زال هناك في الصين مَن يشيدون بالقيم اليسارية التي اتسمت بها تلك الفترة، فبالنسبة لأولئك المولعين بماو،تعتبر أيديولوجية الثورة الثقافية، البروليتارية، صحيحة وعلى صواب.

فهذا أحدهم يقول بعد مرور خمسين عامًا على الثورة الثقافية، وثلاثين عامًا على تغييرات الثورة المضادة:

"منذ 30 عامًا تجلى أن الإصلاحات كانت خطأً بحذافيره، فالإصلاحات لم تجلب أي فائدة لبلادنا، ولا لحياتنا، كما لم تجلب أي تطور لاقتصادنا ولا لصناعتنا، عكس ما صنعه الزعيم ماو وثورته".

ويقول الكاتب والمؤرخ "تشان ليفان":

"الناس الذين يشعرون بالحنين حيال الثورة الثقافية هم في العادة كبار السن، المتقاعدون والمسئولون في عهد ماو، في الواقع هم إلى حد ما سخيفون، (هل لا تزال تثق بالشخص الذي خدعك) هذا الوضع لا يزال قائمًا، لأن المجتمع الحالي لا

ينعم بالاستقرار، فالتوزيع غير المتكافئ للثروة يجعل الناس غير سعداء، وهذا ما يدفع الناس للترحّم على عهد ماو تسي تونج. مثل هذا النوع من الحركات التي بُنيت على خطأ، لن تعرف النور مرة أخرى، أظنُّ أن حزبنا وبلدنا وقيادتنا، لن يعيدوا مرة أخرى إلى الوجود هذه المبادئ التوجيهية الخاطئة".

ماو الشاعر أم ماو صاحب الكتاب الأحمر الصغير؟

من هو ماو المبدع؟

هل هو الشاعر الذي رثى زوجته الثانية بقصيدة؟!

أم الثائر الحالم الذي ينشد التغيير ويسعى إليه؟!

أم الطاغية الذي تحولت أقواله إلى عبارات مقدسة والتي تضمنها كتابه الأحمر الصغير!

مما لا شك فيه أن ماو كل هؤلاء. فهو امتلك من البراعة الأدبية وكذلك الأفكار والرؤى الغزيرة الكثير، يقال إنه عندما تولى السلطة كان نصف سريره يمتلئ بالكتب، و.. والفتيات! وإن كنت أشك في أمر الفتيات. لقد كان لديه القدرة على التأثير في الجموع بشكل قوي وبصورة مؤثرة، هذا القادم من أعماق القرية كان أدرى بشعاب بلاده وأحوالها بنظرة مجردة حتى وإن كان طاغية فهو قد أرسى الحياة الفكرية بماركسية جديدة ومختلفة، تحول كتابه الأحمر الصغير أو مقتطفات من أقواله إلى مصدر إلهام لترسيخ الفكر الماوي كتطور

ثالث للماركسية اللينينية رغم أنه كان ممهورًا بالدعاية والتحريض على التمرد، تلقّفه الشباب بصدور رحبة فانتقموا من كل مَن يعارضون أفكار الكتاب ومؤلفه، والأيديولوجية القائم عليها.

لا أدري هل الخطأ في النظرية فقط أم التطبيق! أم كليهما معًا؟!

في صيف 1965 قبل الثورة الثقافية بعام سافر ماو إلى جبال "تشيكانج شان" التي كان قد سافر إليها من قبل مع جنوده عندما كان يجهز جيشه الأحمر.

وهناك كتب قصيدته إعادة الصعود لتشيكانج شان:

لطالما تطلعتُ نحو السُّحب وأنا أصعدُ تشيكانج شان من جديد

جئتُ من بعيد لرؤية مزارنا القديم، وجدتُ مشاهدَ جديدة بدل القديمة ..

يمكن أن نشبك القمر في السماء التاسعة

نصطاد السلاحف في أعماق المحيطات الخمس

ونعود وسط غناء وضحك المنتصرين

ليس من شيء صعب في هذا العالم لو تجرأنا على تسلّق الجبال.

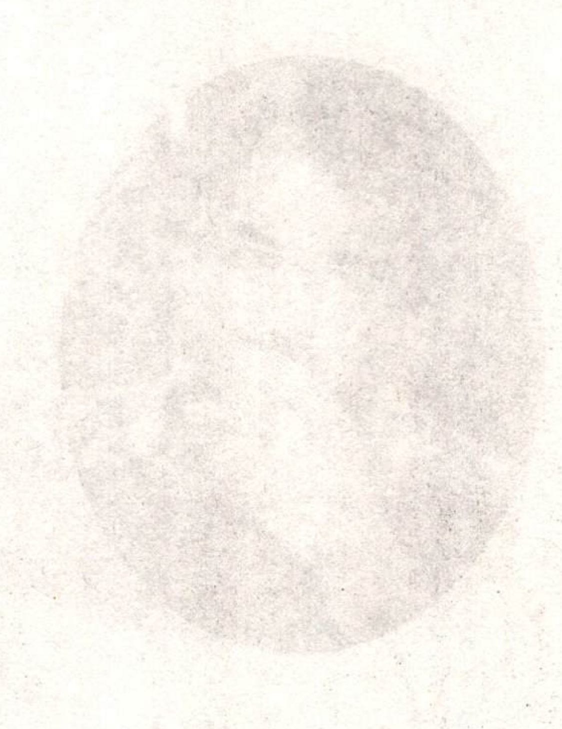
***





صدّام حسين

28 أبريل 1937 – 13 ديسمبر 2003



ويبدأ هنا حديث الألم. فبعد السفر إلى أوروبا، ثم العروج إلى الشرق الأقصى في انعطافة سريعة، لا تنتهي الرحلة قبل أن أحُطّ الرحال في حاضرة الشرق "بغداد"، إلى العراق حيث تختلط مشاعر كثيرة بداخلي.

فالحديث عن طاغية ينتمي إلى حضارة بلاد الرافدين أمر مؤلم إلى حدٍّ ما بالنسبة لي؛ لأنني عاصرت الكثير من الأحداث التي هزت منطقة الشرق الأوسط المنكودة والتي كان صدّام حسين لاعبًا رئيسيًّا فيها، بداية من الحرب العراقية الإيرانية، في فترة طفولتي ومراهقتي، ثم غَزْوِه الكويت قُبَيْل عامي الأول بالجامعة، بالطبع حربيّ الخليج، والعقوبات الاقتصادية، وجرائمه ضد الأكراد والشيعة، وأخيرًا غزو العراق وإعدامه بعدها بشهور.

ورغم رغبتي في الإحاطة بالكثير من التفاصيل عن الشخصيات التي هي موضوع الكتاب فإنني لا أنكر مدى صعوبة الحصول على معلومات فيما يخصُّ الشخصيات العربية سواء صدّام حسين أو معمّر القذافي في الجزء الأخير. إن تلك الملاحظة دلالة على مدى القصور

الذي نعانيه في تحليل الواقع من حولنا أو فهمه أفرادًا وأحداثًا ووقائع، فتابوهاتنا المقدسة تتخطى الدين والجنس، لتشمل بالقطع الزعماء، الباحث مثلًا في سيرة حياة أي زعيم غربي سيجد الكثير من المعلومات عن طفولته ونشأته، عن حكايات طفولته وظروفه الأسرية. وعلى العكس من هذا تمامًا عند تناول سيرة زعيم عربي، فلا شيء إلا المعلومات الإحصائية!

حتى أعمالهم وفترات حكمهم ستجد الكثير من التضاربات بشأنها اللهم إلا فيما يخص التواريخ والتقويمات. هذا في حياة الزعيم أو الديكتاتور أو الطاغية، وقد يكون هذا مفهومًا بسبب الخوف والقمع، فلا تجد إلا من يُسبِّحون بحمده ويلهجون بالثناء عليه، أما بعد وفاته فلن تجد إلا من يذكر جرائمه وخفاياه، وفضائحه الجنسية، أو شذوذه، وبالقطع من كان يمدحون اليوم فهم على قائمة من يذمّون ويسبّون ويلعنون.

أو تجد المغيبين ممن ما زالوا مفتونين به، وأسرى لمحاسنه التي ربما ليس لها من الحقيقة نصيب،وهؤلاء في الواقع أسوأ من المنافقين والمتزلّفين والمداهنين لأنهم في الغالب لا يقدمون حقائق، ويرفضون تصديق وقائع بعينها، رغم أدلتها الثبوتية.

منهم من يصِّر مثلًا على أن تلك أكاذيب الغرب والإعلام المضادّ، ومنهم من يكتفي بالقول: "اذكروا محاسن موتاكم"، وهكذا تبقى الحقيقة كامنة بأغوار بعيدة، ليس لكشفها من سبيل.

إن الحقائق المجردة لا تضرُّ، إن ما يسبب الضرر دائمًا وأبدًا هو تقديس الأشخاص ورفعهم للذُّرى خوفًا من بطشٍ أو طمعًا في رضا، أو إسقاطهم في السفوح رغبةً في انتقام أو تنفيسًا عن حقد دفين.

تمنيت لو امتلكت معلومات عن الطفل صدّام أو المراهق معمّر؟ كيف كان حالهما في الدراسة ومع الزملاء؟ ما أفكارهما التي ثرثرا بها؟ هل أحب أحدهما في مراهقته فتاة وبقي حبها في قلبه زمنًا طويلًا؟

لكن! لا بأس فتلك هي أحوالنا، وهكذا ستبقى!

ولأعود لصدّام حسين،بما تيسّر لديَّ من معلومات وجدت بعضها في كتاب لدكتور باحث مصري متخصص في الفلسفة، عمل بالصحافة اسمه "أمير إسكندر"، وهو من طليعة التقدميين في الوطن العربي، كما ورد في مقدمة الكتاب، مما لا شك فيه أن الكتاب يحمل الكثير من المبالغات، فهو يعتمد على الصنعة الأدبية واللفظية كثيرًا، وأظهر صدّام حسين في ثياب الفرسان الذين يحملون من أخلاق الفروسية والنبالة ما يجعل العين تدمع.

مثلًا الطفل الصغير صدّام يحمل من أخلاق المسيح، "من كان لديه ثوبان فليعطِ أحدهما لمن ليس له"، إذا وجد صديقًا سترته بالية ممزقة خلع سترته وأعطاه إياها، وهو في الصف الخامس الابتدائي يعلم أن فرسه قد ماتت، وتكون الصدمة الكبرى التي لا يحتملها قلبه فـتُشَلّ ذراعه كمدًا مدة عشرة أيام حتى يُشْفى.

على أي حال لقد اخترت ما وجدته ملائمًا وفي سياق كتابي هذا الذي أحرص على حيادي فيه.

مولده ونشأته

في 28 نيسان من عام 1937 وُلِدَ صدّام حسين عبد المجيد التكريتي بقرية تُدعى "العوجة"، تقع في مدينة تكريت العراقية، الواقعة على بُعد نحو 170 كم شمال غرب بغداد، وكان يتيم الأب، تربَّى مع والدته وزوجها إبراهيم. كان له إخوة غير أشقاء هم وطبان الحسن وسبعاوي الحسن، وبرزان التكريتي. تكريت أو "تغريت" بالسريانية القديمة كانت تسمى أيام الاحتلال الروماني"ميونيا تيغريديس"ومعناها قلعة دجلة.

تلقى صدّام تعليمه الابتدائيّ في منطقة تكريت بعد أن أصرّ على هذا، حيث إن التعليم لم يكن متعارفًا عليه في قريته، ثمّ انتقل إلى مدرسة الكرخ الإعداديّة وهي إحدى المدارس المعروفة بالعراق، ثمّ تلقى تعليمه الثانوي بعدها أجرى محاولات للالتحاق بالأكاديمية العسكرية، لكنه مُنع من ذلك بسبب درجاته الضعيفة وتدنّ مستوى تحصيله العلمي، تزوّج صدّام حسين عام 1962 بابنة خاله ساجدة خير الله طلفاح، وأنجب منها أبناءه: عديّ وقُصّي وثلاث بنات هن: رغد ورنا وهالة.

وتزوج في الثمانينيات سميرة شهبندر والتي "لم يعلن الزواج رسميًا ولم يرد ذكرها قط".

علاقته بحزب البعث:

ككل الشباب في ذلك الوقت تأثر صدّام حسين بأفكار القومين والبعثين وتبنى هذه الأفكار في البداية، حيث دخل إلى حزب البعث في عام 1956، وذلك عندما كان طالبًا بالمرحلة الثانوية، وبعد العدوان الثلاثي على مصر، في هذا الوقت كانت هناك خمسة أحزاب في العراق:

"حزب البعث العراقي، والحزب الشيوعي، الحزب الوطني الديمقراطي، حزب الاستقلال، الحزب القومي الكردستاني".

وفي عام 1958 قامت الثورة العراقية وحدث تغيير سياسي مهم في العراق وقتها حيث شكّلت تلك الأحزاب جبهة وطنية لمقاومة الاحتلال ورموز الاستعمار والعمل على الوحدة بين العرب والأكراد ونجح مجموعة من الضباط غير البعثين باستلام الحكم بقيادة "عبد الكريم قاسم" الذي أطاح بالملِك "فيصل الثاني".

بالطبع فإن الأحزاب الخمسة تصارعت فيما بينها، وانفرد عبد الكريم قاسم بديكتاتورية مطلقة، واتخذ الحزب الشيوعي قرارات لم تكن في صالح العراق حسب ما ورد في كتاب إسكندر، وحدثت صراعات دموية بين الأحزاب القومية والحزب الشيوعي عام 1959، ولم يهتم عبد الكريم قاسم بحلّ ذاك الصراع كونه رئيسًا للجمهورية،

فقرّر حزب البعث اغتيال قاسم الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء الذي أمر باعتقال الحزبيين، ففرّ عدد منهم إلى خارج العراق، وكان من بينهم صدّام حسين الذي أُصيب في قدمه برصاصة وفي عام 1960 أصدرت المحكمة العسكرية العليا في العراق حكمًا بإعدام صدّام حسين ومجموعة من أعضاء الحزب الفارين، كان صدام قد فرّ إلى سورية التي بقيَ فيها ثلاثة أشهر قبل أن يأتيَ إلى مصر.

وفي مصر أكمل دراسته الثانوية بمدرسة قصر النيل، وعاش مع أصدقائه الهاربين من حكم الإعدام في فيلا بالدقي.

وهو في مصر انضم تحت لواء التنظيم الحزبي وتدرج في المناصب حتى صار قياديًّا ممن يشرفون على الحركة في التنظيم الذي يشرف على تنظيمات السودان وقطاع غزة وشمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية.

وفي تلك الفترة خطب صدام "ساجدة" ابنة خاله، على أن يتزوجها بعد عودته للعراق.

عاد صدّام إلى العراق بعد فشله في إنهاء الدراسة في مصر ونجاح البعثيين في الانقلاب على حكومة "قاسم" عام 1963.

- سنوات الصراع على السلطة:

بعد أن استلم عبد السلام عارف رئاسة الجمهورية العراقية سرعان ما دبّ خلاف بينه وبين أنصار الحزب فقام بانقلاب على حزب البعث. نجحت الأجهزة الأمنية التابعة لعبد السلام عارف من إلقاء القبض على صدّام حسين عام 1964 وأودعته السجن، وفي تلك الفترة قرأ صدّام العديد من روايات الأدب العالمي، وتوطدّت علاقته بالأدب خلال تلك الفترة، وقام حزب البعث بانتخابه أمينَ سِرٍّ للقيادة القطرية للحزب عام 1966، وهو في السجن تقديرًا له.

استطاع صدّام حسين في العام نفسه أن يهرب من السجن، وقام بعد ذلك بإنشاء نظام أمني داخل الحزب عُرف باسم "جهاز حُنَيْن" كما تولى مسئولية التنظيم الفلاحي والنسائي. استطاع حزب البعث في العراق أن يطيح بحكم عبد الرحمن عارف "الذي تولى الرئاسة خلفًا لأخيه عبد السلام إثر مقتله في حادث تحطم مروحية" وكان صدّام حسين على رأس القوة التي داهمت القصر الجمهوري. تولى الفريق أحمد حسن البكر السلطة في العراق فيما أصبح صدّام نائبًا لرئيس مجلس قيادة الثورة عام 1968.

ثم عُيِّن رسميًا لهذا المنصب في 9 نوفمبر 1969، وظَلَّ في هذا المنصب مدة 10 سنوات، قام خلالها بتدعيم نفوذه وصلاته مع أفراد عشيرته الذين وضعهم في مناصب حساسة في الجهاز الحكومي والإداري والعسكري للدولة.

أجرى إصلاحات واسعة النطاق وأسس أجهزة أمنية صارمة وأثارت سياساته هو والرئيس قلقًا عند الغرب، حيث قام صدّام حسين بعمليات اعتقال ومحاكمات وقتلٍ طالت العديد من أعضاء حزب البعث حتى وصلت إلى أكثر من **450** فردًا بتهمة محاولة الانقلاب على حكم الرئيس ومعارضتهم له.

وكونه كان مسؤولًا عن الأمن الداخلي في العراق، فقد بنى لنفسه جهازًا أمنيًّا ضخمًا استطاع أن يرصد فيه تحركات الكثير من أعضاء الحزب وقادته، وهذا ما ساعد صدّام وببساطة طوال سنوات حكمه على الاستئثار بالسلطة.

في فقرة من فقرات كتاب "الكتاب الأسود لصدّام حسين" يخبرنا كريس كوجيرا ومن خلال المقدمة التي كتبها للكتاب "بأن الحرب الأميريكية ربما لم تكن حلًّا مناسبًا لوضع نهاية الدكتاتورية الصدامية، لكن، في ظلّ نظام مستقوٍ بعناصر داخلية ثابتة الأقدام (الأمن، المخابرات، الحرس الجمهوري، أشبال عديّ، فدائيّ صدام، القوات الخاصة) وأركانه الراسخة في إرهاب المواطنين، لم تكن هناك حلول أخرى، ذلك أن الحركات الشعبية لم تكن قادرة على قلب ذلك النظام".

ويتساءل الكاتب "حازم صاغية" في فقرة أخرى من الكتاب سؤالًا افتراضيًّا في سياقه التاريخي العالمي، لكنه ينبع من استئثار تاريخي بالسلطة في العراق في عهد صدّام وعائلته، فهو يسأل:

"إن كان يوجد لدى هتلر أو ستالين ابن عم أو أخ؟"

ومن خلال السؤال يشكّك في إرفاق صفة الشمولية لحزب البعث ويقترح اختيار اسم آخر:

"حكم عائلي، ديكتاتوري، قمعي، دموي.. إلخ" لأن الشمولية أو "التوتاليتاريزم" كانت نتاج الحداثة الغربية. كما أن هتلر وستالين خاضا في حياتهما سجالات سياسية وأيديولوجية وحزبية ودينية وكانت طريق الوصول إلى السلطة أمامهم وعرة وغير ممهدة.

أما في حالة صدام فالمسألة لم تحتج سوى إلى الاغتيالات السرية العلنية أيضًا وإلى ترويض النفس على استخدام وسائل القتل، فضلًا عن إشراك العائلة والبيئات المقربة "العشائرية والمذهبية" في الاستئثار بالسلطة.

نُصِّبَ صدّام رئيسًا رسميًا لحزب البعث الحاكم عام **1970** الذي تولّى السلطة فعليًا في العراق. في عام **1972** عَقَدَ العراق معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفييتي في أثناء الحرب الباردة مدتها **15** عامًا، وقام بتأميم شركة النفط الوطنية التي أُسِّست في ظل الإدارة البريطانية، وكانت تبيع النفط بأسعار رخيصة للغرب استثمر بعض أموال النفط عقب الثورة النفطية التي تلت أزمة عام **1973** في مجال الصناعة والتعليم والعناية الصحية، الأمر الذي رفع المستوى المعيشي في العراق إلى أعلى مستوى في العالم العربي.

في 16 يوليو 1979 أعلن رئيس الجمهورية أحمد البكر عن استقالته بحجة أنه أصبح كبيرًا وضعيفًا، إلا أن صدّام كان قد أجبره على ذلك ليصبح هو الرئيس الفعلي للعراق بعد أن كان نائبًا للرئيس. وكان أول قرارته الإفراج عن آلاف المعتقلين، بعد توليه الحكم وقال:

"إن القانون فوق الجميع، وإن اعتقال الناس دون إعمال القانون لن يحدث ثانية أبدًا".

في عام 1980 بدأت المناوشات بين إيران والعراق واستمرت الحرب ثماني أعوام، وفي بداية الحرب أعلن الرئيس صدّام حسين مطالبه من إيران وهي: الاعتراف بالسيادة العراقية وإنهاء الاحتلال الإيراني لجزر (أبو موسى) في الخليج وطنب الكبرى وطنب الصغرى وأن تكف إيران عن التدخل في الشئون الداخلية للعراق.

قتل خلال تلك الحرب أكثر من مليون شخص، وخسر الجانبان مبالغ مالية وصلت إلى أكثر من 800 مليار دولار.

وفي عام 1981 خلال الحرب الإيرانية العراقية نفذت الطائرات الإسرائيلية هجومًا على المفاعل النووي العراقي الذي يقع بالقرب من مدينة بغداد، وحوّلته إلى أنقاض خلال ثوانٍ معدودة من القصف، في

20 أغسطس عام 1988 تم وقف إطلاق النار رسميًا في الحرب العراقية الإيرانية. وبعد انتهاء الحرب تراكمت الديون على العراق، وفي السنة نفسها التي انتهت الحرب فيها مع إيران قامت دولة الكويت بتخفيض أسعار النفط وضخّت كميات كبيرة من حصتها من النفط من الحقول النفطية المشتركة بين البلدين، وقد رفضت الكويت أيضًا إلغاء ديون الحرب عن العراق، الأمر الذي جعل صدّام حسين يبدأ الحرب مع الكويت في أغسطس عام 1990 حيث قامت القوات العراقية بالدخول إلى الأراضي الكويتية.

قامت الأمم المتحدة بفرض عقوبات اقتصادية على العراق وتم إصدار عددًا من القرارات تدين فيها العراق، وتم تشكيل تحالف دولي، واحتشد مئات الآلاف من الجنود في الخليج وفي 17 يناير 1991 بدأت هذه القوات بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية حرب الخليج الأولى "عاصفة الصحراء" التي قادها الولايات المتحدة بدعم من دول العالم والتي بدأت بهجمات جوية على كل من الأراضي الكويتية والعراقية وانتهت في 28 فبراير عام 1991 بخروج القوات العراقية من الكويت.

وكعادته وفي العام نفسه 1991 قامت القوات العراقية بأمر من صدّام حسين بمذابح ضد الأكراد الذين ثاروا ضد حكمه بعد أملهم بتقدم القوات الدولية لقد كانت مأساة إنسانية بكل المعايير.

يقول "فرجوس م. بودفيتش" المحرر المتجول في "ريدرز دايجست":

"إن قوات التحالف الأمريكية، سمحت للرئيس العراقي في خطوة لا يمكن تفسيرها، بشن هجوم مضاد على الأكراد، بعد أن دعاهم الرئيس بوش (الأب) للإطاحة بصدام بعد انتهاء حرب الخليج، والاستيلاء على النقاط الرئيسية التي كان يشغلها الجيش العراقي بالشمال. لقد هرب أكثر من مليوني كردي من قُراهم في السفوح إلى أعالي الجبال وإلى تركيا وإيران. ومات ألوف منهم قبل أن تجبر قوات التحالف القوات العراقية على التراجع".

ومنذ عام 1991 دخلت العراق في حصار اقتصادي أدى إلى موت آلاف الأطفال العراقيين بسبب نقص الغذاء والدواء، كما قام صدّام بإحكام قبضته الأمنية من جديد على الشعب بعد أن خسر حربه مع القوات الدولية.

وفي عام 1994 بدأت لجان التفتيش الدولية عن أسلحة الدمار الشامل عملها في العراق بعد تقارير تفيد بأن العراق يعمل على تطوير أسلحة غير تقليدية. لم يكن الأمر صحيحًا بالطبع، وكانت كلها مزاعم أمريكية تُسوِّغ لها وضع يدها على بترول المنطقة والتحكم فيه، وصدّام حسين بمنتهى البساطة منحهم الفرصة.

قبل بدء احتلال العراق عام **2003** طلبت الولايات المتحدة الأمريكية والعديد من الدول العالمية والعربية من صدّام حسين التنحي عن الحكم، تجنبًا لعملية الغزو الأمريكية، والتي أعلنتها واشنطن، إلا أنه رفض ذلك وأصرّ على البقاء في السلطة. وجاء القرار الأمريكي بناءً على تصور مسبق منها لاحتلال العراق، وبحجة أن صدّام لا يزال مراوغًا بشأن أسلحة الدمار الشامل، وأنه يمتلك أسلحة بيولوجية ونووية وبرامج لها.

وكان الغزو وسقطت بغداد، سقطت عاصمة العلم والمعرفة والحضارة، بسبب رجل واحد، هذا الرجل شُوهِدَ لآخر مرة بين الناس وهو يردد: "لقد خانوني"، كان هذا يوم **3** أبريل **2003** يوم سقوط تمثاله في العاصمة العراقية بعد فترة حكمه التي قاربت خمسة وعشرين عامًا تقريبًا.

واستطاع الرئيس صدّام أن يبقى متخفيًا مدة ثمانية أشهر قبل أن يتم إلقاء القبض عليه واعتقاله مساء يوم السبت **13** ديسمبر **2003**، وتم توجيه اتهامات له بارتكاب جرائم ضد الإنسانية وأعلنته الولايات المتحدة الأمريكية أسير حرب في عام **2005**،بدأت محاكمة صدّام حسين في محكمة استنكرتها هيئات حقوق الإنسان العالمية ووُصِفَتْ

بالمهزلة وطالب الادّعاء العام بالحكم عليه بأقصى عقوبة. وفي الخامس من نوفمبر عام 2006 أصدرت المحكمة حكمًا بإعدام الرئيس صدّام حسين شنقًا حتى الموت.

وتم تنفيذ الحكم في 30 من ديسمبر 2006 صبيحة يوم عيد الأضحى لهذا العام.

يُعتبر الرئيس الراحل صدّام حسين واحدًا من أكثر الشخصيات العربية جدلًا، إلا أنه وعلى الرغم من جدليّته تلك، فإنّ له مكانة في قلوب عدد كبير من معجبيه ومحبّيه، خاصة بعد إلقاء القبض عليه من قبَل قوات التحالف ومحاكمته ثم إعدامه، فكارهو أمريكا بالضرورة يحبون صدّام، وهو أصبح شهيدًا، وجرائمه أصبحت وكأنها لم تكن!

لقد قرأت لأحدهم وصفًا لسنوات حكمه للعراق "إنها كانت زاهية وباهية" ولا أدري كيف كان هذا مع قائمة ضحاياه؟ لقد ارتكب صدّام ولا شك جرائم تطهير عرقية تجاه الأكراد والشيعة، فضلًا عن معارضيه ومن يتغافل عن تلك الحقيقة فهو إما واهم! أو غافل!

في الكتاب الأسود لصدّام، يستخلص المؤرخ الأمريكي "بيتر سلوجليت" آليات تركز سلطة حزب البعث:

"من بيئات داخلية اعتمد فيها صدّام الاغتيال والإبعاد والترهيب، وخارجية متمثلة بالدعم غير المباشر للآلية ذاهّا والصمت حيال القتل المنهج الذي مارسه صدّام".

في كتاب صدّام حسين الأسود كتب الوزير الفرنسي الأسبق "بيرنار كوشنر" يقول:

"كان صدّام حسين من أسوأ الطُّغاة في تاريخ العالم، وكان تحرير الشعب العراقي منه أمرًا ضروريًّا ومستعجلًا".

في عام 1974 حين زار كردستان مع فريقه المكوّن من أعضاء منظمة أطباء بلا حدود رأى على طريق رواندوز أول مشاهد الموت، وكان بجانبه حسب وصفه الصحفي كريس كوجيرا المختص بالشئون الكردية. لقد اكتشف كوشنر وكوجيرا أن حكومة بلديهما فرنسا قد باعت الموت لصدام.

"إن القنابل التي كانت تخرج من طائرات الهيليكوبتر العراقية فرنسية، كما أن كاميرات فريقنا فرنسية أيضًا".

عندما بدأ كوشنر وكوجيرا رحلتهما للتحقق من سياسة البعث تجاه الكرد في العراق اكتشفا البداية الحقيقية لسياسة الجينوسايد البعثي ضد الأكراد والشيعة. إن جرائم صدّام ومقابره وسجونه ومخابئه السرية وحروبه المتالية لا تُعَد ولا تُحصى، فهو لم يرتكب أخطاءً على حد وصف البعض، بل ارتكب جرائم في حق الإنسانية.

فاستخدام الغازات السامة والإبادة المنهجية ضد الأكراد والشيعة والمعارضين كان عبارة عن أخطاء كما يرى الكثيرون وليس جرائم ضد الإنسانية؟! وهل يختلف يهود أوروبا وكولاك روسيا عن أكراد العراق؟

الحقيقة المجردة. صدّام حسين كان مُستخدمًا من قِبَل الغرب، بين ألعاب السياسة ومصالح الشراكة،وصفقات الأسلحة البيتروكيميائية، والطائرات والمعدات، والتجهيزات العلمية، لأجل هذا صمتت القوى الكبرى عن المجازر البشرية التي ارتكبها، في النهاية عندما انتفى الغرض منه، كان التخلُّص منه هو الأمر الأسهل "لقد خانوه"!

على أي حال دعونا من الطاغية، ولنتجول مع المبدع قليلًا.

عندما كنت أقوم بإعداد الكتاب، علمتُ مصادفة من تقرير نشرته صحيفة الجارديان البريطانية في يوليو الماضي أن دار نشر "هيسبوريس"، أعلنت عن إضافة كتاب جديد لقائمة الروايات التي كتبها زعماء مُستبدُّون، الرواية للرئيس السابق صدّام وهي أول ترجمة إنجليزية لرواية كتبها عام 2002 أو 2003 بعنوان "اخرج منها يا ملعون" وأن الرواية ستنضم لقائمة الروايات التي تدخل مضمار المنافسة قبيل احتفالات عيد الميلاد.

هي عبارة عن "مزيج بين صراع العروش وبيت من ورق" حيث تُصور الرواية المُنتظرة رجلًا عربيًا نبيلًا يقاتل الأعداء. إن صدّام

حسين هو أغزر الطُغاة إنتاجا أدبيًا يستخدم الرمزية الأخلاقية في رواياته دائمًا، فهو مُوّلع بالقومية وأمجادها، أشهر أعماله هو "زبيبة والملك"، وهي رواية صدرت عام 2002 التي تفّر فيها البطلة "العراق" من زوجها الخسيس والمعتدي "الولايات المتحدة"، وتقع في حُبٍّ ملكٍ حازمٍ قاسٍ لكنه عطوف "الكاتب صدّام"، وتُغتصب زبيبة من مجهول الذي تكشف عن كونه زوجها، وفي نهاية الرواية تموت زبيبة المرأة الجميلة الحكيمة العاقلة.

هي العراق التي ماتت بعد حرب الكويت 1991 ربما أهم جملة وردت على لسان زبيبة والتي توضح المغزى من الرواية هي جملتها عندما يتم اغتصابها:

"الاغتصاب هو أخطر الجرائم سواء أكان رجلًا يغتصب امرأة، أو جيوشًا غازية تغتصب وطنًا أو اغتصاب حقوق".

الرواية نُشِرت بلا اسم للمؤلف، وقيل إن المخابرات المركزية الأمريكية تكهنت بأنه صدّام بعد أن تم قراءتها وتحليلها ومن ثم محاولة تحليل صدّام نفسه، الذي اعتمد على الجو الأسطوري القديم، فبدت المملكة في العصور الوسطى، وزبيبة كانت من الفصاحة والبراعة والجمال بالدرجة التي أهلتها لأن تكون نديمة الملك.

لقد قمت بقراءة الرواية في الحقيقة، لا أستطيع أن أعتبرها عملًا أدبيًا مميزًا، ولا استطيع أن أنفي عنها صفة الإبداع تمامًا، أكثر ما

لفت انتباهي فيها، هو نرجسية الملك الذي هو صدّام وعشقه لزبيبة التي هي العراق، جو القصر وطريقة الوصف لا تخلو من تلك المسحة التي تحمل طابع الفخر أو ما تُصنِّفه تحت بند العنتريات، ولكن بسياق رومانسي.

لقد أُعْدِمَ صدّام وعمره يقارب السبعين عامًا ولكنه ولا شك، وبغض النظر عن كل أفعاله وجرائمه، عاش ومات مُحَمّلًا بما ترسَّخ في عقول الأجيال السابقة القومية، والمجد الضائع، والعملاء والخونة. وقصيدته التالية تعبر عن هذا.

قصيدة صدّام حسين قبل استشهاده يخاطب العرب فيها:

قلبي معي لم ينفه أعدائي ** والقيد لم يمنع سماع دعائي

ما كنت أرجو أن أكون مداهنًا ** بعض القطيع وسادةَ السفهاءِ

من قال إن الغرب يأتي قاصدًا ** أرض العروبة خالص السراءِ؟

من قال إن الماء يسكر عاقلًا ** والعلج يحفظ عورة العذراءِ؟

من قال إن الظلم يرفع هامةً ** ويجرُّ في الأصفاد كل فدائي؟

مَن كبّل الليث يكون مسيدًا ** حتى وإن عُدّ من اللقطاءِ

إني أحذركم ضياع حضارةٍ ** وكرامةٍ وخديعة العملاءِ

هذا إبائي صامد لن ينحني ** ويسير في جسمي دمُ العظماءِ

وهكذا كان الرجل، لقد ظلّ يرى نفسه عظيمًا حتى النهاية.



معمّر القذافي

7 يونيو 1942 - 20 أكتوبر 2011



رحّال!

ربما الكثيرون منكم قرؤوا قصة قصيرة كنت كتبتها منذ سنوات اسمها رحّال، مؤكد بطلها يختلف كثيرًا عن معمّر محمد عبد السلام القذافي، ولكنهما يتشاركان في أن كليهما من قلب البادية، أتى!

من خلف الخيام ومن أعماق الصحراء، أبناء الصحراء، البدو! كيف نتفهم حياتهم إلا إذا خبرناها وعشناها! كيف نتفهم أن الاستقرار لا يجد لنفسه سكنًا بين جوانحهم، وكيف له من سبيل، وهم دائمًا على سفر بين شِعابٍ وقِفارٍ ومواطن كلأ قليل وماء شحيح! لا يهدؤون! ولا يطمئنون لشيء، لا يعرفون الأمان في تلك الفيافي الشاسعة، ولا يثقون بشيء أو بأحد ربما باللحظة الآنية وما تمنحه لهم.

فالآن مرعى لحيواناتهم وماء، وغدًا رياح تحمل من الصحراء رمالها وجفافها وقسوتها. الإنسان ابن بيئته، هذا أمر ليس قابلًا لأخذٍ ورد، بل هي حقيقة تتفاوت درجات انعكاسها بين شخصية وأخرى ليس أكثر!

لتنتهي كل الحكايات إمّا برحّال مثل بطل قصتي، أو رحّال مثل القذافي!

وُلِدَ معَمّر في أسرة بدوية من قبيلة القذاذفة في 7 يونيو 1942 وإن كان هذا التاريخ غير مؤكد كانت العائلة أميّة لا تقرأ ولا تكتب، ولم تكن مسجّلة في سجل المواليد، قريته اسمها "جهنم" بالقرب من شعيب الكراعية في وادي جارف بمنطقة سرت – ربما لهذا كتب في قصته القصيرة عن الهروب من جهنم إلى جهنم–كان والد القذافي راعي أغنام وبعير، لكنه كان يرغب في تعليم ابنه في المدرسة، أرسله إلى بلدة "سرت "حيث أكمل دراسته وحصل على الابتدائية عام 1956 ثم انتقل لمدينة "سبها" بالجنوب.

مثل غيره من ذلك الجيل الذي انتمى لتلك الفترة المشحونة بالتغييرات السياسية والثورات، والأفكار عن الوطنية والقومية تشبع بتلك الأفكار وتأثر بها ورأى في ناصر البطل القومي، تورط القذافي بنشاطات سياسية، وهو بعد مراهق صغير بالرابعة عشرة من عمره، انتقد النظام الملكي واشترك في مظاهرات ضد تفكك الروابط بين مصر وسوريا وعلمت إدارة المدرسة بهذا النشاط فطُرِدَ منها عام 1961، وغادرت عائلته سبها وانتقلت إلى مصراتة التي أكمل دراسته الثانوية بها، توسّع في أنشطته السياسية.

رفض الاشتراك في أي جماعة قومية أو حزبية من الجماعات المنتشرة بذلك الوقت، واهتم بقراءة كل ما يخصُّ الزعماء والرؤساء والثورات. درس القذافي في جامعة بنغازي ولم يستكمل دراسته بها، وانخرط في المؤسسة العسكرية، وشكّل مع زملائه مجموعة من الضباط الذين يمتلكون من الأفكار الثورية ما يؤهلهم للقيام بثورة تُشبه ثورة الضباط الأحرار في مصر، وبعد أن تخرجَ القذافي عام 65 أرسل في بعثة لإنجلترا بأكاديمية ساند هيرستَ العسكرية الملكية، وبقي فيها بعض الوقت وإن لم يستكمل دراسته قط.

أصبح ملازمًا في الجيش الليبي، بعد إنضمامه للجيش الليبي كوّن القذافي مجموعة الضباط الوحدويين الأحرار، ولعب الملازم القذافي دورًا جوهريًا في الانقلاب على الحكم السنوسي على الملكيّة الدستوريّة الّتي كان يحكمها الملك إدريس الأوّل، وسُمّيت ثورته "ثورة الفاتح من سبتمبر" عام 1969، وأطاح بحكم الملك إدريس الأول الذي لم تكن حكومته تحظى بشعبية كبيرة في الستينيات. كان الانقلاب سلميًا، وغير دموي، حيث كان الملك في تركيا يمضي عطلة الصيف.

حكم ليبيا وهو شابٌّ دون الثلاثين من العمر، وأعلن الجمهورية في بلاده ثم أطلق على نفسه لقب قائد الثورة، وشَغَلَ منصب رئيس مجلس قيادة الثورة حتى عام 1977، حين أعلن ليبيا أول جماهيرية في

العالم، وقدّم نظام الحكم الجماهيري الجديد، كما شغل منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة منذ عام 1969، أطلق على نفسه لقب "العقيد القذافي".

أعلن القذافي قرارته غير مألوفة فور توليه السلطة، حيث غير أسماء الشهور والتقويم، ومنع بيع الكحول نهائيًا، وطالب شركات النفط بزيادة حصة ليبيا من عوائد استخراجه، وبدأ في إجراء بعض الإصلاحات الاقتصادية في البلاد، وفي عام 71 وقع مع الرئيسين السادات وحافظ الأسد اتحاد الجمهوريات العربية.

كانت له أفكار غريبة أثارت الانتقادات حوله في ليبيا وخارجها، انفرد بالقرار في ليبيا مدّة "أربعة عقود" وحكمها مدّة 42 عامًا وهي أطول حكم لحاكم غير ملكي في التاريخ.

وكان نظام الحكم لديه، لا بالجمهوريّ أو الملكيّ، بل مزيج من الأنظمة القديمة والحديثة.

ربما أكثر ما يميز العقيد القذافي هو أفكاره المثيرة للجدل، كان أولها كتابه الأخضر الذي يتضمن ما أسماه النظرية العالمية الثالثة التي اعتبرها تجاوزًا للماركسية والرأسمالية، وتستند إلى حكم الجماهير الشعبية، وتم اعتماد اللون الأخضر لونًا رسميًا في البلاد.

طرح من خلاله نظرية تقوم على سلطة الشعب عن طريق ما أسماه "بالديمقراطية المباشرة" من خلال المؤتمرات الشعبية الأساسية كأداة

للتشريع واللجان الشعبية كأداة للتنفيذ، وهي طرح اشتراكي بصورة جديدة وصفها بخُلاصة التجارب الإنسانية، وكان من أدواته لإدارة السلطة اللجان الثورية التي لا تهدف الوصول إلى السلطة.

أصبح كتابه الأخضر أيقونةً للجماهير، كان القذافي يعلن أكثر من مرة أنه يقود ولا يحكم، مع أن الواقع أنه تمسّك بالسلطة، وكرَّس كل الصلاحيات والمسئوليات في يديه.

في 2 مارس 1977 اعتمد المؤتمر الشعبي العام إعلان إنشاء سلطة الشعب بناء على طلب القذافي وحلّ الجمهورية العربية الليبية؛ لتحل محلها الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية على أساس دولة الجماهير، حيث يحكم الشعب نفسه من خلال المؤتمرات الشعبية التي أعلنها القذافي لسد حاجة ليبيا لكل قرار سياسي؛ مما يجعل المنظمات السياسية الأخرى بلا داعي، ففرض الحظر على الأحزاب السياسية والنقابات المهنية والعمالية المستقلة والنسائية.

في ديسمبر 1978 استقال القذافي عن منصبه رئيسًا وأمينًا عامًّا للحزب المؤتمر الشعبي العام معلنًا تركيزه على الثورية بدلًا من الأنشطة الحكومية، أي فصل جهاز الثورة من الحكومة، ومع هذا استمر بتسمية نفسه "قائد الثورة" والقائد الأعلى للقوات المسلحة.

نظرًا للعلاقات التجارية القوية مع الاتحاد السوفييتي وزيارته لموسكو وتهديده بالانضمام لحلف وارسو فإن العلاقات الليبية

الأمريكية بلغت حدًّا من السوء، اتضح مداه مع بداية المناورات العسكرية الأمريكية بخليج سرت في أغسطس 1981، حيث أسقطت قوات البحرية الأمريكية طائرتين ليبيتين من نوع سوخوي سو-17.

في السنوات التالية أُغْلِقت السفارة الليبية في واشنطن، ونفّذت الولايات المتحدة حظرًا على النفط الليبي.

أوقفت جميع الشركات الأميركية تعاملاتها هناك، وفي عام 1986 بدأت البحرية الأمريكية مناورات جديدة في خليج سرت، وردّت القوات الليبية ضدها، وأغرقت القوات الأمريكية عدة سفن ليبية. اتهمت الولايات المتحدة ليبيا بتدبير تفجير ملهى "لابيل" في برلين 1986 تُوفّي فيه ثلاثة جنود أمريكيين، وأُصيب مائتي جريح، قررت أمريكا الرد عسكريًّا وأيدها بريطانيا، أطلقت طائرات عسكرية أمريكية في عملية "الدورادو كانيون" حيث قامت بسلسلة من الغارات الجوية على ليبيا، وتم قصف المنشآت العسكرية في أجزاء مختلفة من البلاد، مما أسفر عن مقتل نحو 100 من الليبيين بعضهم من المدنيين، وكانت أحد تلك الأهداف الرئيسية ثكنة باب العزيزية التي تعتبر معقل القذافي، زَعَمَ فيه ان ابنته بالتبني هناء الرضيعة قُتلت بتلك الغارة، أُدينت الولايات المتحدة دوليًا، وعززت تلك الغارة من شعبية القذافي داخليًّا، فهو قد هاجم علنًا الإمبريالية للولايات المتحدة.

"في 2011 وبعد مقتل القذافي في سرت، وُجِدت وثائق مختلفة تؤكد أن الفتاة لم تمت، وأنها تعمل طبيبةً في طرابلس، وأن القذافي أشاع هذا كي ينتقم من الإدارة الأمريكية".

في أواخر الثمانينات قام القذافي بإجراء سلسلة من الإصلاحات الاقتصادية الليبرالية داخل ليبيا تهدف إلى التعامل مع تراجع عائدات النفط. وفي شهر مايو عام 1987 أعلن القذافي ما أسماه "الثورة داخل الثورة" حيث بدأ عدة إصلاحات في الصناعة والزراعة، كما فرض قيودًا على أنشطة اللجان الثورية، وأنشأ وزارة للتعبئة الجماهيرية والقيادة الثورية لتقييد العنف ودورها القضائي، وأطلق سراح المئات من السجناء السياسيين، وادعّى عدم وجود سجناء سياسيين في ليبيا، وأصدر في يونيو 88 ما أسماه "ميثاق حقوق الإنسان في عصر الجماهير" من خلال27 مادة من الأهداف والحقوق والضمانات لتحسين حالة حقوق الإنسان في ليبيا وتقييد استخدام عقوبة الإعدام، وأسّست الحكومة عام 1989 جائزة القذافي الدولية لحقوق الإنسان والتي تُمنحها شخصياتٌ من العالم الثالث الذين كافحوا ضدّ الاستعمار والإمبريالية، وفاز بها الزعيم "نيلسون مانديلا" في عامها الأول.

بين لجان التطهير القضاء على الفساد، وتأسيس اتحاد المغرب العربي، دعم ليبيا لمتشددين مناهضين للغرب مثل الجيش الجمهوري الأيرلندي الحر ثم حادثة تفجير طائرة :بان إم" رحلة 103 فوق قرية

"لوكيربي" بإسكتلندا مما أسفر عن مقتل 243 راكبًا و16 من أفراد الطاقم، بالإضافة إلى 11 مواطنًا إسكتلنديًا.

حددت التحقيقات أن المشتبه فيهما بتنفيذها ليبيا وطالبت بتسليمهما، لكن القذافي رفض وفُرِضَتْ العقوبات الاقتصادية ضد ليبيا والتي عانت خسائر مالية تُقدَّر بما يقرب من 900 مليون دولار، كما أطاحت الولايات المتحدة بطائرتين من الطائرات الحربية الليبية قبالة الساحل الليبي في يناير عام 1989.

بوقت لاحق رفض القذافي فكرة القومية العربية والتي نشأ عليها منذ سنواته الأولى، وبدلًا من ذلك التفت إلى الوحدة الأفريقية مؤكدًا هوية ليبيا الأفريقية، كان قد عمل جاهدًا من قبل لإعلان الوحدة مع تونس، لكنّه باء بالفشل، وعندها أصبح يسعى إلى مشروع أفريقي بعد فشله بالمشروع القومي العربي، حيث أعدّت ليبيا عدة اتفاقات وترتيبات المعونة الثنائية مع 10 دول إفريقية، وانضمت إلى تجمع دول الساحل والصحراء.

دعا في قمة منظمة الوحدة الأفريقية في الجزائر عام 1989 إلى التكامل السياسي والاقتصادي وتأسيس الولايات المتحدة الأفريقية، كما أعلن في 2002 أن الدول الأفريقية يجب أن نرفض المساعدات المشروطة من العالم المتقدم.

في قمة الاتحاد الأفريقي الثالثة 2005 دعا إلى إصدار جواز سفر واحد لدول الاتحاد الأفريقي، ونظام دفاع مشترك، وعملة واحدة، واستخدام شعار: "الولايات المتحدة الأفريقية هي الأمل"

وانضمت ليبيا للسوق المشتركة لشرق وجنوب أفريقيا "الكوميسا" ليعلن نفسه فيما بعد "ملك ملوك أفريقيا" وأقيم له حفل تتويج رسمي في "أديس أبابا" بإثيوبيا، بالتزامن مع انتخابه رئيسًا للاتحاد الأفريقي مدة عام.

"هل القذافي وحده هو من يستحق الوصف بغريب الأطوار؟ أو ما يطلق عليه من الصفات الأخرى"!

هل مملكته الأفريقية تلك تُبرِّر ما قام به حيال جمهورية تشاد؟

بدأ الصراع الليبي التشادي بعد وصوله للسلطة، حيث ادّعى أنّ قطاع "أوزو" في شمال تشاد ينتمي إلى ليبيا بناءً على ما نصَّت عليه الاتفاقية الفرنسية الإيطالية عام 1935، وسعى للسيطرة على تشاد لتوسيع نفوذه الليبي في أفريقيا الوسطى. وتكمن أهمية قطاع أوزو باعتباره مصدرًا حيويًا للبترول الذي سينضب في وقت ما.

كانت النزاعات قد بدأت أوائل الخمسينيات تحت دعوى أن قطاع أوزو يقطنه السكان الأصليون الذي ينتمون للحركة السنوسية، واستندت ليبيا إلى اتفاق بين إيطاليا وفرنسا، تضمن تنازل فرنسا لإيطاليا عن شريط أوزو كي يصبح تحت سيطرتها في ليبيا

وعلى اتفاق آخر بين ليبيا وتشاد، ذُكِر فيه بأنّ قطاع أوزو منطقة تعاون مشترك وهي من حق ليبيا.

وصل الخلاف للعلن بعد وصولِ معمّر القذافي للحكم في ليبيا 1969 وعلى أثره قطع الرئيس التشادي "توم بلباي" العلاقات مع ليبيا، بعد سنتين توترت العلاقات بين البلد، فتنوعت بين صداقة وعدائية في الفترة بين 1970 إلى 1990.

ففي عام 1972 دخلت القوات الليبية إلى شريط أوزو، ومنحت سكانه بطاقات تعريفية، وأدارته القوات الليبية وضمّته إلى "مرزق الليبية" رسميًا في عام 1976. ولكي تسيطر ليبيا على أوزو سيطرة تامة دون نزاعات ترهقها، عملت على تمديد الفرق المتناحرة في تشاد حتى تزعزع أمن البلاد، مما يستدعي تدخل ليبيا فيها بحجة حماية الأمن والاستقرار التشادي.

عام 1981 أُعلِن وبشكل فجائي عن قيام وحدة بين تشاد وليبيا أثارت غضب الجميع: التشاديين والليبيين ومنظمة الوحدة الأفريقية وفرنسان واعتبروا أنّ الإعلان من طرف ليبيا دون علم تشاد محاولة من ليبيا للسيطرة على تشاد.

طالبت تشاد بخروج القوات الليبية، وخرجت خلال أسبوعين، ثم بعدها قام الرئيس "حسين هبري" بحرب مباشرة مع ليبيا لتحرير الشمال من القوات الليبية المحتلة، واستطاع هبري دخول الأراضي

التشادية بما فيها قطاع أوزو، وهزم القذافي ووصـــل إلى الأراضــي الليبية على قطاع صرة، وهُزِمَت قوات القذافي وأسَرَ هبري الآلاف منهم.

وبدأت المصالحات بين الطرفين من خـــلال تـــدخلات الـــدول الأفريقية، فاجتمع معمّر القذافي مع حسين هبري في "باماكو" عاصمة "مالي"، وتم في لقائهما إعادة العلاقات الودية بين البلدين بتـــاريخ 3 أكتوبرعام 1988. بينما أُحيلت قضية قطاع أوزو إلى محكمة العدل الدولية، وجاء الحكم لصالح تشاد في فبراير عام 1994.

"مما يدعونا للتأمل أن الزعماء العرب الذين يؤججون الصراع بين الشرق والغرب الاستعماري، والذين يتهمون بعضهم البعض بالعمالة والخيانة وما إلى ذلك من اتهامات، لا يتورعون عن اللجوء لمعاهدات ومواثيق تمت بين الدول الاستعمارية الكبرى عندما كانت تـــسيطر على بلادهم، يركنون إليها في صراعاتهم، التي لا تعني ســـوى أنهـــم وبصراحة شديدة، واجهة استعمارية أخرى، بشكل أو بـــآخر هـــم مغتصبون واستعماريون"!

في الجلسة الافتتاحية للقمة العربيـــة في ســـوريا 2009 هـــاجم الرؤساء العرب واتهمهم بالتآمر على بعضهم البعض، وأنهم "يكرهون بعضهم البعض ولا يتمنون الخير لبعضهم البعض"

حذر الزعماء العرب المقربون من الولايات المتحدة الأمريكية من مواجهة مصير الرئيس العراقي السابق صدّام حسين وطالبهم بتوطيد العلاقات مع إيران لأنها بلد مجاور ومسلم وليس من المصلحة معاداها، وأثار خطابه الضحك بين الأعضاء.

في مؤتمر الأمم المتحدة بنيويورك من العام نفسه وبعد وصول سنوات حكمه إلى أربعين عامًا ألقى خطابًا استغرق ساعة وخمسًا وثلاثين دقيقة استهله بأن بلاده لا تعترف بميثاق الأمم المتحدة، وأنه يمثل **1000** مملكة أفريقية، وطالب بتعويضات من الغرب على استعمار القارة السوداء، وطالب بدفع مبلغ **7.77** ترليون دولار تعويضات لأفريقيا على استعمارها.

"ليست هذه المرة الأولى التي يُطالب فيها القذافي بتعويضات باسم ضحايا، وإن لم يَمُتّ لهم بصلة، أو أن يجعل من نفسه وصيًا ومدافعًا عن حقوق مهدرة أو جرائم ارُتكبت في حق البعض فمن قبل طالب بتعويض بعد حادثة مقتل الأميرة ديانا ودودي الفايد في الحادثة الشهيرة في أغسطس **1997**، وكانت مبرراته في هذا جنسية الفايد الليبية الأصل".

مما يصف غرابة القذافي ويضع علامات الاستفهام حوله إصراره على اعتبار نفسه "قائد ثورة" ومؤيدًا للكثير من حركات التحرر كحركة الباسك في إسبانيا والحزب الجمهوري الأيرلندي وجبهة

البوليساريو والفصائل الفلسطينية، كما كان يقوم بدعم حركات تمرد وانقلابات وتمويلها في أنظمة عربية وأفريقية، ومع ذلك يقوم بقمع كل المعارضين لنظامه بقوة الحديد والنار.. من إعدام علني لطلاب بالجامعة المعارضين له على المشانق بالحرم الجامعي أو قتل مساجين رميًا بالرصاص، غير الانتهاكات والتعذيب للمساجين السياسيين أو أعضاء الجماعات الإسلامية.

عندما قامت الثورة التونسية انتقد القذافي الإطاحة بالرئيس التونسي السابق "زين العابدين بن علي"، وقال إن التونسيين تعجلوا الإطاحة به، وبعث برسالة تضامن في وجه الثورة المصرية في مكالمة هاتفية أجراها مع الرئيس السابق "محمد حسني مبارك".

لم يكن يدري أن الثورة اقتربت منه، ففي 17 فبراير 2011 بدأت الثورة الليبية التي انتهت بسقوط نظام القذافي في 22 أغسطس، ثم قتل معمر القذافي بمسقط رأسه بمدينة سرت في 20 أكتوبر 2011 إعدامًا أو تأثرًا بجراحه بعد أسْرِه من قِبل ثوار ليبيا برفقة ابنه المعتصم، ووزير الدفاع أبو بكر يونس.

نشر موقع "ويكيليكس" تقارير قالت إن معمّر القذافي يتصدر قائمة أثرياء الزعماء العرب بثروة تقدر 131 مليار دولار، بما يقارب ستة أضعاف ميزانية ليبيا للعام 2011 البالغة 22 مليار دولار وتحدثت التقارير عن علاقته برئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني، وامتلاكه لأسهم في شركات إيطالية ونادي يوفنتوس وشركة نفط "تام أويل" وغيرها.

حياة القذافي الزعيم بين تناقضات ما يطرح من أفكار وما يقوم به من أفعال، بين حياته بمخبأ وثكنة تحتوي خيمة بدوية، كما تحتــوي منزل العائلة المكون من طابقين ومجهز بملعبي تنس وكرة قدم وحدائق وحمام سباحة. بين وصايا الكتاب الأخضر عن المرأة التي يجب أن تلزم بيتها لأن:

"مكـان النـساء هـو البيـوت لأن تكليفهن بوظـائف الرجـال يفقدهن أنوثتهن وجمالهن"

وحرصه على أن تكون حارساته الشخصيات من الفتيات، أو ما أُطْلِق عليهن الأمازونيات واللاتي بلغ عددهن تقريبًا **400** حارســة داخل وحدة القوات الخاصة المكلفة بحمايته.

وبين أنصاره الذين يؤكدون أنه نجح في إقامة مجتمع لا طبقي، وقام بمكافحة التشرُّد، وضَمِنَ حصول الليبيين على الغذاء والمياه الصالحة للشرب، وأتاح لهم مجانية التعليم.

وبين معارضيه الذين يصفونه بالطاغية اتهامه هو وعائلته بالفساد، وهدر أموال الشعب، وقمع الحريات وغيرها من الاتهامات التي تواجه الزعماء في الأنظمة الشمولية.

وبين المتندرين عليه في سخرية، من ابتكاراته العجيبة فمنها مــا يُعالج الصراع العربي الإسرائيلي وتختزله في إقامة دولة جديدة تحــت اسم "إسراطين". أو قيامه بحجز شيوخ وأئمة المساجد بمكان منعــزل

بالصحراء كي يشرح لهم كتابه الأخضر ولما فشلوا في فهمه بعد أربعين يومًا أطلق سراحهم وأودعهم منازلهم، وجعل أئمة المساجد من الشباب الثوري الذين يستوعبون نظريته العالمية الثالثة، وغيرها من الأحداث، التي تجعل المتأمل حيالها ولا شك حائرًا.

هل قام الرجل بكل هذا؟ أين هو القذافي المبدع من كل هذا؟

ربما نظرة على الكتاب الأخضر أو بعض قصصه القصيرات ستمنحنا رؤية أكثر إيضاحًا.

يتكون الكتاب الأخضر من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الركن السياسي: مشكلات السياسة والسلطة في المجتمع.

الفصل الثاني: الركن الاقتصادي: حلول المشكلات الاقتصادية التاريخية بين العامل ورب العمل.

الفصل الثالث: الركن الاجتماعي: طروحات عن الأسرة والأم والطفل والمرأة والثقافة والفنون.

قبل الحديث عن الكتاب دعوني أخبركم، أنني فوجئتُ بمن يمتدحون الكتاب حَدَّ اعتباره مقدسًا يشبه الوحيّ من السماء، لقد قرأتُ دراسة لأستاذ لغة عربية بكلية الآداب بإحدى جامعات نيجيريا، وله موقع إلكتروني وأطروحات بحثية بشأن أعمال أدبية

وغيرها ومن بينها أطروحة تحت عنوان "روائع بيانيــة في الكتــاب الأخضر".

في الحقيقة لقد أضحكتني شروحاته وتفسيراته أكثر من الكتــاب نفسه على طرافته، أي سطحية تلك؟ وأي تزلف ومداهنة اعتنقهمــا هذا الرجل وهو يكتب ما كتبه عن الكتاب الأخضر!

ربما كنت تساءلت بتعليق عن تتويج القذافي ملك ملوك أفريقيا، هل القذافي فقط هو غريب الأطوار؟ وهأنذا أستنكر ثانية، هل القضية ما كتبه القذافي في كتابه أو في أعماله القصصية! أم فيمن ادّعوا أنهــا أعمال عبقرية لرجل مُلْهَم؟

"يعتبر الأخ العقيد القائد معمر القذافي من كبار المفكرين المشهورين في العالم اليوم، وكانت أفكاره نابعة من قلب واعٍ مُفعمٍ بالأحاسيس الإنسانية العالية، وكان هذا القائد متميزًا في أفكاره المبعثرة في عديد من مؤلّفاته ومقالاته القيمة لكن أكثر هذه الإنتاجات الفكرية انتشارًا وأرفعها ذكرًا وأعظمها شأنًا، الكتاب الأخضر الذي نُشر لأول مرة 1976 وصدرت بعد ذلك طبعات عديدة يُعنى بها المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، بطرابلس، ليبيا، فقد لقيَ هذا الكتاب قبولًا منقطع النظير، ودُرس دراسة شافية واسعة، وشُرح وتُرجم إلى لغات عديدة.

إضافة إلى قيمة الكتاب الأخضر الفكرية وبحثه عن الحياة الكريمة للإنسان ورسم الطريق الأفضل والأمثل له للوصـــول إلى الهـــدف الإنساني النبيل، فإنه يورد أفكاره دقيقة الخطوط، واضحة الملامـــح، فجاء بالألفاظ المباشرة المعبرة عن ذوات القلب وصاغها صياغة أنيقة في جُملٍ مُشرقة العبارات، عذبة التراكيب، الأمور التى إن دلت على شيء فإنما تدل على براعة معمر القذافي اللغوية ونصاعة أسلوبه، وتقرُّ عروبته الأصيلة وتغذيه بلبالها الصافية".

تلك هي المقدمة التي كتبها الرجل في أطروحته البحثية بـــشأن الكتاب.

لقد قمت بقراءة الكتاب الأخضر كي أفهمه وأستشعر الروائـــع البيانية التي تحدث عنها الرجل، أتدرون شيئًا؟ غلاف الكتاب مكتوب عليه:

"إن فكـر القـــذافي لا يُقـــدِّم ترفًـــا ومتعـــة، ولا يُقَـــدّم لهـــواة الصالونات.. إنه يفسر الحياة وينبثق من قلبها... إن الفكر الذي يعيش أبدًا هو الذي يكون لصيقًا بالحياة منبثقًا من قلبها".

وهذا جزء مما كتبه القذافي في الركن الاجتماعي للنظرية العالميـــة الثالثة من كتابه الأخضر.

يقول القذافي عن الفرق بين الرجل والمرأة :

"المرأة تجوع وتعطش كما يجوع الرجل ويعطش. والمرأة تحيا وتموت كما يحيا الرجل ويموت، ولكن لماذا رجل ولماذا امرأة؟ أجل. فالمجتمع الإنساني ليس رجالًا فقط، وليس نساء فقط فهو رجال ونساء.

أي رجل وامرأة بالطبيعة لماذا لم يُخلق رجال فقط؟ ولماذا لم يُخلق نساء فقط؟ ثم ما الفرق بين الرجال والنساء، أي بين الرجل والمرأة؟ لماذا الخليقة اقتضت خلق رجل وامرأة؟ إنه بوجود رجل وامرأة وليس رجل فقط أو امرأة فقط لا بد أن ثمة ضرورة طبيعية لوجود رجل وامرأة وليس رجلًا أو امرأة فقط، إذًا كل واحد منهما ليس هو الآخر. إذًا، هناك فرق طبيعي بين الرجل والمرأة، والدليل عليه وجود رجل وامرأة بالخليقة، وهذا يعني طبعًا وجود دور لكل واحد منهما يختلف وفقًا لاختلاف كل واحد منهما عن الآخر. إذًا! لابد من ظرف يعيشه كل واحد منهما يؤدي فيه دوره المختلف عن الآخر، والمختلف عن ظرف الآخر باختلاف الدور الطبيعي ذاته، ولكي نتمكن من معرفة هذا الدور لنعرف الخلاف في طبيعة خلق الرجل والمرأة أي ما هي الفروق الطبيعية بينهما؟

المرأة أنثى، والرجل ذكر. والمرأة طبقًا لذلك يقول طبيب أمراض النساء إنها تحيض أو تمرض كل شهر، والرجل لا يحيض، لكونه ذكرًا فهو لا يمرض شهريًا "بالعادة"، وهذا المرض الدوري، أي كل شهر هو نزيف. أي أن المرأة لكونها أنثى تتعرض طبيعيًا لمرض نزيف كل شهر".

والتي أُجريت فيها الكثير من الدراسات الأكاديمية النقدية في ليبيا وخارجها للإشادة بها، والتي لا تنتمي لفن القصة القصيرة من قريب أو بعيد، ربما هي كُتَيِّب خواطر لمراهق صغير يكره المدينة والزحام والمدنية والتلوث، يفكر في الجنة والنار يتخيل حياته بعيدًا عن الأرض التي هي جهنم بالنسبة له، بينما الأفضل أن يموت ويذهب إلى جهنم الأخرى ليعيش بمفرده. يتساءل عن الموت وهل هو ذكر أم أنثى! يراه كليهما معًا، يتناول الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل من خلال الخواطر، ويلوم أمته العربية على تخاذلها، وينتقد المتأسلمين والتيارات الدينية،

ورغم أن معتقداته وأفكاره بدت غير مفهومة. فقد قال أحدهم في وصف الكتاب الأخضر:

إني قرأت الكتاب الأخضرا *** فرأيته حقًّا رفيقًا أكبرا

صفحاته مُلئت حقائق جمة *** هو آية قد نمقوها أسطرا

أوليد تجربة وطول تمعن *** حياك ربك لا تزال محيّرا

القائد الثوري أنت جمعته *** وبه تكون مدى الحياة معمرا

والله إني لا أقول مفندا*** من لم يقدم مثله لن يوقرا

إذا كان الرجل طاغية فمن حوله هم من شجعوه على الاستمرار في طغيانه بين الخوف منه والطمع فيما لديه.

أما بالنسبة لما كتبه معمّر القذافي، دعوني أستعِر عبارة للـدكتور "شوقي ضيف" في وصف أسلوب شاعر مصري قديم اسمه "ابن سودون" عاش في مصر بالقرن التاسع الهجري، حيث قال عنه:

كان يكتب شعرًا طريفًا يعتمد فيه على براعة الفكاهة حين يعمد إلى ممارسة:

"الاعتداء على منطق وبديهيات الأشياء، والسقوط بك من شاهق الجد عند التلقي إلى مواضع المفاجأة"

وكم من مفاجأة منحها معمّر القذافي سواء بسياساته أو بكتاباته ليبقى كحالة استثنائية مجرد "رحّال".

***

القسم الثالث

- مقارنة بين إبداع الثالوث الغير مقدس.. هتلر، موسوليني، فرانكو
- نظرة إنسانية على الطُّغاة من منطلق معرفي.

مقارنة بين إبداع الثالوث الغير مقدس أدولف هتلر، بينيتو موسوليني، فرانسيسكو فرانكو

ثلاثة أشخاص غيّروا بلادهم، كُلٌّ على حدة، والعالم في الوقت ذاته. كان غريبًا أن يوجد الثلاثة في قارة واحدة، يتشاركون الخطط نفسها، والأهداف، ويتسببون في إزهاق ملايين الأرواح تشاركوا النزعة العنصرية نفسها والطبيعة المشوهة والأفكار المريضة. أو لنكن منصفين للحظة، نقول:

"لقد وضعتهم الأقدار محل القيادة، ومنحتهم الإمكانات، والظروف المواتية، لتحقيق مآربهم، ولو لحقبة زمنية محددة. إنّما الأغرب، أنهم تشاركوا في توافر ميول إبداعية لديهم، فثلاثتهم كان لهم من الإبداع نصيب، حتى وإن لم نعتبره إبداعًا أو إبداعًا على درجة متقنة، التي تُخلّد العمل الإبداعي.

بعيدًا عن إصدار أحكام بشأنهم، وبشأن إبداعاتهم، فهم ليسوا مبدعين لقيمة الإبداع ذاته، أو لأن إنتاجهم الإبداعي يستحق أن يُوضع محل مقارنة مع مبدعين آخرين في عصرهم. المؤلم أن هتلر بين موسوليني وفرانكو لديه نصيب من الخطابة، والكتابة، والرسم، مؤلم لأنني ما زلتُ أرى أن تمتع الإنسان بموهبة خلق قيمة أكبر وابتكارها من أن تتشوه بشرور بغيضة وأحقادها وعنصريتها.

لا أستطيع أن أتخلص من فكرة ارتقاء الفنون بصاحبها، حتى وإن لم تتشكل تحت مسمى ولأجل الوازع الأخلاقي. خطر لي أن أقارن بين إبداع ثلاثتهم، من منطلق دراسة موادهم الإبداعية نفسها، أدبيًّا وفنيًّا. ولأن هتلر هو الوحيد الذي امتلك القدرة على ابتكار فنون إبداعية ثلاثة، فكان من المنطقي أن أقارن بينه، وبين موسوليني، وفرانكو كل على حدة.

هتلر وموسوليني، مقارنة بين الإبداع لديهما، في"الخطابة/ الكتابة":

إن المقارنة بين إبداعي هتلر، وموسوليني، تنقسم لشقين، الخطابة والكتابة. بالنسبة للخطابة فلكليهما باع طويل في القدرة على التأثير في الجموع، وكان لهتلر القدرة على تنويع أساليبه الخطابية، ونقل المشاعر لجمهوره، كما سبق أن وضحت. ربما كان لهتلر القدرة على التلوّن، وإخفاء إحساسه بالضعف، أو الخذلان، عندما يواجه

الجماهير، على العكس من موسوليني، الذي كان آسرًا بقوته، بأسلوبه الحاد العنيف، والذي لم ينكره يومًا، بل أوضحه بالفعل، عندما عَقَدَ مقارنة بين أساليبه الكتابية، وأساليب أخيه، فالعنف، الحدة، القوة، من ملامح موسوليني، سواءً فيما يكتب، أو فيما يقول، ويتضح هذا في اللقطات المأخوذة له، وهو يخاطب الجماهير.

أما عن الكتابة، فيبدو أن لموسوليني مزية التفوق على هتلر، في البراعة اللغوية، والأدبية، خاصة أن موسوليني، مارس العمل الصحفي فترةً طويلة، واكتسب فيه براعة مكنته من التأثير في قُرَّائه، وكان له من الكتابات الأدبية، عدة محاولات، تمثلت في كتابة القصة القصيرة، بالإضافة إلى روايته الرومانسية، التي سبق أن أشرت إليها وإلى قربه من أخيه أرنالدو، الجندي المجهول في حياته، في عالم الفاشية الإيطالية على حَدٍّ سواء، جعله متذوقًا للأدب، بصورة أو بأخرى، ويبدو هذا جليًّا، في أفكاره عن الأدب، والكتابة الأدبية، والتي طرحها في كتابه عن أخيه، وفي مذكراته عن الحرب.

على الجانب الآخر فإن هتلر، كما سبق وأن أشرت، لم يكن مميزًا ككاتب في مؤلفه الوحيد "كفاحي"، والذي وُصِفَ بالركاكة، والصنعة اللفظية الضعيفة، فبدا كمذكرات شخص يمتلئ بالمتناقضات، التي انعكست خلال صفحات كتابه، فما كتبه بالفعل يمكن أن يكون وثيقة مهمة لتحليل شخصيته سيكولوجيًّا، وهو ما يقوم به العلماء، والمحللون النفسيون، كلما وُضِعت شخصية هتلر محل الفحص

والدراسة. فبينما وظّف موسوليني كتاباته لصياغة أفكار الفاشية على طريقته، ومن ثَم نقلها لشعبه، سكب هتلر بعضًا من روحه في كتابه، ومنح الكتاب عنوانًا يدل على الذاتية، والخصوصية "كفاحي". لقد كان يكتب عن نفسه، بشكل أو بآخر، ثم حوّل أفكـاره -والـتي كانت مزيجًا من أفكار مطروحة بالفعل- إلى تعاليم النازية، لتكـون النازية هي هتلر، ويكون هو رمزها. لا يفوتني في النهاية، إلا أن أذكر انطباعًا شخصيًّا، ربما توّلد لديَّ في الشهور السابقة، والتي انغمـرت فيها تمامًا بعوالم الطُّغاة، ومنهم موسوليني، وهتلر، وخاصة فيما كتباه بأقلامهما. لقد قرأتُ كتاب كفاحي لهتلر، وقرأتُ مـا اسـتطعت الحصول عليه مما كتب موسوليني، في الحقيقة تمنيتُ لو قرأت له أكثر ليس فقط لأتعرف عليه بصورة أكثر إيضاحًا، إنما لأنني اسـتمتعتُ بخواطره. وأستطيع أن أقول:

"إن موسوليني كان أكثر اندماجًا مع ما حوله، ومن حوله، مـن الأشياء، والأشخاص، يرغب في تطويعهم وفق هواه، و إعادة تشكيل الموجود، بما يتناسب مع أفكاره، وتصوراته. بينما هتلر كان أكثـر تفردًا، ورغبة، في إيجاد أشخاص جديدة على طريقته، مـن صـنعه، نموذج الإنسان الكامل ربما! وخلق عالم جديد، مثالي - بعيدًا عـن المعنى المتعارف عليه للمثالية - ويتضح هذا حتى في رسوماته، التي سأتحدث عنها في الفقرة التالية.

هتلر وفرانكو

مقارنة بين إبداعهما في الرسم

في دراسة للمقارنة بين أعمال الرجلين الفنية اتضح أن كليهمـــا رسم أعمالًا متشابهة تبتعد عن تجربته الشخصية، انتــهج هتلـــر في رسومه طابعًا محافظًا رسم فيه المباني الرمادية بالألوان المائيـــة مدينـــة مثالية نظيفة طابعها المعماري مميز بها مساحات خضراء تبدو رسوماته تمثيلًا حقيقيًّا لأفكاره عن النقاء والمثالية بقدر رفضه للعالم خلق عالمًـــا جديدًا بما رسم، لم تكن رسومات قوية لكنها جزء من إعلانـــه عـــن نفسه، لو شاهدتها دون أن تعلم أنها لهتلر ستعجب بها ليس لصنعتها، وإنما لما تخلفه من انطباعات لطيفة. رسوماته متناقضة تمامًا مع أفعالـــه وأقواله ربما عكست ما بداخله من خذلان وسلبية وضعف، ألوانـــه وخطوطه ليست دائمًا واضحة وقوية مثل رسومات فرانكو الـــذي مال إلى رسم مشاهد الصيد الذكورية وهي الاختيارات التي قال عنها

النقاد إنها اختيارات النبلاء الذين كانوا يكرهون الفن قديمًا عندما أقدموا على ممارسته.

تظهر رسوم فرانكو، الذي كان أكثر مهارة من قرينه الألماني مشاهد صيد بعيدًا عن الواقع تقترب من رسوم القرنين 16، 17 عند الإسبان وهي فترة حاول فرانكو إعادة إحيائها خلال حكمه تظهر المراكب الشراعية بكثرة في رسوم فرانكو، وتغرق إحداها في بحر مُتجمِّد، واقعية الرسوم أفقدتها التأثير والمشاعر، إضافة لما قيل عن أنها منقولة من أعمال أخرى فحياة البحر فوق السفن القديمة صورة راسخة في الخيال عمومًا رسمها الكثير من الفنانين، لكنه رسمها طبقًا للقوانين الطبيعية بصرامة جعلتها مثالًا لرسوم رجل الجيش لا الفنان.

رسم بورتريه لنفسه بالزي الأبيض المميز للأدميرلات ظهر فيه بعينين حزينتين تغيب عنهما النظرة الإنسانية. رسومه النسائية كان معظمها لابنته كارمن، وهي رسوم شعبية الطابع يُظنُّ أنه استوحاها من رسوم الإعلانات والمجلات المصورة. يطلق النقاد يطلقون على أعمال فرانكو مصطلح "كيتش" هو ما يطلق على تقليد الأساليب التاريخية دون معالجتها بشكل خلاق. اللوحة الأكثر تميزًا للجنرال الإسباني لوحة بدائية لجمجمة حمراء تذكرك بأعمال فناني أميركا اللاتينية يظنُّ أنها منقولة من نسخة أصلية رسمت في القرن السابع عشر ويظهر فرانكو شخصيته الحقيقية في عملين، أحدهما لوحة

مرسومة ببراعة لبومة تصيد فريسة تشبه أعمال الفنان روسو الـــذي عاش في القرن 19 والثاني لوحة مقبضة لدب يتعرض للهجوم مـــن قبل مجموعة من الكلاب منقولة عن نسخة أصلية.

بالنسبة لي، أُفَضِّل لوحات هتلر، وإن أحببت لوحة البومة لفرانكو بشكل خاص.

***

نظرة إنسانية على الطُّغاة

من منطلق معرفي

نعم!، نظرة إنسانية، لأنها نظرتنا نحن حيال الطُّغاة.

هل تظنون أن إصدار حكم على الطُّغاة، أمر سهل؟

هل تظنون أن وصف إنسان بطاغية، دون الوقوف على الأسباب التي ساهمت في صنع ذاك الطاغية، أمر مقبول؟

فليكن! هذا خياركم.

أما أنا فبتُّ أعتقد بأهمية الوقوف مليًّا بنظرة مطولّة أمام كل حالة إنسانية، شائهة، سادية، عنصرية، معقدة، وغير مفهومة أو مقبولة طبقًا للحد الأدنى من فَهْمِ طبيعة النفس البشرية الموغلة في التعقيد.

لا تعني تلك النظرة تبرئة الطاغية من أفعاله، ولا تعني إيجاد أعذارٍ له، إنما تعني أن النظرة الأولى عند الحكم على الأشخاص عمومًا

ليست كافية، فما بالكم بالحكم على أشخاص غير عـــاديين بـــالمرة، بغض النظر عن تصنيفهم كطُغاة، علينا ألا ننكر أنهم غيروا العـــالم، وأعادوا رسم طبيعة الحياة فيه وتشكيلها، كان لهـــم دور مرســـوم وموسوم بهم.

ويبدو أنه كان عليهم القيام به شاؤوا أم أبوا، وعلينا القبول بهذا شئنا أم أبينا!

إن التحليلات النفسية والسيكولوجية لشخصيات الطُّغاة تظهـــر بعض الحقائق التي تستوجب الاهتمام. عام **1943** كلَّـــف مكتـــب الخدمات الاستراتيجية، الذي يعادل وكالة الاستخبارات المركزية في فترة الحرب العالمية الثانية، هنري موراي، الاستـــشاري النفـــسي في جامعة هارفارد لتقييم شخصية هتلر بناء على الملاحظة عن بُعد، وفي تقييم بلغت صفحاته **240** صفحة، خلص موراي وزمـــلاؤه إلى أن هتلر: "نرجسي ولا يشعر بالأمان، عاجز جنسيًّا، مازوخي "يتلـــذذ بالتعذيب"، عصابي قابل للانتحار، ويرى نفسه على أنه مدمر الأنـــا العليا العبرانية المسيحية".

اختلف بعض علماء النفس حول أن شخصية هتلر تعتبر مثالًا لرد الفعل العكسي، وهو النوع الذي يتميز ببذل جهد مكثف للتغلـــب على الإعاقة المبكرة والضعف والإذلال، وأحيانًا أيضًا بالانتقام مـــن الإهانات التي نالت من كبريائه. وذكر التقرير أن هتلر كان يعاني بما

يعرف "بالعمى الهستيري" عندما كان جنديًا في الحرب العالمية الأولى. "وقد أصابه هذا المرض النفسي الجسدي مع الهزيمة النهائية لألمانيا الكبرى، بعد سماعه خبر استسلامها ولكنه استعاد بصره فجأة".

"بالنسبة لحياته الجنسية، فهو مازوخي بشكل كامل، ما تم التوصل إليه من خلال التحليل المنهجي والارتباطات بين ثلاثة آلاف استعارة غريبة استخدمها في مذكراته كفاحي".

لكن! يُشاع أن هتلر ربما كان عاجزًا جنسيًا، فهو لم يتزوج طيلة حياته، ويقول معارفه القدماء إنه غير قادر على ممارسة الجنس بطريقة عادية.

في عام **1990** قدم جيرولد بوست، مؤسّس مركز تحليل الشخصية والسلوك السياسي بوكالة الاستخبارات المركزية، تحليلًا نفسيًا سياسيًا شاملًا لصدّام حسين إلى لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب:

"مجنون الشرق الأوسط، المصاب بجنون العظمة، لا يوجد أي دليل على أنه كان يعاني اضطرابًا ذهانيًا. لقد سعى صدّام من أجل تحقيق السلطة لنفسه وللعراق لا حدود لها، وفي الواقع فقد كان يعتبر أن مصيره ومصير العراق هما شيء واحد، وسعيًا لتحقيق أحلامه، لم يكن هناك ما يدل على أنه كان مقيدًا بضميره، فولاؤه الوحيد هو

لصدّام حسين، كما أنه قد يستخدم درجات من العنف قد تصل إلى استخدام أسلحة الدمار الشامل من أجل تحقيق أهدافه في حين لم يكن مريضًا ذهانيًّا، إلا أنه كان لديه ميل قوي لجنون العظمة. صدّام ليس لديه الرغبة في أن يكون شهيدًا، ويمثل البقاء على قيد الحياة الأولوية رقم واحد بالنسبة له. كما أن الثوري البراجماتي لا يرغب في التورط في صراع قد يُلحِقُ ضررًا بالغًا بالعراق وبمكانته كزعيم هو لن يستمر في المواجهة إذا كانت لديه وسيلة للخروج، لكنه يمكن أن يكون خطرًا للغاية ولا يمكن إيقافه في حال تمت محاصرته".

وفي السياق نفسه، يقول بوب وودوارد الصحفي المعروف في كتابه عن وكالة الاستخبارات المركزية:

"على الرغم من الاعتقاد الشائع بعكس ذلك، فإن القذافي ليس ذهانيًّا، وهو على اتصال مع الواقع في معظم الأوقات، ولكن القذافي يعاني نوعَ شخصيةٍ شديد الإزعاج وهو "اضطراب الشخصية الحدية". فهو تحت الضغط الشديد، قد يلجأ لسلوك غريب عندما يكون حكمه خاطئًا".

بينما أرجع تحليل لاحق للوكالة تصرفات القذافي إلى "أزمة منتصف العمر".

ماذا يقول لنا العِلم عن الخير والشر؟!

في مقال حديث نُشِرَ على صفحات مجلة ناشيونال جيوجرافيك العلمية وعلى موقعها الإلكتروني على الإنترنت، تناول المقال وجهة النظر العلمية لتفسير الخير والشر كجزء من المكون الإنساني، من خلال استعرض نتائج العديد من أبحاث السيكولوجية والاجتماعية لتفسير قيام البشر بأفعال نبيلة خيّرة أو أفعال أخرى مرعبة وشريرة، أوضحت الأبحاث أنه في جذور كلا النوعين من السلوكيات المتناقضة يقع ماضينا التطوري، حيث إن رغبة البشر في التعاون مع بعضهم البعض عنصر أساسي من أجل البقاء، بالموازاة مع التنافس والصراع أيضًا للسبب نفسه.

فنحن أكثر جنس اجتماعي على كوكب الأرض، كما نحن أكثر الأجناس عنفًا عليها. فبعد عقود من الجدالات الفلسفية والدينية لتفسير الخير والشر يقول لنا العلم إن كليهما مربوطان بصبغة عاطفية جوهرية، مقدرة غريزية للمخ أن يشعر بالشفقة والعطف حيال ما يشعر به الآخرون، أو أن يفتقد لتلك العاطفة بدرجات متفاوتة بما يُقدِّم لنا رؤية تبدو كحجر أساس في البرامج العلاجية التي تُستخدم لتعزيز استجابة المخ للعاطفة ومن ثم تعديل السلوكيات العنيفة لدى البعض.

لقد تبين للعلماء أن الأطفال الرُّضع منذ الشهور الستة الأولى في أعمارهم يُظهرون تجاوبًا انفعاليًا مع المحفزات العاطفية باستخدام تعبيرات الوجه التي تعكس القلق والاهتمام، ويبدي الكثيرون منهم

في عمر عشرة أشهر عاطفة إدراكية في محاولة لفهم معاناة طفل يبكي لألم أصابه، وفي الثمانية عشر شهرًا الأولى من أعمارهم يترجم أطفال عاطفتهم إلى سلوكيات شبه اجتماعية مثل احتضان أحدهم أو إعطائه لعبة للتخفيف عنه.

وبالبحث العميق تبين أن هذا ليس صحيحًا بالنسبة لكل الأطفال، فهناك أقلية منهم تبدأ في سن الثانية أو الثالثة بما أسماه العلماء التجاهُل النشط للآخرين، حيث يضحكون أو يسخرون من طفل قام بإيذاء نفسه، وربما ينتقدونه ويقولون بنبرة من يصدر الأحكام "عليك أن تكون أكثر احتراسًا".

واكتشف العلماء أن هؤلاء الأطفال يملكون أعلى أرجحية لتطوير الميول اللااجتماعية، والوقوع في المشكلات، ومع تقدمهم في العمر وتحولهم لمراهقين يصبحون أكثر صلابة وانعدامًا للتعبيرات العاطفية كالشعور بالذنب عند ارتكاب الأخطاء، هؤلاء المراهقون يميلون إلى الوقوع في المشكلات ذات الطابع السلوكي السيئ مظهرين عدوانًا غريبًا تجاه الأشجار والممتلكات، يعذبون الحيوانات ويسيئون لغيرهم. وقد يتحول أحدهم مع بلوغه سن الرشد إلى مختلٍّ عقلي سايكوباثي يرتكب الجرائم بدم بارد ولا يحفل بارتكاب أبشع الأفعال وأشنعها.

وإذا كان العجز العاطفي بشكل عام في صلب السلوكيات السايكوبثية يمكن تقفي أثره إلى مرحلة الطفولة، فهل يمكن اعتبار الشر مقيمًا في الجينات الوراثية منتظرًا الظروف المناسبة للظهور؟!

هذا سؤال لا نجيبه بنعم أو لا! الأنه مثل العديد من الأمراض التي تؤثر عوامل الطبيعة والبيئة والنشأة في تشكيل الأشخاص مضطربي العقول؟ نعم للجينات الموروثة تأثيرها القوي، لكن البيئة هي ما يساعد تلك الشخصية أو نقيضها على الظهور.

بإجراء بعض الأبحاث على ذوي الشخصية السايكوبتية الذين لديهم تجاهل تام لمشاعر الآخرين، والذين لا يملكون قدرة على تقدير العواطف أو الإحساس بالذنب أو الندم. إنهم بشكل ما مختلون عقليًا، وجد العلماء أن لديهم نشاطًا أضعف في مناطق المخ المسئولة عن التفكير الأخلاقي، وأظهرت بعض الأبحاث ضعف التراكيب المخية المترابطة والبشرة المدارية الأمامية التي تساعد على إظهار المشاعر، وربما يوجد حوالي نسبة تتراوح بين خمسة بالمائة إلى سبعة بالمائة نسبة أقل من المادة الرمادية في هذه التراكيب لدى الأفراد ذوي الصفات السايكوبتية مقارنة بآخرين. إنهم حسب رأي أحد العلماء المشاركين في إجراء الأبحاث: "يفكرون فيما هو خطأ أو صواب بينما بقيتنا يشعر به".

وبالعودة إلى سيرة حياة هتلر أو موسوليني مثلًا، وطفولة كلٍّ منهما يتضح لنا تأثير المُكوِّن الوراثي وكذلك العوامل البيئية المحيطة والنشأة التي ساهمت في تشكيل شخصية الطاغية.

- ربما الطُّغاة! ليسوا مرضى نفسيين بالمعنى المتعارف عليه، لكن المؤكد أنهم يحملون دلالات الشخصيات السايكوباتية التي انعكست على تصرفاتهم بشكل أو بآخر، بالإضافة إلى تأثير عوامل التنشئة والبيئة المحيطة عليهم بما يساهم مساهمة مباشرة في تشكيل شخصياتهم كطُغاة.

في الحقيقة باستثناء هنري الثامن، هناك رابط ما يربط المجموعة التي اخترتها من الطُّغاة، حيث إن الحقبة الزمنية التي ظهروا بها جميعًا كانت مشحونة بتغييرات فكرية وفلسفية عميقة وصراعات مذهبية وسياسية وأفكار جديدة ومختلفة ومتطرفة، لم يكن غريبًا أن نجد هتلر متأثرًا بأفكار ترددت في عصره وتداولها الكثيرون كنتيجة مباشرة للحرب العالمية الأولى، وهي الأفكار نفسها التي اقتدى بها موسوليني، وفرانكو، حتى ماو وإرهاصاته الفلسفية الماوية والتي استُمِدَّت من الماركسية واللينينية، وهنا في الشرق لم يكن تأثير الحركات القومية الثورية ببعيد عن صدّام أو القذافي.

- ربما كان كل هؤلاء الطُّغاة نِتاجًا طبيعيًّا لتلك الحقبة الزمنية التي عاشوا فيها، بالإضافة إلى مؤهلاتهم النفسية وظروفهم الاجتماعية والحياتية التي ساهمت في تشكيلهم.

وعليه فإن تعرضي لسِيَر حياة الطُّغاة، وأنا أخوض بشأن إبداعاهم كان لإظهار المفارقة بين سلوك الفرد وسلوك الجماعة. أو لأقول بين فعل الفرد واستجابة الجماعة.

تعالوا نُلقِ الضوّء على آراء فرويد الذي شهد الحرب العالمية الأولى وتصاعد الحملات المضادة للسامية في أوروبا الغربية واضطرته الأحداث فيما بعد للهجرة إلى إنجلترا بشأن "سيكولوجية الجماهير". حيث طرح بعض التساؤلات على ظاهرة الجماهير وكيف تتحرك وهتاج وتلعب دورًا كبيرا في حركة التاريخ؟ فقد كانت جماهير النازية والفاشية أمامه في طور التحضير والتهيئة، ويُعدّ من أهم كتبه في هذا المجال "علم النفس الجماعي وتحليل الأنا" و"مستقبل وهم"، فيهما يبين فرويد أوجه التشابه بين بعض الطقوس الشعائرية والممارسات الهوسية، ويوضح مدى الأهمية والضخامة التي يمكن أن تتخذها أوهام الفكر السحري أو العقائد اللاعقلانية.

أما في كتابه "قلق في الحضارة" الذي يشكل استمرارية لما طرح من تحليلات سابقة لتشمل المؤسسات الاجتماعية والسياسية أيضًا، قام بنقل مصطلحات التحليل النفسي وطبّقها على علم النفس الجماعي مع إجراء بعض التعديلات عليها كي تتناسب مع الجماعة أو الجمهور.

ففرويد يرى أن لُبّ المشكلة يكمن في الأعماق في كلتا الجهتين:

جهة الفرد وجهة الجماعة، ويعني بهذا "اللاوعي" على الرغم من أنه يرفض فكرة "اللاوعي الجماعي" التي استخدمها كل من: "كارل يونج" و"جوستاف لوبون".

لكنه قام بتطبيق المفاهيم والآليات نفسها التي وجدها في اللاوعي الفردي على اللاوعي الخاص بالجماعة لنجد مصطلح "الليبيدو" أي الطاقة الشبقية الحيوية التي تتمثّل فيها غريزة الحياة، وكذلك الغرائز الجنسية والعدوانية، ومفهوم الأنا والأنا العليا... إلخ، تلك جميعها هي ما تختزنه الجماهير، وهذا ما يُشكّلها.

النازي، الفاشيستي، الفلانجي، الماوي، القَبَلي أو القومي.. إنها الجماهير.

تذكروا حماسة الجماهير مع هتلر، ونداء الجماهير ردًّا على موسوليني، وتفاعل مجموعات الجيش الأحمر مع ماو.. إنها الجماهير وصعودها القوي على مسرح التاريخ المعاصر.

يتساءل علماء النفس المهتمون بدراسة سيكولوجية الجماهير كيف أمكن للقادة المحركين للجماهير من أمثال:

هتلر، موسوليني، ستالين، ماوتسي تونج... إلخ أن يجيشوا الجماهير بمثل هذا الحجم؟

للإجابة عن هذا السؤال علينا دراسة الشروط التي تجعل انبثــاق ظاهرة الجماهير ممكنة في هذا البلد أو ذاك، في هذا الظرف الــزمني المحدد أو ذاك والتي قد تؤدي إلى توليد أشكال من الحكم ديمقراطية، أو أشكال أخرى ديكتاتورية واستبدادية.

الطُّغاة نتاج عصرهم، وظروفهم وبيئاتهم وتفاعل الجماهير معهم، ليس إلا جزءاً من كُلٍّ.

جزء من استجابة الجماهير لما يتوافق ويتفق مع الكثيرين منهم.

يقول "جمال بدوي" في كتابه "الطُّغاة والبغاة":

"إن الشعوب قد تغفل عن مفاسد الدكتاتورية لبعض الوقت، فتسكت عنها وتسلم قيادها للديكتاتور، وتسير من ورائه مُغمضة العينين، وهي تعزف لحن الخلود والعظمة والغرور، ولكنها في لحظة من لحظات الانبهار الذاتي، تكتشف عُمق الهاوية التي تسير إليها، فتفيق من سكرتها وتكافح من أجل استرداد إرادتها الحرة".

لروبسبير طاغية الثورة الفرنسية، مقولة ربما تفسر كيف يفكــر الطُّغاة!

"نحن لا نريد الطُّغيان لذاته. وإنما نريده دعامة للجمهورية الصالحة"

منتهى التناقض غير المفهوم وغير المبرر، بالنسبة لعقولنا، ولكنه ربما كان مفهومًا فقط لعقلية الطاغية وحده! ومن يشاركونه نفس التصورات والأفكار من منطلق الجماعة نفسها. فالطاغية في النهاية ليس إلا إنسانًا. فرد داخل مجموع.

"ريكاردو أريزيو" في كتابه "مقابلات مع سبعة طُغاة" والذي أجرى فيه مقابلات مع طُغاة سقطوا مثل عيدي أمين، وبوكاسا، ميلوسوفيتش، يقول عن لسان السير إيان ماكلين الممثل الإنجليزي المخضرم الذي أدّى تقريبًا شخصيات الطُّغاة في عصور مختلفة على خشبة المسرح:

"واحد من الدروس القليلة التي تعلمتُها من دراسة الناس الذين يرتكبون الفظائع، هو أنهم جميعهم إنسانيون جدًّا، وأننا قادرون تمامًا على القيام بأي أمر تقريبًا".

يؤكد ريكاردو على أن الكثيرين من الطُّغاة لا يرون في أنفسهم طُغاة، بل هم فقط أدّوا الدور الذي كان سيؤديه غيرهم لو كان بمكانهم. ويقول في النهاية:

"لا أعلم إن كانت فكرتهم تلك صحيحة أم لا! بل إنني لا أعلم إن كان بمقدورنا أن نسامحهم، فكل ما يسعنا القيام به هو أن ندرسهم عسى أن يساعدنا ذلك على الوصول إلى فهم أكبر لأنفسنا".

كنتُ أشرت في بداية الكتاب إلى ملاحظتي بشأن الطاغية الآري والسامي! وهل هناك فارق بينهما! أظنُّ أن ما يمكن من نعتبره اختلافًا ينبع مما طرحه"حازم صاغية"برؤيته بالكتاب الأسود لصدام حسين من استفهام بشأن الشمولية في مجتمعاتنا العربية، وما ناقشه الكُتّاب والمحللون في الكِتاب بشكل عام. تتضح الإجابة بين صفحات كتاب "المثقفون بين جدلية النخبة والفشل" للدكتور "عبد السلام زاقود" حينما أشار لمسألة السلطة القبلية حيث أوضح أن:

"الثأر السياسي، الغنيمة السياسية، تفضيل الأقارب، ومن ثم شخصنة السلطة وتوريثها، كلها تأثيرات القيم القبلية المنظمة لممارسة السلطة السياسية وعلاقات القوى السياسية المختلفة والعلاقة بين الدولة والمجتمع، ولأن الثقافة القبلية تقوم على الإقصاء وثقافة العصبية القبلية والغلبة. فكل هذه الملامح تقف كعوائق حقيقية أمام منظومة قيام المجتمع المدني الذي يقوم على التعددية والاعتراف بالآخر والحوار معه".

مظاهر كثيرة في مجتمعاتنا العربية تطرق زاقود إليها بما يقودنا في النهاية إلى استنتاج حقيقة أن التمدن الظاهر في مجتمعاتنا لا وجود له، وليس أكثر من تمدُّن ظاهري قشري، بينما الثقافة القبلية المطمورة هي النمط الأبرز الذي يطفو على السطح في ظل الاختلال الأمني لتصبح ثقافة الصراع القبلي والعصبية القبلية هما المحددين الرئيسيين للسلوك السياسي في أقطارنا العربية.

فسلوك الحكام مثل صدّام حسين، أو معمّر القذافي ليس إلا سلوكًا نابعًا من تلك النظرة القبلية المحدودة، فهما في النهاية نتاج لمجتمعاتهما، وبناء على هذا لا نستطيع إغفال هذا العامل المهم عندما نضع أنفسنا بموضع الحُكْم عليهما.

وربما هذا ما يمنحنا الفرصةِ لنقول بأريحية نعم هناك فارق بين الطاغية الآري والسامي، يتضح هذا الفارق بسبب تأثير المكون الثقافي والاجتماعي الذي يفرق بين هذا عن ذاك.

لا أعني الدفاع عن الطُّغاة أو تبرير جرائمهم، فقط علينا أن ندرك أن النظر إليهم يعني الإلمام ببضعة أشياء، من بينها وليس أهمها الجماهير التي تفاعلت معهم وآمنت بأفكارهم.

أما بالنسبة لإبداع الطُّغاة وبناء على تفسير فرويد للإبداع الذي شاركتكم به في البداية:

"نتاج عدد من العمليات النفسية التي تعتبر منشأ الإبداع ومنها الصراعات في العقل الباطن والتفريغ الانفعالي والتخيل وأحلام اليقظة ولعب الأطفال وإعاقة القمع النفسي والانسجام بين العقل الباطن والأنا".

هل لنا أن نتخيل كم العمليات المتشابكة بدواخلهم والتي تنتج إبداعًا فإذا كانت شخصياتهم معقدة بما فيه الكفاية فكيف به إبداعهم؟

فمثلًا هل هناك تناقض بين الفن الذي قدمه هتلر الرسام، وطبيعة هتلر الزعيم؟

في الحقيقة أن هتلر لم يمارس الرسم في فترة زعامته. وهـذا مـا يجعلني أتساءل: تُرى لو كان قد مارسَ الرسم بعد أن أصبح الفوهرر، ماذا كان سيقدم لنا؟

إن مُدن هتلر التي رسمها وهو شابٌّ تبدو مثالية وهادئـة منمقـة وحالمة نوعًا. فهل هذا ما كان يسعى إليه؟ ولكنه في الواقع حـاول تحقيقه بمنتهى العنف والقسوة!

في حين أن الرسم كان علاجًا لفرانكو ولتخفيف الضغط عليـه، وقد اتضح في رسوماته أنه كان يخرج بها من حيّز طبيعته كونه قائدًا وحاكمًا، فهو الصيّاد الذي يهوى الإبحار، والأب الذي يحب ابنتـه ويرسمها بأكثر من لوحة.

الكتابة والخطابة كانتا مترادفتين استخدمهما موسوليني لطـرح أفكاره وفرضها سواء في أثناء عمله الصحفي وإدارته للجريدة الـتي أسَّسها أو في خطبه التي كان يكتبها. وبالنسبة للجانب الرومانسي في أدبياته فلم يتبدَّ إلا من قبل عندما قام بتأليف روايته الوحيدة، وهذا أيضًا كان قبل زعامته للحزب الفاشي ولإيطاليا، ربما كـان هنـاك جانب آخر يتضح في رسائله لكلاريتا بيتاتشي، والتي كان يعترف لها فيها بحاجته إلى دعمها ووقوفها بجانبه، كذلك الجانب العاطفي لديـه

والذي تبدّى فيما كتبه عن أخيه أرنالدو وما أظهره حيال إعدام صهره.

أما ماوتسي تونج، فكان خليطًا بين هذا وذاك يكتب أشعارًا رومانسية في زوجته التي أُعدمت، ويكتب قصائد حماسية مفعمة بالعاطفة، كما يكتب أفكارًا تُفرض بالقوة في كتابه الأحمر الصغير، لتكون تعاليم على الشعب أن يحفظها عن ظَهْرِ قلبٍ، فهو لم يختلف كثيرًا عن هتلر الذي جعل من أفكاره بكتابه الوحيد "كفاحي" تعاليم النازية التي ترددها الجماهير ويتعلمها الشباب في جماعات الشبيبة النازية.

أما صدّام حسين فتبدو كما لو كانت كتاباته وسيلة ناعمة لفرض ولعرض أحلامه بشأن زعامة الأمة وقوميتها المهدرة والوقوف في وجه العدو الأمريكي، لقد كان مغرمًا برمزية البطل الذي ينتصر على الأعداء وهذا ما اتضّح في أعماله الروائية التي تبدو كما لو كانت إعادة لأمجاد قديمة ذهبت إلى غير رجعة.

بينما استخدم القذافي ووظّف بشكل ما كتاباته لفرض أفكاره ولم يختلف ما يكتبه عمّا يتحدث به، فهو إن جاز لي التعبير كان – صادقًا– لحد كبير في عرض أفكاره غير المألوفة وغير المعتادة في كتاباته التي تبدو غير مفهومة ومبعثرة متناقضة كما هي أقواله التي كان يشارك بها في خطبه أو لقاءاته.

بالنسبة للإبداع، والذي اكتشفتُ أنه كثيرًا ما اقترن بالطُّغـاة، ليس فقط في النماذج التي ذكرتها وعرضت لسيرة حياتهم وما قدموه خلالها من أعمال تندرج تحت مسمى إبداعية، فهناك غيرهم ممن ولجوا لعالم الأدب والفنون ودروبهما المختلفة، وظّفوا الإبداع ووجدوا فيه سلواهم، استغلوه كوسيلة للتأثير على الجماهير، ولعرض آرائهم وأفكارهم، أو لمحاربة أعدائهم.

ولع صدّام حسين بالقومية أو الرمزية الأخلاقية يتشابه مع حكام كوريا الشمالية السابقين "كيم ال سونج"1948–1994 و"كيم جونج ال"1994–2011 فكلاهما قام بتأليف قصص للأطفال، وكانوا يستعينون بأنفسهم في تلك القصص باعتبارهم شخصيات ترمز للأمة التي تقاتل الأعداء وتعزل نفسها عمدًا عن باقي دول العالم.

وهو القائد الذي يهزم الوحوش التي تحاصر قريتهم، أو الفراشة التي تمنع الديك – أمريكا – من البلطجة على الحيوانات.

وهناك مَن يكتب عن نفسه وعن مذكراته ويمنح كتاباته مزيجًا من النصائح والموعظة الروحية، كحاكم "تركمانستان" "ساربامورات نيازوف" الذي أصبح كتابه "الروناما" مقررًا دراسيًّا على الطلاب في المدارس وخليفته" كوربان كولي بيردي محمدوف" الذي كتب روايته "طائر السعادة" كسيرة ذاتية له، كما كتب عن أبيه.

"رادوفان كاراديتش" المسئول عن مذابح سراييفو، والذي درس التحليل النفسي في جامعة كولومبيا، له ديوان قصائد اسمه "تحت النهد الأيسر للقرن" وقصائده في تحليل لها تحمل الكثير من معاني الاستبداد والقسوة والعنصرية للحدّ الذي جعل البعض ينادي بمحاكمته على هذا الديوان الشعري.

ورغم أنني قدمت لكم فرانكو رسامًا إلا أنني في معرض بحثي اكتشفتُ أن له مؤلَّفًا بعنوان "ماسونيريا" يحذر فيه من الماسونية التي يرى أنها وُجِدَت لتقضي على المسيحية الكاثوليكية وتناول الشرق الأوسط وإسرائيل ودور الماسونية والاتحاد السوفييتي في نشوئها كما كان فرانكو قد منع الانضمام للماسونية في فترة الأربعينات.

أما المعلومة التي أدهشتني أن "آية الله الخميني" كان شاعرًا له ديوان شهير اسمه "نبيذ الحب" يعتبره النقاد أحد الدواوين الشعرية التي تحمل الطابع الصوفي تتحدث عن العشق الإلهي.

بعض الزعماء مارسوا الكتابة قبل أن يصبحوا زعماءً كنابليون الذي كتب رواية وعمره 26 عامًا بعنوان: "كليسون وأوجيني" "Clisson et Eugénie" عن علاقة حب بين جندي شابٍّ وفتاة لم تكتمل لطموحه العسكري وتُرجمت للإنجليزية في 2009.

أما موسوليني فكتب روايته الوحيدة "عشيقة الكاردينال" قبل أن يتولى السلطة، وهتلر قام بتأليف كتابه "كفاحي" بين جدران السجن

قبل أن يصبح زعيمًا، وهناك من يكتبون وهم ينتظرون المحاكمة كصدّام حسين فروايته الأخيرة "اخرج منها يا ملعون" قد كتبها في أثناء الغزو الأمريكي للعراق قبل القبض عليه.

وكما الطُّغاة نتاج عصرهم، فإن الإبداع نتاج عصره.

أيًّا كان نوع الإبداع، كما إن للإبداع قوته وتأثيره اللذين لا يمكن إغفالهما أو التجاهل عنهما ونحن نقيّم عصرًا ما بكامل أحداثه وشخوصه ومتغيراته.

على موقعه الإلكتروني أشار الكاتب البيروفي "ماريو فارجاس يوسا" والحاصل على جائزة نوبل للآداب عام **2010** في إحدى مقالاته التي تضمنها مؤلفه "ملاحظات في شأن موت الثقافة" إلى قيمة الأدب، وهل له قيمة عليا تتجاوز الترفيه؟ أشارككم بفقرات مترجمة منه ربما توضح أهمية الكلمة المكتوبة وخطورتها حيث قال:

"لا بد أن نُذكّر أنفسنا دومًا بأن الناس لا زالوا يخشون الكاتب. ولنا مثال في إعدام الكاتب النيجيري "كين ساروويوا" من قبل حكومة بلاده العكسرية المُجرمة، واضطهاد البنجلادشية "تسليمة نسرين"، وما يفعله الأصوليون الإسلاميون في الجزائر من قطعٍ لحناجر الصحفيين والكُتّاب، وأولئك الذين موّلوا محاولة الاغتيال التي كادت تودي بحياة الروائي "نجيب محفوظ".

تـأملوا في كـل تلـك الـسجون الممتلئـة بالكُتَّـاب في كوريـا الـشمالية وكوبـا والـصين ولاوس وبورمـا وفي كـل البلـدان التي تسودها حركات الرقابة. ففي الوقت الذي يتحول فيه الأدب إلى هوايـة دون أي قيمـة حقيقيـة في البلـدان التي يـتم وصـفها بالمُتحضرة والمتمدنة والتي تنعم بجو أكثرُ حرية من غيرها في ظل أنظمة ديمقراطية، يُصبح الأدب على درجة من الخطورة وأداة طرح أفكار هدامة في البلـدان التي لا تـنعم بالدرجـة ذاتهـا مـن الحرية. إن الكُتَاب الـذين تعتريهم خيبة الأمل تجاه الأدب عليهم أن يفتحـوا أعينهم على الجـزء الأكبر من المعمـورة الـذي مـا زال يُقاتل من أجل الحرية. هذا من شأنه أن يمدهم بالشجاعة".

وفي موضع آخر يقول:

" أعتقـد أن على الأدب أن يحتـوي مـشكلات عـصره، على الكاتـب أن يحـيط نفـسه بإيمـان راسخ بـأن مـا يكتبـه سيـساعد الآخـرين بـأن يكونـوا أكثر حريـة. أكثر تـأثرًا وبـصيرة، دون أن يقـع تحـت وهـم أن تلـك الكتابات بحـد ذاتهـا ستقـضي على العنـف أو الظلـم وسـتجلب الحريـة. لقـد وقعـتُ بشخـصي في هـذا الـوهم، ورأيت العديـد من الكُتَـاب الـذين أكبرهم يقعـون في الخطأ ذاتـه بـل وقـد يُـسَخِّرون مـوهبتهم في خدمـة أكاذيـب أيـدلوجياتهم أو جرائم حكوماتهم".

"على الأدب أن يُـورط نفـسه في حيـاة الـشارع، في الجـزء المخفي مـن التـاريخ، كمـا كـان يفعـلُ في الماضـي، دون أن يفقـد

متعته. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها كاتبٌ ما أن يُساعد معاصريه وينقذ الأدب مما يبدو أحيانًا كإدانة له بالضعف".

"على الإقرار بأن كل الأفلام التي استمتعتُ بمُشاهدتها لم تُرشدني إلى فهم المتاهات النفسية لدى الإنسان كما فعلت روايات دوستويفسكي، ولم تُساعدني كفاية في كشف آليات تفاعل المجتمع كما فعلت روايات تولوستوي وبلزاك. أو صوّرت القمة والقاع في التجربة الإنسانية مثل ما قام بذلك توماس مان، وليام فولكنر، كافكا، جيمس جويس أو مارسيل بروست. بدون أدب ملتزم، سيكون من الصعب احتواء كل هذه المآسي في الحروب، والمجازر، والصراعات الإثنية والدينية، وتشرد اللاجئين والعمليات الإرهابية، والتي تهدد بالتصاعد محطمة للأمل الذي بزغ حين تداعى جدار برلين. إن الكلمة المكتوبة من شأنها أن توقظنا من سبات إرادتنا الجمعية التي تم تخديرها بشعور عامٍّ من الرضا الكاذب".

وأخيرًا يقول:

"رغم إنه أحيانًا ما يقع الخطأ في فهم أهدافه ودوافعه، يجيد الأدب إزالة الغمامة، والتعبير عن حالة السخط في وجه الظلم، وكشف مساحة الأمل في أحلك الظروف".

في مقال كتبه رامي أبادير بعنوان "الموسيقا في ألمانيا النازية" نُشِرَ على موقع مجلة "معازف" الموسيقية أشار فيه إلى ما طرحه أفلاطون عن قوة الموسيقا لفرض سيطرتها على الشعوب وما ذكره "تيودور أدورنو" اختصاصي علم الجمال عن "خطورة الموسيقا عندما تستخدم من قبل الأنظمة القمعية".

شرح رامي أن ألمانيا النازية اتهمت الشكل الطليعي بالانحلال الأخلاقي والتوغل الشيوعي وعدم النقاء الذي يُشوِّه الجنس الآري والثقافة الألمانية، فالأعمال الطليعية لم تلقَ قبولًا لدى الحزب النازي فتم تحجيم دور المسرح والأفلام التعبيرية وإخضاعهما للبروباجندا برعاية جوزيف جوبلز، وسرى هذا على الفنون البصرية واللوحات، فتم التخلُّص من اللوحات الطليعية الحديثة لتُستبدل باللوحات الكلاسيكية القديمة داخل المعارض وصالات الفنون.

"أما الموسيقا فقد خضعت للأيديولوجية النازية لفرض ما أسماه بـ "الموسيقا النازية" فحظرت أعمال مَن يملكون أصولًا يهودية مثل موللر ومندلسون وفايل وشونبرج وفرانز شريكر، بالإضافة إلى طرد الموسيقيين والنقاد الذين لا يعترفون بالجماليات النازية وكانت رؤية النازي للموسيقا الجيدة تتمثَّل بالرجوع إلى العصر الرومانسي والأعمال الفخمة التي تتسم بالنغمية، المتجسدة في المعاصر منها مثل أعمال ريتشارد شتراوس والكلاسيكية مثل باخ وبيتهوفن وشومان وهانز فيتزنر

وريتشارد فاجنر الذي كان بدوره يُكِّن عداءً تجاه اليهود مما أثار إعجاب هتلر"..

وأصبحت الموسيقا أداة في يدّ الطاغية! في النهاية

لا أستطيع أن أنكر أن رحلتي قد أحدثت تغييرًا تجاه نظرتي لبعض الأمور المهمة، ومنظوري حيال الحكم على البشر، طُغـاة كـانوا أم تابعين! إلا أنني بالوقت ذاته ازددتُ يقينًا ورسوخًا بصدق قناعتي أن للإبداع سحره وجماله وقيمته العليا رغم أنه أحيانًا مـا يَـسهُلُ أن تتحول الكلمة المكتوبة واللحن المعزوف واللوحة المرسومة إلى مجرد أدوات بيد الطغيان علينا أن نعترف أن:

الإبداع موهبة فطرية قيّمَة، وأن ما يخلقه ويخلفه في نفوس مـن يتلقونه، من متعة لا يعادلها متعة. وأنه لو اقتصر دور الإبداع علـى تقديم المتعة فحسبه وكفى تلك المزية. ويكون قد أوفى على غايتـه. لكن! يبقى أن توظيف الإنسان للإبداع، هو ما قد يرتحل به بعيدًا عن تلك الغاية خاصة إذا:

ما اقترن الإبداع بالطغيان وأصبحا وجهين لعملة واحدة.

***

المراجع والمصادر

- المجمل في فلسفة الفن 2009– تأليف كروتشه، المترجم سامي الدروبي.

- العلاقة بين الإبداع والحلم 2007 – د. يحيى الرخاوي، المجلس الأعلى للثقافة.

- الإبداع والشخصية، دراسة سيكولوجية 1971 – عبد الحليم محمود، دار المعارف، مصر.

- سيكولوجية النمطية والإبداعية 1991 – يوسف ميخائيل أسعد، مكتبة نهضة مصر.

- قناع الصحة 1941 – هيرفي كليكلي.

- التواصل الاجتماعي 1998 – ميشيل كورناتون.

- الطُغاة و البغاة جمال بدوي – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الطاغية دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، إمام عبدالفتاح – المجلس الوطني للثقافة والفنون 1994.

- حديث الشيطان مقابلات مع سبعة طُغاة 2004– ريكاردو أوريزيو، دار بترا للنشر. سوريا.

- هنري الثامن "السفاح" 1964- جون إدوارد باول، الناشر ديفيد و تشارلز، لندن.
- موسوعة تاريخ أوروبا العام ج2 بداية القرن الرابع عشر: نهاية القرن الثامن عشر 1995- جان بيرنجيه، فيليب كونتامين، إيف دوران، فرنسيس راب ترجمة وجيه البيعني، إنطون الهاشم، عويدات بيرت باريس.
- ينيتو موسوليني "خواطر زعيم"- صبحي وجيدة، دار المجلة للنشر والتوزيع.
- الأيام الأخيرة في حياة موسوليني 1971- ريتشارد كولبير، الناشر فايكينج، نيويورك.
- كفاحي – أدولف هتلر.
- قلق في الحضار- سيجموند فرويد 1996- ترجمة جورج طرابيشي- دار الطليعة للنشر، بيروت.
- هتلر في الميزان – عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت.
- قادة العالم بين الماضي والحاضر "هتلر" - دينيس ويبمان، دار الرشد، دمشق.

• جيانج تشينج "أرملة ماوتسي تونج" من ممثلة إلى إمبراطورة 1979 – د. روكسان ويتكي، مجلة تايم.

• الكتاب الأحمر الصغير – مقتطفات من أقوال ماوتسي تونج – النهار للنشر والتوزيع.

• الثورة الثقافية الصينية– ريتشارد كيرت كراوس 2014، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

• صدام حسين مناضلًا ومفكرًا وإنسانًا 1980– أمير إسكندر، دار هاشيت للنشر.

• زبيبة والملك – صدّام حسين2002.

• الكتاب الأسود لصدام حسين 2004 – مجموعة من الكُتّاب– إشراف الصحفي كريس كوجيرا.

• الكتاب الأخضر – معمّر القذافي.

• قراءات للمجموعة القصصية الأرض القرية القرية انتحار رائد الفضاء– معمّر القذافي.

• مجلة المختار ريدرز دايجست أعداد أكتوبر 79–80، فبراير 82، أبريل، يونيو 92 مؤسسة النهار، باريس.

- المثقفون بين جدلية النخبة والفشل- عبد السلام زاقود، دار نشر الفارابي 2016
- مقتبسات عن: فرويد/ يونج /أحمد إبراهيم الفقيه/ الكواكبي/ محمد حسين هيكل/ شوقي ضيف

* Creative Teaching - 1997 Downing، P. James: Teacher Ideas PressEngle Woo، ColoradoUSA

* The Zhivago Affair June - 2014، Peter Finn & Petra Couvée

* The Six Wives of Henry VIII -2014 Alison Weir. London: Grove Press

* The New Cambridge Modern History Vol. 02 - The Reformation، 1520-59 G. R. ELTON. C U Press2008

* Reviews about Book: Mao: The Unknown Story. By Jung Chang، Jon Halliday- 2006

* La naturaleza de Franco. Cuando mi abuelo era persona ORThe nature of Franco.When my grandfather was a person- Book by Franco the grandson- 2015

المواقع الإلكترونية:

http://www.webcitation.org/query?id=12565913817
13227&url=www.geocities.com/jl_o_c

http://www.prospectmagazine.co.uk/opinions/varga
s-llosa-essay-value-of-literature-television-higher-
purpose

http://www.theatlantic.com/entertainment/archive/
2014/06/why-the-cia-distributed-pocket-size-copies-of-
doctor-zhivago-in-the-soviet union/371369/

http://www.historyonthenet.com/tudors/wars_of_ro
ses.htm

http://www.bbc.co.uk/history/people/catherine_of_
aragon

http://www.ma3azef.com/

http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/europ
e/spain/8762383/General-Franco-and- painting-the-
secret-passions-of-dictators.html

http://www.telegraph.co.uk/culture/art/art-news/8762762/General-Franco-shares-artistic-similarities-with-Adolf-Hitler.html

https://en.wikipedia.org/wiki/Arnaldo_Mussolini

http://totallyhistory.com/francisco-franco/

http://www.albawaba.com/ar/

http://www.lepoint.fr/monde/la-revolution-culturelle-chinoise-et-ses-banquets-cannibales-oublies-16-05-2016-2039653_24.php

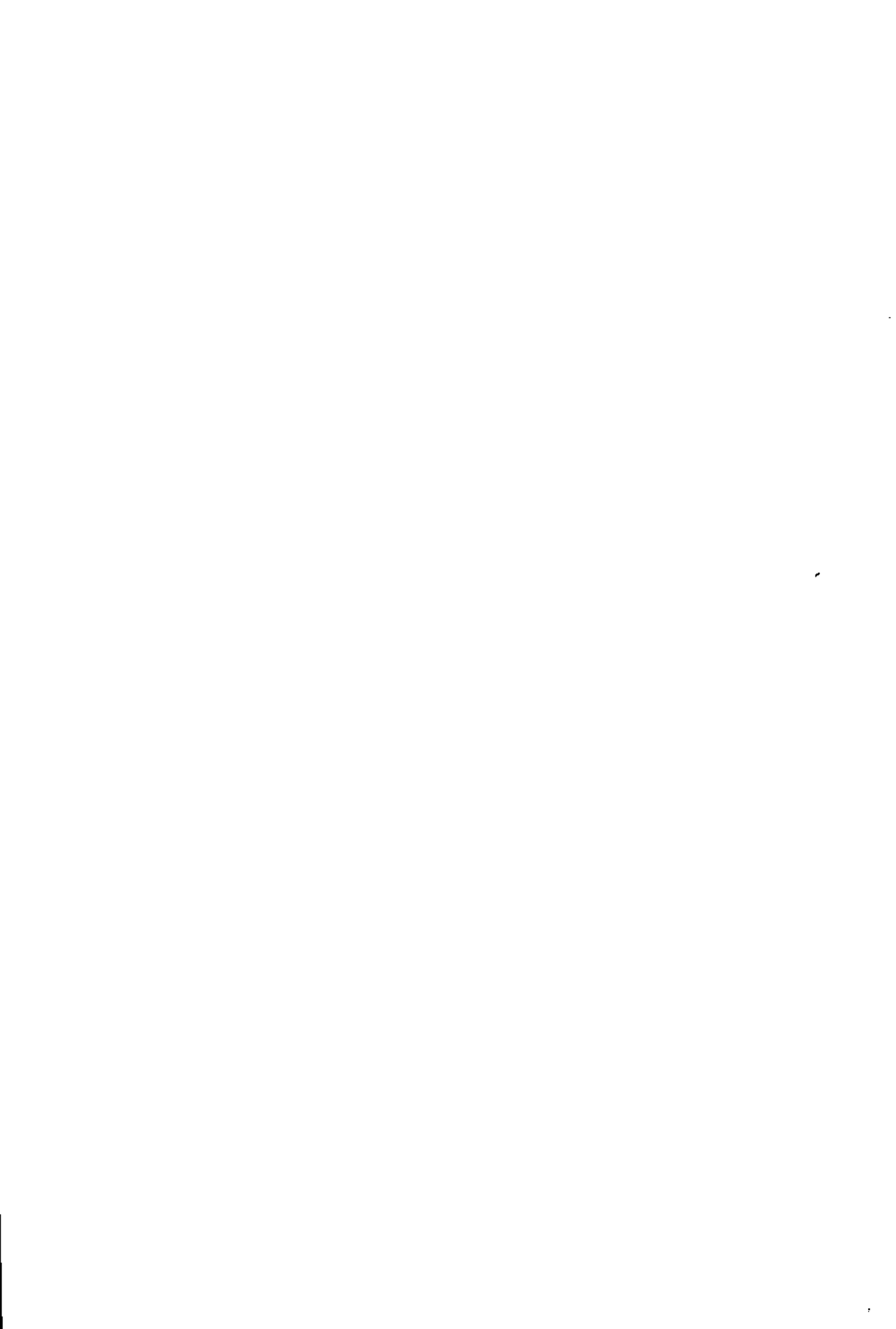
http://www.sasapost.com/leopold/

https://sites.google.com/site/maoforarab/chief/8/l

http://www.nationalgeographic.com/magazine/2017/08/science-good-evil-charlottesville/

الفهرس

القسم الثالث



طُغاة مُبدِعون

هل تظنون أن إصدار حُكمٍ على الطُّغاة، أمرٌ سهل؟
هل تظنون أن وصف إنسان بطاغية، دون الوقوف على الأسباب التي ساهمت في صُنع ذاك الطاغية، أمر مقبول؟
فليكن! هذا خياركم.
أما أنا فبتُّ أعتقد بأهمية الوقوف مليًا بنظرة مطولة أمام كل حالة إنسانية، شائهة، سادية، عنصرية، معقدة، وغير مفهومة أو مقبولة طبقًا للحد الأدنى من فَهْمِ طبيعة النفس البشرية الموغلة في التعقيد.
لا تعني تلك النظرة تبرئة الطاغية من أفعاله، ولا تعني إيجاد أعذارٍ له، إنما تعني أن النظرة الأولى عند الحكم على الأشخاص عمومًا ليست كافية، فما بالكم بالحكم على أشخاص غير عاديين بالمرة، بغض النظر عن تصنيفهم كطُغاة، علينا ألا ننكر أنهم غيروا العالم، وأعادوا رسم طبيعة الحياة فيه وتشكيلها، كان لهم دور مرسوم وموسوم بهم.
ويبدو أنه كان عليهم القيام به شاؤوا أم أبوْا، وعلينا القبول بهذا شئنا أم أبينا!



عبير عواد
كاتبة مصرية بمجلة جيل جديد الإلكترونية
لها صفحة أدبية بإسمها في مشروع الكتاب اولًا.
تتنوع كتاباتها بين المقالات والقراءات النقدية التحليلية.

Cover by #ahz_art






دار اكتب للنشر والتوزيع
12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر
E-mail : daroktob1@yahoo.com
01111947957